

دولة بني أمية في إسبانيا

١- عبد الرحمن الداخل:

أراد الله أن يكون لبني أمية دولة بالمغرب بعد انقراض دولتهم بالمشرق فإن بني العباس لما فتكوا بهم وانتزعوا منهم الخلافة واستباحوا دماءهم كى يستأصلوا شأفتهم ويصفو لهم الجو فر من وجوههم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وهو ابن عشرين سنة^(١) إذ أمر السفاح أول الخلفاء العباسيين أن يقتل هو وابن عمه في دمشق حيث كانا يسكنانها لكن من حسن حظ عبد الرحمن أن كان غائبا في ذات الزيتون فلما بلغه الخبر فر إلى فلسطين وأقام هو وخادمه بدر يتجسس الأخبار.

تربى عبد الرحمن في بيت الخلافة الأموية يتيما فقد مات أبوه معاوية سنة ١١٨ وهو ابن خمس سنين فكفله واخوته جدّهم هشام عاشر الخلفاء الأمويين وكان يقطعه اخماس الاندلس فلهذا كانت انظار عبد الرحمن ترمى إلى اسبانيا.

جدّ بنو العباس في طلبه فقرّ منهم إلى أفريقية وكان حاكم برقة وقتئذ ابن حبيب الفهري وهذا وإن كان صنّعة الأمويين ولكنه دار مع الدهر ونسى إحسانهم القديم فأرسل جنود الشرطة في الأنحاء والطرق ليرقبوا عبد الرحمن ويأتوا به في الاصفاد قائلا لهم: «إن أعظم خدمة تؤديها إلى الخليفة هي القبض على هذا الآبق» جاب عبد الرحمن بلاد برقة على غير هدى بل راكبا التعاسف ولكنه كان يلقي في كل بلد حل فيه كراما يكرمون مثواه وكان يدعو القلوب إلى محبته شبابه وجمال روائه وسيما الملك في محيائه ودماثة أخلاقه.

ذات ليلة فاجأت الشرطة قوما نزل بهم وسألتهم: «هل نظرتم شابا سوريا

(١) ولد في ارباض دمشق سنة ١١٣ للهجرة. في نفح الطيب انه ولد ببدير حنا من أرض دمشق وقيل بالعلاء من تدمر.

صفاته كيت وكيت» فأجابوها: «إنه بكر لصيد الأسد ومعه غصابة من الفتيان بيتون الليلة في وادي كذا» لما سمع السائلون هذا الجواب أرخوا أعنة خيلهم إلى الوادي ثم دخل المضيفون إلى عبد الرحمن وبلغوه الخبر وأمدوه بعشرة شبان أشداء هرب معهم تحت جناح الظلام يقطعون السهول والحزون حتى أبعدوا المفتر في الصحارى وآووا إلى مأوى بعيد عن حباثل ابن حبيب ما راعهم فيه أن سمعوا زئير السباع ثم تابعوا السير نحو الغرب عدة أيام حتى وصلوا إلى مدينة تاهرت^(١) حيث تقيم قبيلة زناتة^(٢) فاستقبلوا فيها استقبالا عظيما فإن الزناتيين كانوا خؤولة عبد الرحمن لأن أمه (راح) كانت تنسب إلى هذه القبيلة.

في هذه الاثناء كانت الحروب الأهلية قائمة في اسبانيا بين يوسف الفهري أمير قرطبة وطليلة وعامر بن عمرو العبدري أمير سرقسطة ومن أجل ذلك ساد الاختلال في انحاء البلاد.

علم عبد الرحمن طريد العباسيين بأحوال اسبانيا فسنحت له أن يشب على كرسى حكومتها ويرفع قدر أمة فأرسل بدرا خادمه الصادق عتيق أبيه إلى اسبانيا ليمهد له ذلك الطريق باستمالته العقول إليه فكان من المصادفات الغريبة وسعد طالع عبد الرحمن أن رأى بدر عند وصوله إلى قرطبة ثمانين شيخا من رؤساء القبائل مجتمعين فيها والأمير يوسف غائب يتشاورون في نزع الامارة منه محتجين بأنه لا يستعملها إلا في منافع الفهرين قبيلته والقيسين قبيلة الصميل رفيقه وبأنه أخذ في سلخ الجزيرة عن خلافة آسيا وقد اتفقوا جميعا على نزعها ولكن كان من الصعب عليهم أن يجدوا أميرا يجمع الصفات التي تقتضيها الحالة الحاضرة.

كاشف بدر بعضهم بمقصده فعرض ذلك البعض على مجتمعهم اسم عبد

(١) يقال لها أيضا تيهرت وكانت عاصمة البربر وبينها وبين تلمسان والبحر أيام قلاتل.

(٢) كانت قبيلة زناتة من القبائل المشهورة بين البربر وهي قبيلة طارق بن زياد وكانت منتشرة في جزء عظيم من ساحل أفريقية وكان هذا الجزء يسمى بالمغرب الأقصى ويشغل أرضه الآن ولاية الجزائر وجزء من إقليم قسطنطينية

الرحمن قائلاً لهم: إنه فتى سورى من بيت خلافة بنى أمية فرّ من فتك بنى العباس ونجّاه تحسب من المعجزات الباهرة وقد التجأ الآن إلى قبيلة زناتة فلما سمعوا اسم أمية هشّوا جميعاً إليه لا سيما السوريون وقرّروا بإجماع الأصوات انتخابه أميراً لاسبانيا.

كانت رئاسة المجتمعين تنتهى إلى أبى عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد صهره فوجّها إلى الأمير المنتخب مركباً فيه تمام بن علقمة أبو غالب ووهب بن الأصفر وشاكر بن أبى الاسمط فعبروا المجاز ومعهم بدر ووصلوا إلى تاهرت فتقدم تمام إلى عبد الرحمن وعرض عليه امارة الاندلس باسم المجتمع قائلاً: «اجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة فيسعدك أن تبنى فيها ملكاً مشيد الأركان موطد الدعائم على أساس أقوى من الجبال معتمد على عزائمهم القوية وطاعتهم الصادقة، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ولكنك لست وحدك بل بجانبك فتيان أشدّاء من أبناء من فتحوا الغرب وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها ونحن جميعاً نهباً إلى الوغى ونبذل الأرواح فى سبيل ارتقائك إلى عرش الامارة التى نلقى مقاليدها إليك ونحفظ بنيانها من أن يثلم».

سكت عبد الرحمن هنيهة يتوقع أن يتمّ تمام خطابه لكنه أحس أن الوفد ينتظر اجابته فقال: «أيها السراة الامجاد إجابة لرغائبكم وسعياً وراء أمانيتكم فى إصلاح شئون مسلمى اسبانيا اذهب معكم باذلاً النفس فى سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة فإذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز رأيت منى اخا ثقة يقاسمكم الشقاء والهناء، يعلم الله إنى لا أخشى الشدائد ولا أهوال الحروب ولا أُرهب الموت الأحمر فقد عركنى الدهر وعركته وكثيراً ما ركبت متون الاخطار على حدائث سنّى وإذا ما كان ما يدعوننى إليه هو رغبة مسلمى الاندلس الاشراف فأنا ألبى نداءهم وأقبل أن أكون أميرهم وحامى ذمارهم، إن شاء الله».

لما قبل عبد الرحمن من الوافدين إليه امارة الاندلس هناك شيوخ زناتة بهذا

المنصب الخطير وأمدّوه بسبعمائة وخمسين فارساً من تاهرت ومكناسة وقيل
بألف فعبر بهم البحر حتى نزل حصن المنكب على ساحل كورة البيرة^(١) في ربيع
الآخر سنة ١٣٨^(٢) في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي.

في ذلك الحين انسلخ اقليم سبتمانيا من حكومة المسلمين وسببه هبوب
عواصف الثورات وتآجّع نيران الفتن في اسبانيا.

في غضون ما كانت سفينة عبد الرحمن تسوقها ريح رخاء إلى الاندلس
وشيعة المنبثون في الجهات يرتقبون وصوله ليستقبلوه ويشهروا امارته على
الجزيرة انتصر يوسف الفهري على عامر وابنه وأخذ منهما سرقسطة في آخر سنة
١٣٧ للهجرة (٧٥٥) ورجع بهما وبجاءيهما الحباب الزهري مصفدين في
الاغلال وبينما هو جدلان من انتصاره إذ فاجأه خبر دخول عبد الرحمن الاندلس
فانقلب فرحه ترحاً وكان وقتئذ في وادي نهر الرمل على بعد خمسين ميلاً من
طليطلة عندئذ قتل الثلاثة المصفدين طعناً بالرمح وكان في قتلهم أقول نجم سعه
وبزوغ شمس سعادة خصمه عبد الرحمن قال يوسف للصميل: ما الرأي فأشار
عليه أن يلطف له ويمتّيه زواج ابنته ويهديه ولا يعاديه وبذا يتحكم فيه وفيمن سعوا
له فبعث يوسف كاتبه خالدا بكتاب وكسوتين ومطيتين وخمسماية دينار وقال له:
اعرف امره وأمر من حوله فخرج في الليل ومعه صَحْبٌ وأصبحوا على ابن معاوية
بالكتاب والهدية، فقبل الهدية وأبى التزوج فأغلظ خالد القول فأمر ابن معاوية
بوثاقه وردّ غيره إلى يوسف ولم يردّ عليه جواباً ومن كتاب يوسف إلى ابن معاوية
«أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتابش من تابش إليك ونزع نحوك
من السُّراق وأهل الخُسر والغدر ونقض الإيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها

(١) مملكة غرناطة.

(٢) في ابن الأثير ونفح الطيب وكندي أن عبد الرحمن نزل حصن المنكب في شهر ربيع الآخر من
سنة ١٣٨ وخطأ رومي شهر التاريخ وقال أن عبد الرحمن نزل هذا الحصن في ثالث ذي
القعدة من هذه السنة.

وكذبونا وبه - جل وعلا - نستعين عليهم ولقد كانوا معنا فى ذرى كتف ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفاً وجنحوا إلى التقض والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فإننا أولى بك ممن لجأت إليه أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ثم لك عهد الله وذمته بى ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب أفريقية ولا غيره^(١) هذا بعض فصول الكتاب.

لما لم يرد ابن معاوية على يوسف جدّ هذا وصاحبه الصميل فى المسير وأرسلا أوامر بحشد الجنود فى أقرب وقت وأمر يوسف ابنه عبد الرحمن بأن يدافع عن كورة قرطبة حتى يصل إليه.

لما نزل عبد الرحمن من السفينة إلى حصن المنكب ومعه نحو ألف فارس من زناته بادر رؤساء الاندلس إلى استقباله وحلفوا له يمين الطاعة وكان فى مقدمتهم أبو عثمان وابن خالد رئيسا قبائل البيرة فركبوا إلى قرية طرّش TARRX منزل أبى عثمان.

انتشر خبر دخول عبد الرحمن الاندلس بسرعة فى جميع انحاء اسبانيا الجنوبية فكان يجيئه وجوه القبائل ويبايعونه ويلقبونه بالداخل وفى أيام قلاتل جمعوا له عشرين ألف جندي من كور البيرة والمرية ومالقه وشريش وأركش وشدونة، كان يتقل من كورة إلى أخرى قاصدا قرطبة ورؤساء اليمانية ينضمون إليه أثناء المسير فانضم إليه فى رية عيسى بن مساور^(٢) وفى شدونة غياث^(٣) بن علقمة وفى مورور أبو الصباح.

يرى أن مسير عبد الرحمن إلى قرطبة ما كان فى طريقها السلوك فإنه سار من

(١) ابن عذارى.

(٢) فى ابن الأثير عيسى بن مساور وفى ابن خلدون عيسى بن مسور.

(٣) فى ابن الأثير غياث بالغين المعجمة والشاء المثناة وفى ابن خلدون عتاب بالعين المهملة والباء الموحدة.

الشرق إلى الغرب فى الأرض التى يسكنها المصريون والسوريون المخلصون فى ولائه فكانت المدن تفتح له أبوابها ولما قرب من اشبيلية سارع أهلها وهم من قریش إلى استقباله ثم صعد منها مسرعا إلى النهر الكبير قاصدا قرطبة حيث كان ابن يوسف مستعدا للقتال فخرج للقائه بقود جيشا قويا على الشاطئ الأيسر من النهر فتقابلوا ودارت رحى الحرب بين الفريقين بدون إبطاء: حمل جيش الفهرى على أعدائه ببسالة ولكن ما أمكنه أن يثبت أمام شجاعة فرسان زناته بل انقلب على عقبيه فارا إلى قرطبة واقتفى أثره عبد الرحمن حتى وصل إلى أسوار المدينة وحاصرها.

لما بلغ يوسف خبر هزيمة ابنه وقع الرعب فى قلبه وجدّ هو والصميل فى المسير ليرفعا الحصار عن قرطبة وعزما أن يفاجئا معسكر عدوهما المخيم فى السهل المنحصر بين النهر الكبير وجزء نهر يانه المحاذى لمدينة بطليوس ويفتكا به. أدرك عبد الرحمن خطة سيرهما فبادر إلى لقائهما وأخذ معه عشرة آلاف من جيشه وترك مثلها تحاصر المدينة تحت قيادة تمام بن علقمة وأقدم بشهامة على مقابلتهما مع أن عدد جنودهما يزيد عن ضعف جنوده فتلاقى الجيشان فى صحراء المصارة غربى قرطبة فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٨ ودارت رحى الحرب بينهما فى العاشر منه أى يوم عيد الأضحى وكان يوم الجمعة (١٥ مايو سنة ٧٥٦). تفاعل عبد الرحمن بالفوز لمشابهة هذا اليوم بيوم مرج راهط الذى كانت فيه الواقعة بين جده مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهرى فدارت الدائرة على الأخير.

أراد الداخل أن يشدّ عزائم جنوده فقال لهم يوم التلاقى: «أى يوم هذا» فقالوا: «الخميس يوم عرفة» فصاح قائلا: «فالأضحى غدا يوم الجمعة والمتزاحفان أموى وفهرى والجنندان قيس ويمن قد تقابل الأشكال جدا وأرجو

أنه أخو يوم مرج راهط فابشروا وجدّوا^(١) فلما سمعوا ذلك قويت عزائمهم ووثقوا بالنصر وباتوا يأخذون أهبتهم للقتال وبات جيش يوسف يُعدّ الضحايا للذبح واشيع فيه قبل الفجر حديث مشابهة يوم مرج راهط بيوم الغد فتشاءموا وخارت قواهم.

لما تنفس الصبح هجم فرسان عبد الرحمن على فرسان يوسف بغتة فتزعزع هؤلاء وارتدّوا على أعقابهم بدون نظام حتى اختلطوا مع المشاة وساد الفشل فيهم وفي منتصف اليوم تبدّد شمل الفهريين وتفرقوا أيدي سبا تاركين معسكرهم مغطى باشلاء القتلى وأسلاهم وأسلحتهم وافترق يوسف والصميل فالأول فرّ نحو ماردة والثاني نحو جيان هذه الواقعة رفعت شأن عبد الرحمن وأيدت سلطانه.

روى أن أبا الصباح رئيس اليمانية قال لهم بعد هزيمة يوسف والصميل: «يا معشر يمن هل لكم إلى فتحين في يوم قد فرغنا من يوسف والصميل فلنقتل هذا الفتى ابن معاوية فيصير الأمر لنا نقدّم رجلا منا ونحلّ عنه المضربة» فلم يجبه أحد لذلك فإن شهامة عبد الرحمن في الواقعة ملكت قلوبهم. بلغه الخبر فأسرّها في نفسه إلى أن اغتاله بعد عام فقتله.

رجع عبد الرحمن إلى قرطبة وقد فرغ أهلها ففتحوا له أبوابها على شرط أن يدخل من باب القنطرة الغربى وأسرة يوسف وأتباعه تخرج من الباب الشرقى. فلما دخلها لم يستقرّ به قرار بل أقام عليها أبا عثمان محافظا^(٢) ونهض في طلب يوسف فعلم هذا بأمره وبأن حامية قرطبة عددها قليل فانتظر حتى جاوز

(١) كذا في نفع الطيب صحيفة ٧١٤ وما بعدها وفي تقييدات رومى صحيفة ١٩١ من الجزء الثالث (أن هذا اليوم كان في سنة ٢٤ للهجرة وأن الواقعة كانت بين مروان وأحزاب خصمه الزبير في شرق غوطه دمشق) وأقول إن هذا الواقعة كانت في سنة ٦٤ لا ٢٤.

(٢) كذا في تاريخ رومى والتواريخ العربية لكن في تاريخ كندى أنه أقام حسام بن عبد الملك محافظا على قرطبة صحيفة ١٧٨ (جزء أول).

خصمه جبال مورين SIERRA MORENA فخالفه فى الطريق وانقض على المدينة فلم يسع أبا عثمان وجنده القليل العدد إلا الفرار إلى حصن مدور من كورة غرناطة^(١) وقيل: إن يوسف أمر ابنه أبا زيد أن ينقض على المدينة ففعل وحاصر عبيد الله فى منارة الجامع الكبير حتى الجأه إلى التسليم وأخذه أسيرا وأخذ جارتين كانتا فى القصر لعبد الرحمن^(٢).

عاد عبد الرحمن على الفور واسترد المدينة لكنه لم يجد يوسف فاقتفى أثره حتى لحقه فى أرض المنكب وكان قد اجتمع بصاحبه الصمیل وناجزهما القتال بدون ريث حتى مزق جيشهما كل ممزق فالتجأ إلى جبال البيرة فتبعهما فنزل يوسف وادى شنيل حيث توجد جملة بيوت من انشاء العرب يكتنفها حصون منيعة على مسافة غير بعيدة من البيرة القديمة وآل أمر هذه البيوت بعد عدة قرون إلى أن صارت مدينة غرناطة الشهيرة وهى آخر مدينة كان بها عز وسلطان للمسلمين فى اسبانيا، وبعدئذ أحسن يوسف أنه لا يمكنه المقاومة زمنا طويلا وأشار عليه الصمیل أن يخبر عبد الرحمن فى الصلح ففعل وتم بينهما فى صفر سنة ١٣٩^(٣) على أن يكون للأسوى الإمارة والسلطان على جميع البلاد وللشهرى أمواله خاصة وأن يسكن بلاط الحرّ (منزلة بشرقى قرطبة) وأن يعطيه رهينة على ذلك ولديه أبا الأسود وأبا زيد يبقيان فى قصر الإمارة مكرمين إلى أن تهدأ الجزيرة فيردّهما إلى والدهما، وفى أثناء مخابرات الصلح ردّ خالد الاسباني اسير عبد الرحمن إلى يوسف وهذا ردّ إليه اسيره عبيد الله وبعد الصلح عاد عبد الرحمن إلى قرطبة ويوسف على يمينه والصمیل على يساره فى (يوليو سنة ٧٥٦)^(٤).

(١) كندى.

(٢) دوزى.

(٣) فى المقرئ أن عقد الصلح تم فى صفر سنة ١٣٩ كما ذكرنا وفى رومى وكندى أنه تم فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩ - ٢٩ سبتمبر سنة ٧٥٦.

(٤) دوزى.

يؤخذ من كندى ورومى أن عبد الرحمن عهد فى هذه السنة إلى الصميل بإمارة الحدود الشرقية نحو جبال البرانس المشتملة على وادى ابره من سرقسطة إلى طرطوشه جزاء نصائحه التى حسمت الخلاف وعقدت الصلح بين الفريقين.

لما ذاع خبر الصلح فى اسبانيا خضع إلى عبد الرحمن شيوخ القبائل من اليمانية والمضرية فى الجنوب والغرب وجاءت إليه وفود الجهات ترى لتعرب له عن طاعتها وإخلاصها فأكرم مشواهم واحتفى بهم وابقى القادة منهم فى قيادتهم والعمال فى عمالاتهم فخرجوا من عنده فرحين شاكرين وعادوا إلى مدنهم وألستهم تطرى مدحه وتردد الثناء عليه، ثم إنه زار المدن الشهيرة من الاندلس والاسترامادورة ASTRAMADURE توجه إلى ماردة فى طنطنة مسموعة وأبهة مرموقة يصحبه كثير من اصدقائه وكوكبة من فرسان زناته فدخلها فى يوم مشهود واخترق شوارعها ممتطياً جواداً نهذاً مطهّماً تحفه نهيلات الفرح والسرور من الأهلين، وفى هذه المدينة استقبل مبعوثى البرتغال (لوزيتانية) والقنطرة وبطليوس وغيرها وقدموا له مراسيم الطاعة بالنيابة عن بلادهم.

عاد عبد الرحمن إلى قرطبة بهجاء من نجاح سياحته السياسية وصفا له جو الحدثان زمنا رزق فيه بمولود سمّاه هشاماً فى رابع شوال سنة ١٣٩ (أول مارس سنة ٧٥٧) أى فى السنة الهجرية التى تولّى فيها.

وفى هذه السنة ابتنى الأمير منية الرصافة تشبيها برصافة جدّه هشام فى الشام فاتخذ بها قصرًا عاليًا يشرف على جميع الجهات يرى منه الرائي مناظر على مسافات شاسعة ودحا حوله حدائق واسعة نقل إليها غرائب الغروس واكارم الشجر من كل جهة وغرس بيده فيها نخلة احضرها من الشام والتخل ما كان معروفًا عند الاسبانيين فى ذلك الوقت فكانت هى أول نخلة غرست فى أرض

اسبانيا ومنها تولد النخل الاسباني، ويروى أن الأمير كان يراقب نماء هذه النخلة من قصره وينشد:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بارض الغرب من بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول اكتئابى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غواذى المزن فى المتأى الذى
يسحّ ويستمرى المساكين بالوبل

قال ابن سعيد والرمّان السفرى^(١) الذى فاض على ارجاء الاندلس وصار لا يفضلون عليه سواه من هذه الرصافة.

كان الأمير كثير الحنين نحو الشرق موطنه القديم دائم التفكير فى بقايا الامويين المضطهدين المشتتين فى العراق ومصر وبرقة حتى بعث معاوية بن صالح الحضرمى رسولا إلى الشرق بدعو من شاء منهم إلى التوجه إلى الاندلس وانشد يتشوق إلى معاهده بالشام مخاطبا الرسول:

أقر من بعضى السلام لبعضى	أيها الراكب الميمم أرضى
وفؤادى ومالكىه بأرض	إن جسمى كما علمت بأرض
وطوى البين عن جفونى غمضى	قدّر البين بيننا فافترقنا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى	قد قضى الله بالفراق علينا

(١) قيل سبب تسميته بذلك أن الأمير أرسل رسولا يحضر أخته من الشام إلى الاندلس فجلب طرائف من رمان رصافة هشام فأعطى جزءا منه إلى سفر بن زيد من جند الأردن ففرس عجمه فأبغى وأتمر وجاء بجناه إلى الأمير فاغترس منه بجنان الرصافة فانتشر نوعه.

ففى أوائل سنة ١٤٠ عاد الرسول إلى اسبانيا ومعه كثير منهم وكان من بينهم عبد الملك بن عمر المروانى وابناؤه فعقد له الامير على اشبيلية^(١) ولابته عمر على المدور ونصب معاوية قاضى القضاة فى اثناء ما كان عبد الرحمن يصرف الستين الأولى من حكمه فى إصلاح شئون اسبانيا وتوطيد دعائم ملكه فيها كان يوسف يصرف ثروته الواسعة فى تأليف حزب له سرّاً.

ففى أوائل سنة ١٤٢ ظهر له أن حان الوقت المناسب لإيقاد نار الثورة وردّ ما سلب منه فثار واستولى على حصن المدور وما جاوره فى غرب قرطبة وقام معه نحو ٢٠ ألف نائر وأخذ يجلّد سلطانه على الأقاليم حيثنّ بادر عبد الملك وابناؤه وتحت امرتهم جنود من اركش وشدونة واشبيلية إلى ردّ هذا الحصن وغيره من المدن المجاورة^(٢) فإن سكانها انقلبوا ينادون باسم يوسف فهاجمهم حتى هزمهم.

وأخذ عبد الملك يطارد المنهزمين نحو أرض تدمير حيث كان فيها العدو قوى الجانب كثير العدد بعد أن كتب إلى عبد الرحمن يخبره بالنصر وأن يمدّه بمدد عظيم يجيء من طريقتين كى يفرّق قوى يوسف المجتمعمة ويشغلها فلحقهم فى برارى لورقة LORCA^(٣) ودارت رحى الحرب بين الفريقين وانجلت عن تبديد شغل الفهريين واصابة يوسف بعدة جراحات أودت بحياته فقطع رأسه وأرسل إلى عبد الرحمن^(٤) وروى أن هذه الملحمة وقعت بين ماردة وطلبيلة وأن يوسف اغتاله بعض جنده اثناء هزيمته وأرسلوا رأسه إلى قرطبة دليلاً على طاعتهم وكانت مدّة حكم يوسف ٩ سنين و٩ أشهر.

(١) فى نفع الطيب صحيفة (١٥٦) أن عبد الملك بن عمر المروانى وفد على عبد الرحمن من المشرق فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة سنة ١٤٠ فعقد له على الشيلية ولابته عمر بن عبد الملك على مورور.

(٢) كذا يؤخذ من كندى ورومى.

(٣) كذا فى رومى، وفى كندى لوثة LOXA.

(٤) كذا يؤخذ من رومى وكندى، وفى التواريخ العربية ما يخالف ذلك.

وأما أولاد يوسف الثلاثة فأكبرهم أبو زيد اقتفى أثره وإلى طليطلة تمّام وقتله وأرسل رأسه إلى قرطبة فعلق بجانب رأس أبيه وأوسطهم أبو الأسود حبسه بدر في طليطلة في ٩ ذي القعدة سنة ١٤٢ (٢ مارس سنة ٧٦٠) ومنّ عليه بحياته على شرط أن يسجن في إحدى قلاع قرطبة الحصينة طول عمره وأصغرهم قاسم ابن يوسف نجا بنفسه والتجأ إلى الجزيرة الخضراء عند عاملها رزق بن النعمان الغساني فأجاره وجهّز جيشاً هاجم به شدونة واشبيلية^(١) ولكن تمّام توجه إليه وردّه إلى أرضه وأخذ قاسماً وساقه إلى قرطبة مغلولاً فلم يقتله عبد الرحمن بل أرسله إلى طليطلة تحت قيادة بدر ليسجنه في قلعة تاجه.

كافأ عبد الرحمن تمّاماً بتوليته منصب الحجابة وهي تقابل في زماننا رئاسة الوزراء.

واقضى بدر خطوات الصميل وراقبه إلى أن جاء به من شقندة إلى قرطبة وزجّه في السجن حتى مات خنقاً بجبل وقيل قطع رأسه بسكين، الآن بلغ عبد الرحمن ما كان مطمح نظاره فقد تبوأ عرش مملكة اسبانيا الواسعة الأرجاء بحكمته وشهامته ودهائه بعد أن أهلك عتاة اعدائه المنازعين له في سلطانها ومن العجب العجائب أن بلغ هذا المرقى بعد أن طلّ دمه وفرّ من وطنه اتقاء الفتك به وقاسى الشدائد وتجشم الاخطار ضالاً في صحارى أفريقية بين قبائل المغرب خمس سنوات ومع هذا الرقى ما صفت له الأيام ولم يهنأ بما أتاحه له القدر من الملك والسلطان فإنه حكم اسبانيا ٣٣ سنة هجرية لم يكن فيها لواء السلم منشوراً بل نازعه في الامارة الفهريون واليமானيون والافارقة ونصارى الشمال والفرنج.

ففى سنة ١٤٤ للهجرة بلغ الأمير أن قبيلة قوية تحت إمرة هشام بن عذرة

(١) كذا يؤخذ من رومى وفى ابن الأثير أن رزق بن النعمان الغساني وكان على الجزيرة الخضراء ثار بالاندلس على عبد الرحمن فى سنة ١٤٣ فاجتمع إليه خلق عظيم فسار إلى شدونة فملكها ودخل مدينة اشبيلية وعاجله عبد الرحمن فحصره فيها وضيق على من بها فتقربوا إليه بتسليمهم رزقا فقتله فامتهم ورجع عنهم.

الفهرى قامت على وزيره فى طليطلة وأخذت منه القصر وطرده وفكّت اسار قاسم بن يوسف الفهرى من السجن واجتمع تحت لوائها عشرة آلاف رجل فسار إليهم عبد الرحمن بنفسه وحاصرهم فى طليطلة وشدد الحصار عليهم طويلا حتى اضطر غير الفهرين من المحاصرين إلى أن يتذمروا على هشام بن عذرة وفى ذلك الحين جاء الأمير خبر ثورة اشدّ خطرا من هذه فاضطر إلى أن يصالح هشاما على شرط أن يفتح المدينة بدون ريث وأن يسلم ابنه محمدا رهينة على الصلح وأن يردّ قاسما إلى السجن فخضع ابن عذرة لهذه الشروط كرها وألقى مقاليد المدينة إلى الأمير فى (آخر سنة ١٤٥ للهجرة - ابريل سنة ٧٦٣).

وفى سنة ١٤٥ ارسل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور إلى والى القيروان العلاء بن مغيث أن ينزع اسبانيا من ابن معاوية ويردّها إلى خلافة بنى العباس فاستعدّ هذا الوالى لما دعاه إليه الخليفة فبلغ شيخ تاهرت عاصمة زناته خبر الاستعداد إلى عبد الرحمن اثناء ما كان يحاصر طليطلة وهذا ما حمّله على عقد الصلح مع ابن عذرة فى شهر (افريل سنة ٧٦٣).

وفى هذا الشهر نفسه أغار العلاء على شواطئ الاندلس وجاء نبؤه إلى طليطلة فندم هشام على الصلح ودعا حزبه إلى السلاح ونزعوا إلى الثورة ثانية وهاجموا القصر وقتلوا جميع من كانوا يدافعون عنه ومن بينهم سعيد بن المسيّب والى طليطلة واستولوا على أبواب وحصون المدينة ودعوا إلى (المنصور الخليفة العباسى) فبلغت الانباء إلى قرطبة فأمر الأمير قائده بدرا بجمع جيوش من قلعة رباح وطلبيرة وغيرهما وأن يحاصر طليطلة آخذا معه محمد بن هشام الرهين وأن يمنع ابن عذرة من أن ينضم إلى ابن مغيث ولكن بدرا قد فاتته الفرصة وحاصر المدينة بعد أن خرج منها هشام قاصدا العلاء.

وهذا الأخير أوغل فى إقليم باجة من جهة الغرب قاصدا قرطبة محرضاً الأمة على اشهار السلاح فى وجهه (الداخل) قائلا: «إنه أبقيّ شقىّ من قوم اخنى عليهم

الدهر ملعونين على منابر الشرق مغضوب عليه من خلافة الإسلام الشرعية» حاملاً اللواء الأسود شعار بنى العباس ليستميل القلوب إليه مدعياً أنه استلمه من الخليفة نفسه وأن من يتبعه فجزاؤه الجنة فاتبعه ناس كثيرون تزعزعت أفكارهم من زخرف قوله وفوق ذلك كان يكثر العطايا لتابعيه ويعددهم بأضعافها عند الفوز.

فى هذه الاثناء جمع عبد الرحمن جنوداً من أنحاء شتى ورتبها ثلاث فرق كانت ثالثها أشد بأساً لأنها كانت مؤلفة من فرسان قرطبة واشبيلية وشرش ثم قدم شراذم من جيشه تناوش العدو فلما صارت على مرأى من معسكر العلاء الكثير العدد خرج عساكره عن متاريسهم ووقعت بين الفريقين مناوشات غير كبيرة الجدوى وكان هشام وقتئذ وصل إلى هذا المعسكر ليدعو وإلى القيروان إلى الإسراع فى الاستيلاء على طليطلة عاصمة الأندلس القديمة.

ولما طلع فجر اليوم التالى زحف العسكران للقتال فبدأت عسكر ابن مغيث بالهجوم فكانت ملحمة شديدة استمرت بدون رجحان فريق على آخر إلى منتصف النهار ثم هجم فرسان الأندلسيين بحمى شديدة على الأفارقة فبددوا شملهم وحلوا عقد نظامهم وقتلوا العلاء قائدهم.

قال رومى ما معناه: تقدم عبد الرحمن إلى العلاء وقابله فى أرض بطليوس وتقاتلا أياماً بدون أن يظهر فريق على آخر ولكن آل الأمر إلى أن لا يحتمل العباسيون هجمات فرسان الأمويين وأن يسقط لواء الخليفة فى يد الأمير وإلى قتل العلاء وسبعة آلاف من جيشه وإلى انهزام باقيه إلى أفريقية - وبعد أن قضت هذه المعركة الشعواء سنة ١٤٦ قطع ابن معاوية رأس ابن مغيث ويديه ورجليه وأرسل هذه الاشلاء سراً إلى القيروان ومعها هذه الكتابة «هكذا يقتص عبد الرحمن بن معاوية بن أمية من المعتدين عليه كالعلاء بن مغيث وإلى القيروان» ويروى أن العلاء بن مغيث ثار بياجئة سنة ١٤٦ ودعا إلى طاعة المنصور فاتبعه الناس إلى أن كادت دولة الأمير تنصرم فخرج إليه من قرطبة وصار بقرمونة فتحصن بها مع

مواليه وثقاة رجاله فنازله العلاء وحاصره بها نحو شهرين فلما طال الحصار ملّ
عسكر العلاء الانتظار وعلم عبد الرحمن ما هم عليه فأمر بنار فأوقدت بالقرب من
باب المدينة وقال لأصحابه وكانوا نحو سبعمائة من أبطال الرجال «لنلقى أعماد
سيوفنا في هذه النار ونحلف على الموت كراما في ساحة الوغى إذا لم يكتب لنا
النصر» فكلهم ألقوا الأعماد في اللهب وخرجوا من المدينة والشجاعة تغلى في
صدورهم وانقضوا على المحاصرين انقضاض العقبان على الغريبان فبددوا
شملهم وقتلوا العلاء رئيسهم وسبعة آلاف منهم.

ثم إن الأمير أمر بجزّ رأس العلاء ورءوس أشراف أصحابه وقرّطت في آذانها
صكوك باسمائهم وأودعت اسفاطا وأنفذ الأمير قوما توجهوا بها إلى القيروان
فطرحوها في الليل في الأسواق فتسمع الناس أمرها واتصل الأمر بأبي جعفر
فانكسرت حدته وقيل: إن رأس ابن مغيث، حملت في سَفَط ومعه اللواء الاسود
إلى مكة ليقع عليها نظر المنصور وهو حَاجٌ فلما رآها ارتاع وقال ما هذا إلا شيطان
(يعنى عبد الرحمن) الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا^(١).

لم تكن هذه الهزيمة حاسمة للنزاع لأن هشام بن عذرة قاوم زمنا وتحت رايته
بقايا الفهريين والعباسيين فإنه لما لم تمكنه العودة إلى طليطلة التى كان بدر
يحاصرها توجه إلى شدونة فاستولى عليها ثم فاجأ اشبيلية وخرّب فيها دار الصناعة
والقصر فعادت الجنود الأموية إليه ففرّ إلى شدونة حيث تجمعت احزابه ولكن
عبد الملك بن عمر حاصرهم فيها وضيق عليهم دائرة الحصار فلم يبق لهم إلا
أحد أمرين اما أن يسلموا البلد واما أن يخرجوا ويخترقوا معسكر العدو وقد عولوا
على الأمر الأخير ففى ليلة ليلاء خرجوا من بابين من أبواب المدينة وفاز عدد
عظيم منهم بالنجاة إلى جبال زندة وجاز بعضهم البحر إلى أفريقيا ولكن هشاما

(١) ابن عذارى ودوزى والمقرى مع تصرف.

ما أمكنه الفرار معهم لشيخوخته فأدركته خيل الأمويين وأصيب فرسه بضربة فسقط ووقع في قبضة عبد الملك فعجل بقتله سنة ٧٦٥م.

لنعد إلى حصار طليطلة:

ابتدأ حصارها سنة ٧٦٣م ومكث إلى سنة ٧٦٦ وسبب طول الحصار أنها كانت ذات حصون قوية وأهلها وإن كانوا أخلاطا من المسلمين والنصارى المستعربين لم ينشقوا في الرأي بل أجمعوا أمرهم على خطة واحدة في السياسة وهي أن لا يتقادوا لأمير قرطبة ضارين صفحا عن اختلافهم في الدين، وصدقهم في الدفاع عن المدينة ثبط عزائم المحاصرين فبنوا مساكن وقتية أمام طليطلة ووطدوا أنفسهم على سكناها واكتفوا بأن يقلقوا أحيانا أحراس أبواب المدينة وينهبوا الأطعمة التي كانت تصل إليها عادة بدون كبير مانع ومن طول المقام ضاعت حميتهم فتراخوا في الحصار إلى أن صار كهجنة بينهم وبين أهل المدينة فما كانوا يهاجمونها ولا يمسكون الطرق عليها بل آل الأمر إلى تبادل الروحات والجثث بين المعسكر والمدينة والتساهل في دخول سفن النهر حاملة الأقوات إليها وإن سكان ضواحيها يزرعون ويحصدون ويدخلون المحصود إليها بدون كبير مشقة.

استبطأ الأمير بدرا فأرسل إليه تمآما ليجهزها معاً على طليطلة سريعا فلما وصل تمآم تغيرت الشئون إلى شدة ومضاء عزيمة وتيقظ وإقدام فتوالى الهجوم على المدينة وتسلىق الجند جدرانها الواطئة فذعر أهلها ورضخوا إلى التسليم بعد أن نجوا قاسم بن يوسف الفهرى فعبّر النهر سبحا وولّى الفرار وفتحوا أبواب المدينة على أمان من تمآم سنة ١٤٩^(١) (٧٦٦).

وفي سنة ١٤٩^(٢) (٧٦٦) ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطرى بكورة لبلة

(١) في كندى أن فتح المدينة كان في آخر سنة ١٤٨ وما ذكرناه مأخوذ من رومى.

(٢) في ابن الأثير أن ثورة المطرى كانت في سنة ١٤٨ وفي غيره أنها كانت في سنة ١٤٩ والظاهر أنها طالت في غضون السنين.

طالبًا بثأر من قُتل من اليمانية مع العلاء وتغلب على اشبيلية فسار إليه عبد الرحمن ففرّ وامتنع بقلعة رعوان^(١) فحاصره وكان قد وافقه على الخلاف غياث بن علقمة اللّخمى بمدينة شدونة فأمدّه فبعث عبد الرحمن بدرا فحال دون الممدد ودون المطرى ثم طال عليه الحصار فخرج من القلعة وقاتل وقُتل فقدم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان فدام الحصار ثم استأمنوا إلى عبد الرحمن وسلموا إليه الحصن فخرّبه وقتل خليفة ومن معه ثم سار إلى غياث فحاصره بشدونة حتى استأمن فأمنه وعاد إلى قرطبة^(٢).

يؤخذ من ابن الأثير وابن عذارى ودوزى «أن عبد الرحمن عزل في هذه السنة أبا الصباح رئيس اليمانية عن اشبيلية» فإنه كان يوجس خيفة منه من يوم واقعة المصارة حين أشار على قبيلته بقتله فنزع إلى الخلاف ودعا اليمانيين إلى السلاح فوجه إليه الأمير حاجبه تمامًا فأمنه ولاطفه حتى جاء به قرطبة فغدر به عبد الرحمن^(٣) ويروى بعضهم أن أبا الصباح قدم قرطبة في أربعمئة فارس على غير عهد فأوصله تمام إلى الأمير فعاتبه فأغلظ له أبو الصباح في الجواب فأمر بقتله^(٤) وقيل: إن الأمير حاول قتل أبي الصباح بخنجر فقاومه فاستعان عليه بحرسه فقتلوه ثم أمر عبد الرحمن بطمس آثار الدم وتغطية الجثة بغطاء ثم أحضر وزراءه وقال لهم إن أبا الصباح محبوس في القصر واستشارهم في قتله فإشاروا عليه بأن لا يفعل خشية من خطر يتوقع من فرسان أبي الصباح الذين هم بباب القصر وخالفهم في الرأي أحد أقارب الأمير، حيثنّد قال عبد الرحمن «قد قتلته» وكشف الغطاء وأرسل من أخبر الفرسان بأن صاحبهم قضى نحبه فلينصرفوا فانصرفوا بسلام.

ولم يذكر حادثة أبي الصباح هذه في سنة ١٤٩ ابن خلدون ولا المقرئ ولا رومى

(١) وقيل زهواق.

(٢) ابن خلدون ابن عذارى.

(٣) ابن الأثير.

(٤) ابن عذارى.

ولا كندى والظاهر أنها وقعت قبل هذه السنة فقد ذكروا عقب واقعة المصاراة سنة ١٣٨ أن عبد الرحمن اغتال أبا الصباح بعد عام - وتقدم أيضا أن عبد الرحمن ولّى عبد الملك اشبيلية حين قدومه من الشرق سنة ١٤٠.

ويروى أن عبد الرحمن غزا في هذه السنة جبال جليقية GALICE وجبال البشكنس في شمال اسبانيا فاضع الثائرين الذين كانوا نبذوا الطاعة وعاد جنده إلى قرطبة مثقلا بالغنائم الواسعة يقود كثيرا من الأسرى ومن قطعان الماشية.

وفي سنة ١٥١^(١) ثار في شرق الاندلس رجل من بربر مكناسة يعرف بشقنا^(٢) ابن عبد الواحد كان يعلم الصبيان وادعى أنه من ولد فاطمة والحسين عليهما السلام وتسمى بعبد الله بن محمد وسكن شتبرية واجتمع إليه خلق من البربر فسار إليه عبد الرحمن فهرب في الجبال واعتصم بها فرجع وولّى على طليطلة حبيب بن عبد الملك فولّى هذا على شتبرية سليمان بن عثمان فنزل إليه شقنا واخذه وقتله وغلب على ناحية قورية وأفسد في الأرض فعاد إليه عبد الرحمن سنة ١٥٢ وأعياه أمره وصار يتنقل في البلاد ويهزم العساكر وسكن حصن شيطان^(٣) من جبال بلنسية ثم سار إليه عبد الرحمن سنة ١٥٦ واستخلف على قرطبة ابنه سليمان فأتاه الخبر بزحف أهل غرب الاندلس من اليمانية نحو قرطبة^(٤) تحت قيادة عبد الغفار بن حميد اليحصبي زعيم لبلة وحياة بن ملابس زعيم اشبيلية فرجع عن شقنا وانهض عبد الملك في معظم الجيش لقتالهم فسار إليهم، ولما قرب منهم قدم ابنه أمية في أكثر العساكر فخالطهم فوجد فيهم قوة

(١) كذا في ابن الأثير - وفي ابن خلدون سنة ١٥٠ - وفي ابن عذارى سنة ١٥٢.

(٢) بالنون بعد القاف كما في ابن الأثير وابن خلدون وفي دوزى Chak ya (شقيا) بالياء ولم يذكر اسمه المقرئ ولا ابن عذارى.

(٣) وقيل شطران وسيطران.

(٤) المقرئ صحيفة ٧١٨ طبع بولاق.

فخاف الفضيحة معهم فانحاز منهزما إلى أبيه فلما جاءه سقط في يده وقال له: ما حملك على أن استخففت بي وجرأت الناس والعدو على أن كنت قررت من الموت فقد جئت إليه وضرب عنقه ثم لقيهم مستميتا فهزمهم واثخن فيهم حتى جرح ولحق بعبد الرحمن فشكرها له وجزاه خيرا ووصله بالصهر وولاه الوزارة ونجا عبد الغفار وحياة بن ملابس إلى اشبيلية فسار عبد الرحمن إليها سنة ١٥٧ وقاتل خلقا كثيرا من أهلها ممن كانوا مع عبد الغفار وحياة، واستراب من يومئذ بالعرب وعلم أنهم على دغل وحقد فانحرف عنهم إلى اتخاذ الموالى قابتاع كثيرا منهم في كل ناحية حتى بلغ من في قبضته منهم أربعين ألف رجل صار بهم غالبا على أهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت.

وفي سنة ١٥٨ غزا عبد الرحمن مدينة قورية وفك بالبربر الذين كانوا أسلموا عامله إلى شقنا.

وفي سنة ١٦٠ وقيل التي بعدها غدر بشقنا رجلا من أصحابه وجاء برأسه إلى عبد الرحمن.

وفي سنة ١٦١ وقيل التي قبلها سار عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي^(١) من أفريقية إلى الاندلس مظهرا الدعوة العباسية ونزل بتدمير فاجتمع إليه البربر وكان سليمان بن يقظان عاملا على برشلونة فكتب إليه يدعوه إلى أمره فلم يجبه فسار إليه فلقيه سليمان فهزمه وعاد إلى تدمير وزحف إليه عبد الرحمن من قرطبة وأحرق سفنه تضييقا عليه في الهرب فاعتصم بجبل بلنسية فيقتل فيه عبد الرحمن الأموال فاغتاله رجل من أصحابه البربر وحمل رأسه إلى الأمير سنة ١٦٢ فأعطاه ألف دينار.

ما ذكرناه من تاريخ الفاطمي وابن حبيب مرجعنا فيه إلى ابن الأثير وابن خلدون والمقرئ وابن عذاري.

(١) إنما سمي بذلك لطوله وزرقته وشقرته - كذا في ابن الأثير في حوادث سنة ١٦١.

وجاء فى كندى ورومى فى هذا الموضوع ما يخالف ذلك وهاك تعريب ما جاء فيهما ملخصاً: «أن من فروا من شدونة إلى جبال رندة ثم إلى أفريقية التجأوا إلى والى مكناسة واستشاروه وأن هذا الوالى كان يسمى عبد الغافر (كذا) وأنه كان شابا عالى القدر يفتخر بأنه من سلالة فاطمة بنت النبی محمد ﷺ وزوج علىّ (عليه السلام) فنزع إلى الثورة وأخذ يعدُّ معدّات القتال وقبيل دخوله اسبانيا اذاعوا فضله وعظمته فى الجزيرة وأنه سيجوز إليها البحر فى جيش جرّار وثروة واسعة وأنه سيهب أموالا طائلة للمسلمين المخلصين الذين يشهرون السلاح فى وجه الداخل الجائر الغاصب إمارة الاندلس.

ولما علم بذلك عبد الرحمن أمر سكان البيرة بصدّ الشائرين ووضع حامية قوية فى المنكب وأمر بالتيقظ ومراقبة السفن التى ترسو فى الثغور وأعلن بأنه يجزل العطاء لكل من يأتيه برأس من رؤساء من يشورون مع الفاطمى وهذا الإعلان جعل من كانت نفسه تجيش إلى الثورة يخلد إلى السكون التام فإنه كان لا يثق بعضهم ببعض إلا القليل ونجم عن ذلك أن عبد الله بن حارثة ذبحه حرسه فى مدينة جيان وأرسلوا رأسه إلى الأمير فى قرطبة سنة ١٤٩.

هذا ولما أتم المكناسى معدّاته جاز البحر إلى الاندلس ومعه كلّ من فى أفريقية من الشيعة وأغلب فرسان البربر ونزلوا المنكب والمرية واحدثوا هرجا وازعجوا هاتين الكورتين فبلغ خبرهم والى البيرة اسعد بن عبد الرحمن الشيبانى فتوجّه إليهم واقتفى آثارهم وقاتلهم قتالا شديدا وانتصر عليهم حتى الجأهم إلى الفرار نحو جبال رندة فانضموا إلى ثائريها لكنه أصيب بجرح بليغ اضطره إلى العودة إلى البيرة حيث مات سنة ١٥٠ للهجرة (مارس أو ابريل سنة ٧٦٧) فحزن عليه الأمير حزنا شديدا لأنه كان فارسا مغوارا ذا رأى سديد وقد دلّت الآثار العربية فى (الاسكوريال ESCURIAL)^(١) على أن هذا الوالى هو الذى أنشئت

(١) برج فى اسبانيا فى سفح جبال نهر رامة على بعد ٤٠ كيلو مترا من مدريد نحو الغرب.

تحت رعايته مباني غرناطة وحصونها الجديدة وأن عبد الرحمن أقام مكانه عبد السالم بن إبراهيم (كذا).

وأما الأفريقى فقد تبعه الشرّد واللصوص واعتصموا جميعا بجبال رندة فكانت هذه الجبال بؤرة تآلب العصاة وكانوا فى مبدأ الأمر ينهبون ويخربون القرى المناخمة لمأواهم ثم استفحل أمرهم فأخذوا يشتون الغارات على أرقش وشدونة وكثيرا ما كانوا يدفعون عصاباتهم إلى برارى اشبيلية فيسلبون سكان الأطراف وكان يطاردهم والى المدينة بفرسانه كى يلحقهم فى السهل ولكنهم كانوا يلجأون سريعا إلى الجبال حيث لا تقدر خيل الوالى أن تصيب رماثهم بضرر وكانوا يجتنبون المعارك الحقيقية الحاسمة للنزاع جاعلين أعداءهم فى فزع دائم مدّخرين من المؤن ما يقوم باحتياجهم وبذلك اقلقوا زمنا طويلا راحة والى اشبيلية وقواد قرمونة وبيانة وأرقش وشدونة.

وفى سنة ١٥١ (كذا) رسا فى طرطوشة عشرة سفن تقل عساكر من البربر تحت قيادة عبد الله (كذا) بن حبيب الصقلبي جاءوا لإعانة المكناسى ولكن مرساهم كان بعيدا عن جبال رندة وكانوا يظنون أن سكان اسبانيا الشرقية يساعدونهم على ابن معاوية ولكن خاب ظنهم ولما بلغ الأمير نزولهم جهّز جيشا وسار بنفسه إلى ابن حبيب ولكنه لما وصل إلى بلنسية جاءه الخبر من والى طرطوشة بأنه بدّد شمل الأفريقيين وأن سفن ترجونة الحربية احرقت بعض مراكب العدو والجات البعض الآخر إلى الفرار ففرح عبد الرحمن بذلك لكنه لم يعد إلى قرطبة بل تابع السير ليزور مدائن شرق اسبانيا فإنه لم يزرها مع أنها جزء من مملكته فزار طرطوشة وبرشلونة وطررجونة وشقة وسرقسطة ثم عاد إلى قرطبة من طريق طليطلة - وأما ابن حبيب نفسه فقد قُتل لأنه لم يعج له ذكر فى كلام المؤرخين (كذا).

وأما عساكره الذين تفرّقوا فإنهم تمكّنوا من الانضمام إلى عصابات المكناسى

فى جبال رندة فتقوت عزائمهم وتعددت غاراتهم ففازوا فى استبة ASTAPA على فرقة من الجنود التى جاءت من اشبيلية لتعرضهم وهزموا عساكر بيانة وقرمونة وخيم معسكرهم على أميال من اشبيلية ولما علم أهلها بفوز الفاطمى نزع الساخطون منهم إلى الثورة وأخبر كبيرهم وهو حيون بن سلمى (كذا) KAYOUN BEN SALEMA سرا عبد الغافر (كذا) بأنه يساعده على أخذ المدينة إذا هجم عليها.

ولما بلغ والى اشبيلية وهو عبد الملك بن عمر^(١) اقتراب عبد الغافر منها بعث طليعة تستكشف أمره تحت قيادة ابنه الصغير قاسم (كذا) فلما رأى قوتهم عاد مذعورا إلى أبيه فقتله لجنبه ثم دارت رحى الحرب بين عبد الملك وعبد الغافر نهارا كاملا فانهزمت عساكر المكناسى ولكن انهزامهم كان نحو اشبيلية ولم يقتف أثرهم عبد الملك لما حلّ به من تعب النهار بل صرف الليل مستريحا فى ميدان القتال.

وأما المنهزمون فباتوا على بعد رمية سهم من المدينة ولم يجرءوا على أن يجوسوا خلالها، فى صباح اليوم التالى وقع الهرج فى المدينة فإن الشيخ حيون وحزبه أرادوا أن يفوا بوعدهم للمكناسى فاجتهدوا فى أن يستولوا على أبواب المدينة ويسلموها إليه وبينما هو عازم على أن يمدّ إليهم يد المساعدة إذ فاجأه عبد الملك فلم يتقهقر ووقعت بينهما واقعة دموية هائلة لم تقف رحاها إلا حين أرخى الليل استاره وقد جرح فيها عبد الملك - وأما عبد الغافر فأمكنه أن يدخل المدينة بمساعدة حيون فنهبا ليلا وفرّ فجرا إلى قشتالة CASCHTALA (كذا)^(٢).

ولما بلغ خبر ذلك إلى الأمير ضاق صدره وأخذ يستجيش الجيوش من الكور لمطاردة عبد الغافر حتى حصره جيشان من قطربة والبيرة نحو ربية استجة على

(١) ولأه عبد الرحمن اشبيلية سنة ٧٥٩ كذا فى رومى.

(٢) تسمى الآن قزالة CAZALLA.

شواطئ نهر شنيل وقتله والى البيرة عبد السالم بن إبراهيم (كذا) فى سنة ١٥٦ للهجرة (٧٧٣) وقتل ابن سلمى (كذا) ونحو خمسين من الرؤساء الافريقيين وأغلب قبيلة مكناسة.

وبعد هذه الواقعة توجه عبد الرحمن إلى اشبيلية ليزور واليهما عبد الملك بن عمرو يعزیه على ما أصابه من فقد ابنه وجرحه البالغ فى واقعة المكناسى على أبواب هذه المدينة وكان من تعزية الأمير له أن ولاء سرقسطة واسبانيا الشرقية كلها اهـ.

فإذا قابلنا بين الروايتين العربية والافرنجية نرى بينهما اختلافا كثيرا ففى الأولى أن الفاطمى كان معلّم صبيان وأنه كان يُعرف بشقنا بن عبد الواحد وتسمى بعبد الله بن محمد، وفى الثانية أنه كان والى مكناسة فى أفريقية وأنه كان يسمى عبد الغافر.

وفى الأولى أن ابن حبيب الصقلبي يسمى عبد الرحمن وأنه جاء اسبانيا سنة ١٦١ أو التى قبلها بعد قتل الفاطمى، وفى الثانية أنه يسمى عبد الله وأنه جاء اسبانيا سنة ١٥١ ليشد أزر الفاطمى.

وفى الأولى أن الفاطمى غدر به رجلان من أصحابه سنة ١٦٠ أو التى بعدها وفى الثانية أنه قتل سنة ١٥٦ فى واقعة استجة وأن الذى قتله هو والى البيرة عبد السالم بن إبراهيم.

وفى الأولى أن عبد الغفار زعيم لبلة وحياة بن ملايس زعيم اشبيلية زحفا لأخذ قرطبة حينما توجه الأمير نحو الشرق لقتال شقنا الفاطمى، وفى الثانية أن عبد الغافر هو المكناسى الفاطمى وأنه جاء من الشرق لأخذ اشبيلية بايعاز من حيون بن سلمى.

وفى الثانية أن الأمير عين عبد الملك والى سرقسطة واسبانيا الشرقية ولا أثر

لذلك فى الأولى وغير ذلك كثير والصحيح ما فى التواريخ العربية فإن التواريخ الأفرنجية تستمدّ منها وتنقل عنها ولكنها عند النقل قد تكون كحاطب ليل .

وفى سنة ١٦٣ (كما يؤخذ من ابن الأثير) عزم عبد الرحمن على غزو بنى العباس وأخذ ثاره منهم فعصى عليه سليمان بن يقطان والحسين بن يحيى بسرقسطة فسير إليهما ثعلبة بن عبيد فى عسكر كثيف فقاتلها قتالا شديدا حتى أخذ أسيرا وتفرّق عسكره واستدعى سليمان قارله ملك الأفرنج ووعدته بتسليم المدينة وثعلبة إليه فلما وصل إليها أخفق مسعاه فى حصارها فعاد إلى بلاده ومعه ثعلبة وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء فأهمله عبد الرحمن مدة ثم طلبه من الأفرنج فاطلقوه .

وفى سنة ١٦٤ سار الأمير إلى سرقسطة وفرّق أولاده فى الجهات ليدفعوا كل مخالف ثم يدركونه فسبقهم إليها وكان الحسين قد قتل سليمان وانفرد بالمدينة فوفاه عبد الرحمن على أثر ذلك وضيق على أهلها تضيقا شديدا فرغب الحسين فى الصلح وأذن للطاعة فأجابه عبد الرحمن وصالحه وأخذ ابنه سعيدا رهينة ورجع عنها وغزا بلاد الأفرنج فدوّخها ونهب وسلب وبلغ قلّة ثم سار إلى بلاد البشكنس فقاتلهم وفتح بعض حصونهم ثم رجع إلى قرطبة ثم إن الحسين نقض العهد فعاد الأمير سنة ١٦٦ إلى سرقسطة وحصرها وضايقها ونصب عليها المجانيق فملكها عتوة وقتل الحسين اقبح قتلة ونفى أهل سرقسطة منها ليمين تقدمت منه ثم ردّهم إليها .

وفى سنة ١٦٨ ثار محمد بن يوسف الفهرى الملقب بأبى الأسود فلقبه الأمير على الوادى الأحمر بقسطلونة وهزّمه واثخن فى أصحابه حتى قتل منهم أربعة آلاف سوى من تردّى فى النهر ولم يزل يقتفى آثار المنهزمين حتى جاوز قلعة رباح ثم لقيه ثانية سنة ١٦٩ وهزّمه ثم هلك الفهرى سنة ١٧٠ بقرية من أعمال طليطلة وقام مكانه أخوه قاسم فغزاه الأمير فجاءه بغير أمان فقتله .

ويؤخذ من دوزى ما تعريه مع تصرف:

«تعاهد محافظ برشلونة سليمان بن يقظان الاعرابى وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبي وأبو الأسود بن يوسف الذى كان عاقبه الأمير بالسجن الدائم وتعامى حتى فرّ على أن يكونوا يدا واحدة على عبد الرحمن الأموى وأن يطلبوا مساعدة شرلمان الذى اشتهر فى العالم بفتوحاته فتوجهوا فى سنة ٧٧٧ للميلاد إلى پَدْرِبرْن PADERBORN حيث يعقد شرلمان الجمعية العمومية واستنجدوه على أمير اسبانيا فأجاب طلبهم واتفقوا على أن الأعرابى وحلفاءه فى شمال نهر ابرة يساعدون شرلمان بعد أن يعجز جبال البرانس ويعترفون بسلطانه عليهم وأن الصقلبي يجند البربر من افريقية ويقودهم إلى إقليم تدمير (مرسية) كى يساعدوا الحركات التى تقع فى الشمال رافعين لواء الخليفة العباسى حليف شرلمان - هذه المؤامرة لو نفذت لكانت أشدّ وقعا على عبد الرحمن من الحوادث السابقة ولكن من سعد طالعه أن طرأ عليها ما أوقف حركتها فإن الصقلبي أبحر حقيقة بجيش من البربر إلى كورة مرسية ولكن وصل قبل أن يعجز شرلمان جبال الأبواب فطلب مساعدة الأعرابى فأجابه: إن الخطة المتفق عليها فى (پدربرن) أن ابقى فى الشمال لأساعد جيش شرلمان فأحفظ هذا الجواب الفهرى فوجه جيشه إليه ليقاتله فصدّه الأعرابى واعاده إلى تدمير ففتك به بربرى^(١) يظن أنه سفير ارسله الأمير عبد الرحمن لهذا الغرض هذا ما كان من أمر ابن حبيب وأما أبو الأسود فلم يذكر لنا مؤرخ من الفرنج أو العرب ما فعل (كذا) فلم يبق من أعضاء مؤامرة (پدربرن) إلا الاعرابى وحليفاه أبو ثور محافظ وشقة وجلندو كونت سردانية فلما جاوز جيش شرلمان جبال البرانس (١٦١ للهجرة - ٧٧٨ للميلاد) استولى على پنپلونه ووصل إلى أبواب سرقسطة فقاوم دخوله فيها أميرها حسين ابن يحيى من سلالة سعد بن عبادة الانصارى الذى طمح نظره إلى الخلافة

(١) فى تاريخ ابن عذارى أن قاتل ابن حبيب اسمه مشكار البربرى.

بعد موت النبي ﷺ وكان لحسين سلطان على قلوب أهل المدينة لنسبه هذا فكبر عليهم أن يدخل مدينتهم ملك الفرنج ولما لم يستطع الأعرابي أن يقنعهم وخشى أن شرلمان يسيء الظن فيه ألقى بنفسه بين يديه وبينما الملك آخذ في حصار المدينة إذ جاءه خبر أن البشكنس^(١) اغتتموا فرصة غيبته عن بلاده وسطوا عليها وأحرقوا وخرّبوا وذبحوا فاضطّر أن يترك سريعا شواطئ نهر براه ويرجع إلى شواطئ نهر رين RHIN وعند رجوعه انقضّوا على مؤخرة جيشه عند مضائق جبال البرانس فمزّقوها كل ممزّق وقتلوا الكونت روتلند قائد حدّ بريطانيا ونهبوا أمتعتها وفرّوا سراعا، وقد أرخى الليل سدوله وعقب ذلك عاد الأعرابي إلى سرقسطة فعده حسين خائنا لدينه فقتله في المسجد ثم جاء عبد الرحمن وحصر المدينة فأطاعه حسين لكنه فيما بعد رفع لواء الثورة فأسلمه سكان المدينة المحصورون إلى عبد الرحمن فقتله شر قتلة ثم إن الأمير غزا البشكنس وأخضع كونت سردانيه إلى دفع الجزية ثم ثار أبو الأسود على الأمير فالتقى في الوادي الأحمر - GUADAL-IMAR وكانت بينهما معركة دموية قتل فيها من أصحاب الفهري أربعة آلاف، كانت اشلاؤهم أقواتا للرباع والنسور والسبب في انخزال الفهريين خيانة قائد الجناح الإيمن من جيش أبي الأسود^(٢).

لم يكن تتابع ثورات الشائرين على الأمير حائلا دون سعيه في ارتقاء بلاد الجزيرة في الزراعة والعمارة والمعارف فقد بلغت قرطبة في عهده شأوا بعيدا في العمران والحضارة والعلم والفلسفة حتى صارت نبراس الاندلس وكعبة الإسلام في الغرب - كان يرى فيها شوارع متسعة ومبان ضخمة وقصور مشيدة على طراز العمارات الشرقية الجميلة وحمامات وفنادق وبساتين على طول ضفة الوادي

(١) الأفرنج يسمونهم بسكس BASQUES أو فكونس VACONS الظاهر أن الاسم العربي منحوت من هذين اللفظين ويؤخذ أيضا من كتاب (مسالك الممالك) للاصطخري صحيفة ٤١ أنه يقال (بسكونس).

(٢) في ابن عذاري أن هذه الواقعة كانت يوم الاربعاء مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩.

الكبير وجوامع ومعاهد للصلاة والتعليم - كان يهرع إليها من اسبانيا ومصر والشام والعراقيين العلماء والشعراء والأطباء والفلاسفة، وقصارى القول أنها كانت تضارع بغداد في العظمة والشهرة^(١).

وفي سنة ١٧٠ (٧٨٦) أمر الأمير عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة الشهير الذي تفضل العين في بدائعه وأخرج عليه مائة ألف دينار، قيل: إن هذا سوى ثمانين ألف دينار دفعت ثمن الكنيسة التي كانت مكانه ومات قبل تمامه.

ذكر بعض المؤرخين أن في الجامع أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون قيل من بدائعه أن فيه ثلاثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود وأن فيه تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح وأن فيه مصحفا من القرآن كتبه عثمان ابن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وقفه الأمير على الجامع.

وفي آخر سنة ١٧١ (٧٨٨) لما أحس عبد الرحمن بقرب منيته دعا إلى حضرته الحاجب وقاضى القضاة ووزراءه وولاة الأقاليم وعمال الأمصار واشهدهم على أنه عهد إلى ابنه هشام بالولاية العامة على اسبانيا وأمرهم أن يعترفوا له بذلك فاطاعوا أمره ووعدوه بالإخلاص والطاعة لولى عهده حين يقوم بأعباء الإمارة وصافحوا هذا بدا يدا دليلا على رضاهم وخضوعهم.

واختار عبد الرحمن ابنه هشاما خليفة له في الإمارة مع أنه كان أصغر من أخيه سليمان لأنه كان يرى فيه فطانة واستقامة ودينا ودمائة أخلاق وإسداء معروف دونه ويروى أن أم هشام المسماة حوراء^(٢) كان لها ضلع في هذا الاختيار وقد حضر سليمان مجلس تولية العهد لهشام فاستاء سرا من تفضيل أخيه الأصغر عليه.

(١) رومى ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١.

(٢) وقيل: اسمها (جمال) وقيل (حلل).

وفى سنة ١٧٢ مات الإمام عبد الرحمن يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر (٣٠ سبتمبر سنة ٧٨٨) بعد أن حكم ٣٣ سنة هجرية (٣٢ سنة ميلادية).

ذنابات:

الأولى: يحكى عن كيفية فرار عبد الرحمن الداخل من المشرق إلى المغرب أنه قال: بينما أنا جالس يوما فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد ألمّ بى إذ دخل من باب البيت ابنى سليمان وهو ابن أربع سنين فزعا باكيا وهوى إلى حجرى فجعلت أدفعه لما كان بى ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع فخرجت لأنظر فإذا بالروح قد نزل بالقرية ونظرت وإذا بالرايات السود عليها منحطة وأخ لى حدث السن كان معى يشتدّ هاربا ويقول لى النجاة يا أخى فهذه رايات المسوودة فضربت بيدي على دنائير تناولتها ونجوت وأخى يتبعنى وأعلمت اخواتى بمتوجّهى وأمرتهن أن يلحقننى ومولاي بدر معهن وخرجت وكمنت فى موضع ناء عن القرية فما كانت ساعة حتى أقبلت الخيل وأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ومضيت فأتيت رجلا من معارفى بشطّ الفرات وأمرته أن يتاع لى دوابّ وما يصلح لسفرى فدلّ علىّ عبد سوء له العامل فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتدنا فى الهرب فسبقناها إلى الفرات ورمينا فيه بأنفسنا والخيل تنادينا من الشطّ أرجعا لا بأس عليكما فسبحت وكنت أحسن السبع وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخى ودهش فالتفت إليه لأقوى من قلبه فإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه فناديته تقتل يا أخى، إلىّ إلىّ، فلم يسمعنى واغتر بأمانهم وخشى الفرق وانقلب نحوهم وقطعت أنا الفرات وبعضهم قد همّ للتجرد للسباحة فى أثرى فاستكفّه أصحابه عن ذلك فتركونى ثم قدّموا الصبىّ أخى الذى عاد إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت فيه ثكلا ملائى مخافة ومضيت

إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا سائر على قدمي فلجأت إلى غبضة أشبه فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ثم خرجت هاربا أؤمّ المغرب حتى وصلت إلى أفريقية.

الثانية: يصفه بعض المؤرخين بأنه كان أصهب خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم له ضفيران فصيحاً لساناً شاعراً حليماً عالماً حازماً سريع النهضة في طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ولا ينفرد في الأمور برأيه شجاعاً مقداماً بعيد الغور شديد الحذر سخيّاً جواداً يكثر لبس البياض وكان يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبط المملكة.

الثالثة: قال ابن حيّان وقع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخداع «أما بعد فدعني من معاريف المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتُمدّنّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لالقين بناتها على رصف المعصية نكالا بما قدّمت يداك وما الله بظلام للعبيد».

الرابعة: ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: أخبروني من صقر قريش من الملوك قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء، قال: ما قلتم شيئاً، قالوا: فمعاوية قال: لا، قالوا فعيد الملك بن مروان، قال ما قلتم شيئاً، قالوا يا أمير المؤمنين فمن هو؟ قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً اعجبهما منفرداً بنفسه فمصرّ الأمصار وجنّد الاجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذُلّلاً له صعبه وعبد الملك بيعة أبرم عقدها.

الخامسة: قيل لما خرج من البحر أول قدومه على الاندلس أتوه بخمر فقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه فعرفوا بذلك قدره ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان وإن أنا اشتغلت

عنها بهمتي فيما اطلبه ظلمتها وإن اشتغلت بها عما اطلبه ظلمت همتي ولا حاجة لي بها الآن وردّها على صاحبها.

٢- هشام بن عبد الرحمن:

لما توفي الأمير عبد الرحمن يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٧٢ (٣٠ سبتمبر ٧٨٨) كان ابنه الأكبر سليمان واليا على طليطلة وابنه هشام على ماردة وابنه عبد الله هو الذي حضر وفاته بقرطبة^(١) وصلى عليه^(٢) ثم ذهب إلى قصر الإمارة مؤمّلاً أن يقبل عليه كبراء المدينة ويحيّوه بتحيّيات أمير جديد فلم يحم حول القصر منهم أحد^(٣) ولما تحقق أن رغبات الأهلين منصرفه عنه إلى أخيه هشام وليّ العهد رأى من الحكمة أن لا يركب هواه فجذّد البيعة لأخيه هذا وكتب إليه بنعي أبيه وبالإمارة^(٤) وبأن يحضر قرطبة ليذهب هو إلى ماردة.

فسار هشام من ساعته إلى قرطبة فدخلها بعد يوم الوفاة بستة أيام فقابله أهلها بفرح وسرور وبابعه الخاصة والعامة يوم الأحد مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢

(١) يقول رومي: إن تاريخ الوفاة كان يوم الثلاثاء ٣٠ سبتمبر سنة ٧٨٨ وفي تقييداته أن هذا التاريخ يوافق ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٧٢ للهجرة وفي كندى أن تاريخ الوفاة كان في ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٧١ وخطأ رومي في اليوم والسنة - وفي التواريخ الغربية أنه مات يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الثاني سنة ١٧٢ وهذا هو الصحيح لأنه يؤخذ من تقويم مشارقات السنين الهجرية بالسنين الميلادية أن شهر ربيع الثاني من سنة ١٧٢ - ٢٩ يوما وأن أوله يوم الاثنين الموافق ٨ سبتمبر من سنة ٧٨٨ فيلزم أن يكون يوم الثلاثاء لست بقين من الشهر العربي هو يوم ٢٣ منه الموافق ٣٠ سبتمبر.

(٢) ابن الأثير ويؤخذ من رومي أن عبد الرحمن بعد أن عهد إلى ابنه هشام بالإمارة في محفل حافل توجه إلى ماردة حيث تنازل فيها عن الحكم إلى ابنه هشام الذي كان معه وأن عبد الله بقي في قرطبة - ولم يذكر لنا التاريخ ما كان قائما به من الأعمال - وأن سليمان توجه إلى طليطلة - واستمرت إقامة عبد الرحمن في ماردة إلى أواخر ربيع الثاني سنة ١٧٢ للهجرة وفيها مرض ومات ثم شجرت إمارة هشام في هذه المدينة في ٢٤ هذا الشهر (أول أكتوبر سنة ٧٨٨) وهتف الخطباء باسمه على المنابر.

(٣) كندى.

(٤) ابن الأثير.

وكان عمره وقتئذ فوق الثلاثين^(١) وكان مهيباً تقيّاً كريماً عادلاً وكانوا يلقبونه بالعدل وبالرضى وأما عبد الله فرحل إلى ماردة بإذن من أخيه^(٢).

ولما علم سليمان بيعة هشام غصّ بها فإنه كان يروم الأمر لنفسه ويحسد أخاه هشاماً على تقديم والده له عليه وكتب إلى أخيه عبد الله يستقدمه من ماردة إلى طليطلة فجاءها بدون أن يعلم الأمير ولكن وزير ماردة أعلمه ذلك.

فاتفق الأخوان سليمان وعبد الله أن يستقلا في إقليميهما ويتصرفا تصرف الحاكم المطلق بدون ارتباط بالأمير فعارضهما وزير طليطلة غالب بن تمام فيما اتفقا عليه فسجنه سليمان فأرسل الأمير رسولا يسأله عن سبب سجن الوزير فكان جواب سليمان أن جاء بالمسجون وخزقه أمام الرسول وقال له: «قل لمولاك يدعنا نحكم في إقليمنا أحراراً جزاء ما ألمّ بنا من الضرر من إمارته التي سبقت إبانها».

هذا الجواب أحفظ هشاماً فكتب إلى ولاة الأقاليم وقضاتها بأن سليمان وإخاه عبد الله شقا عصا الطاعة فليحافظوا على مدائنهم وحصونهم من اعتدائهما ولا يطيعوا لهما أمراً ولا يسمحوا لهما بالإيواء إليهم - وجهاز عشرين ألف جندي وتوجه إلى طليطلة فلما علم بذلك سليمان جهّز خمسة عشر ألفاً وسار إلى قرطبة تاركاً ابنه وأخاه يحفظان المدينة فالتقى الجيشان بالقرب من حصن بلخ - BOU LCHE OU BOULKH ودارت رحى الحرب كأنها بين خصمين مختلفي الدين واللغة وكانت المعركة هائلة سالت فيها الدماء على الصحصحاح ولم يحل دون منايا القتال إلا أن أرخى الليل سدوله فتمزق جيش سليمان وأوى إلى الجبال تحت أستار الظلام سنة ١٧٣ وفي صبيحة اليوم التالي لما لم ير الجيش الغالب أثراً

(١) قال كندى إن عمره ٣٠ سنة وخطأه رومي وقال: إن هشاماً ولد في أول مارس سنة ٧٥٧ فيكون عمره في أول أكتوبر سنة ٧٨٨ إحدى وثلاثين سنة وسبعة أشهر وأقول: إن كندى جعل إمارة هشام في سنة ١٧١ لا في سنة ١٧٢ واغفل الشهور التي أقل من سنة.

(٢) كندى ورومي - وفي ابن الأثير في سنة ١٧٣ أن عبد الله خاف من أخيه هشام فمضى هارباً إلى أخيه سليمان وهو بطليطلة فأرسل هشام جمعاً في أثره ليردوه فلم يلحقوه.

للمغلوب تابع سيره نحو طليطلة حتى حاصرها وكانت منيعة الأركان لحصانة موقعها من جهة ولعناية عبد الله وشهامته من أخرى.

وأما سليمان فإنه جمع قوته ونزل من الجبال إلى برارى قرطبة فاحتل قلعة شقندة فخرج إليه عبد الله بن عبد الملك المروانى من قرطبة وقاتله حتى أخرجه من شقندة والجاء إلى الجبال ثانية فاستنجد بوزير ماردة وبشيوخ هذه الكورة فقاموا لكن لا لتجده بل لقهره وطرده إلى أرض تدمير.

لما رأى عبد الله أن أخاه سليمان لا يمكنه أن يفلح فى أن ينضم إليه وأن مؤن المدينة نفدت وأن الأهلىن عىل صبرهم وضعفت عزائمهم سأل قوآد الجيش فى أن يسمحوا بجواز رسولىن إلى الأمير ليفاوضاه بالنيابة عن أهل المدينة فى الصلح فجاز متكررا هو ووزيره وتوجها إلى قرطبة فقابله هشام بصدر رحىب وعفا عما سلف ووعد بالعفو عن أخيه سليمان إذا جاءه معتذرا ثم عادا إلى طليطلة ففتحت أبوابها وقوبل فيها الأمير على الرحب والسعة ودخل قصر الإمارة هو وأخوه وابن أخيه وأقام أحد أقارب الوزير غالب بن تمام الذى خزقه سليمان عاملا على طليطلة وأسكن أخاه قصرا فى ضواحيها ثم عاد إلى قرطبة مفكرا فى الوسائل التى تخضع أخاه الثانى سليمان.

ولما علم هذا بتسليم طليطلة حزن كثيرا ولكنه لم يئأس وأخذ يجول فى أنحاء كورة تدمير مستفزا الأهلىن إلى الثورة وأن يشدوا أزره فقاد إليه هشام جيشا كانت مقدمته مؤلفة من نخبة فرسان الاندلس تحت إمرة ابنه الحكم وكان شابا لم يرأس فرقة قبل هذه المرة فجدت هذه المقدمة فى المسير حتى لاقت عساكر سليمان فى برارى لورقة وكانت تنتظر قائدها الذى كان يجمع مددا من البلاد المجاورة فشباب الحكم دفعه إلى أن يهجم عليها بدون ريث ولا أمهال ولا سماع نصيحة سوى صوت حميته فبدد شملها وفرق جمعها تاركة ميدان الحرب مغطى بأشلاء قتلاها فلما حضر جيش هشام لم ير من يقاتله ففرح الأمير بنصر ابنه نصرا مبينا

واثنى على شجاعة فرسانه ثناءً حسناً ولكنه عاتب الحكم على عجلته وإقدامه بدون نظر فى العواقب ونصحه بأن يقدم رأى قبل الشجاعة.

ولما وصل المنهزمون إلى سليمان ندب حظه ثم توجه ومعه شردمة من فرسانه إلى أرض بلنسية ومر بالقرب من دانية ولم يزل مرتكبا التعاسف وجيش هشام يقتفى أثره حتى ألقى بنفسه فى جزيرة شقر XUCAR وهى محل حصين يكتنفه النهر وهناك كتب إلى أخيه يلتمس الصلح فأجابه بأن يترك اسبانيا ويأخذ ماله و ٦٠ ألف دينار مصالحة على تركه أبيه فرضخ سليمان إلى ذلك ورحل قاصدا عدوة المغرب ليسكن طنجة وكان ذلك فى الأشهر الأولى من سنة ١٧٤ للهجرة (٧٩٠) وأما عبد الله فقليل: إنه بقى فى اسبانيا وقيل إنه لحق بأخيه.

فى أثناء قيام الشجار بين هشام وأخويه ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى بشاغنت من إقليم طرطوشة فى شرق الاندلس واجتمع له خلق كثير وملك مدينة طرطوشة وأخرج عاملها يوسف القيسى^(١) فجاء إلى والى بلنسية موسى^(٢) أمر من الأمير هشام بأن يجمع العصاة فلما قرب من طرطوشة قابله سعيد ابن الحسين ووقع بين الخصمين معركة انهزم فيها سعيد وقتل^(٣) وسار موسى إلى طرطوشة فملكها فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه جحدر فى جمع كثير فقاتله وقتل موسى^(٤) وانهزم أصحابه فى أواخر سنة ١٧٢ للهجرة (٧٨٩)^(٥).

فى هذه الأثناء أيضا ثار مطروح بن سليمان بن يقطان بمدينة برشلونة وخرج

(١) ابن الأثير.

(٢) ابن الأثير يسميه موسى بن فرتون وكندى ورومى يسميانه موسى بن حذيرة HODHEIRAH.

(٣) ابن الأثير.

(٤) كذا فى ابن الأثير وفى رومى أن الذى قتله سعيدا هو أبو عثمان الذى خلف موسى فى ولاية بلنسية.

(٥) كندى ورومى.

معه جمع كثير فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشقه وتغلب على الشفر كله^(١) فكلّف الأمير هشام أبا عثمان والى بلنسية الجديد الذى خلف موسى بأن يطفىء نار هذه الثورة فتوجه إلى اسبانيا الشرقية فى أوائل سنة ٧٩٠ للميلاد وسار إلى مطروح بن سليمان وهو فى سرقسطة فحاصره فلم يظفر به فرجع أبو عثمان ونزل حصن طرطوشة بالقرب من سرقسطة وبث سراياه على أهل سرقسطة يغيرون ويمنعون عنهم الميرة ثم إن مطروحا خرج يوما بتصيّد فأرسل البازى على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له قد انفرد بهما عن أصحابه فتعاورا به بسيفيهما حتى قتلاه واحتزا رأسه وتقدّما به إلى أبى عثمان فسار إلى سرقسطة ونزلها بدون ممانع وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام.

لما سكنت زوابع الثورات فى اسبانيا باخضاع أخوى الأمير وقمع الثائرين فى شرقها وعمّ السلام البلاد صرف هشام عزمته إلى غزو الفرنج فى الشرق الأعلى والبشكنس والاستورين والجلالقة فى شمالها.

ففى مبدأ سنة ١٧٥ للهجرة أرسل كتباً إلى البلاد كافة يستنفرهم إلى الجهاد بخيلهم ورجلهم وسلاحهم ومالهم وخطب الخطباء بذلك فى جميع المساجد فلبّوا دعوته العامة وصار يرسل الجيوش المؤلفة منهم تباعاً فى هذه السنة والسنين التاليات بعضها إلى الحدود لردّ البلاد التى غصبها هؤلاء الأقوام وبعضها إلى داخل بلادهم للاستيلاء عليها.

قال ابن عذارى نقلاً عن الرازى وغيره أن الأمير هشاماً أغزى فى سنة ١٧٦ أبا عثمان إلى ألبه^(٢) والقلاع فلقى الأعداء فهزمهم وقتل منهم كثيراً وأغزى يوسف

(١) ابن الأثير وابن عذارى وفى كندى ورومى أن بهلول بن مخلوق أبا الحجاج استولى على سرقسطة ووضع هو وولاء برشلونه وطرطوشة حدوداً للأرض التى أرادوا أن يستقلوها بها.

(٢) تراها فى التواريخ العربية بالباء الموحدة وقد رأيتها مضبوطة بالتحريك فى تاريخ ابن عذارى وقد بحثت عنها فى معجم ياقوت وغيره فلم أرها ثم رأيت ما يقابلها فى تاريخ رومى مرسوماً هكذا ILIA وهذا يدل على أنها بالياء المثناة لا بالموحدة فحرر.

ابن بخت جليقية فلقى ملكهم برمود BERMUDE^(١) وواضعه الحرب فانهزم الجلالقة. اهـ.

وفى سنة ١٧٧ لما فطن الأمير هشام إلى أن أقليم سبتمانية خال من الحامية بسبب اشتغال شرلمان وابنه لويز ملك أكيثانه باطفاء ثورة الثائرين على ابنه الثانى ملك إيطاليا ITALIE وجّه جيشا عرمرما تحت إمرة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد إلى أرض الفرنج (الفرنك FRANK) فدخلها حتى بلغ جرنده^(٢) فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم رحل عنها إلى أربونه (نربونة) ففعل بها مثل ذلك حتى استولى عليها^(٣) ثم جاس البلاد شهورا يخرّب الحصون ويحرق ويغنم والسكان يفرون من بين يديه طالبين النجاة ثم رجع ومعه غنائم واسعة من الذهب والفضة والانسجة النفيسة وبلغ خمس هذه الغنائم الذى كان باسم الأمير ٤٥ ألف مثقال من الذهب العين وقد فرح أهل قرطبة بهذا الفوز المبين وحبس الأمير الخمس على بناء الجامع الكبير فى قرطبة وهذه الغزوة من أشهر غزوات المسلمين.

وأمر الأمير هشام عبد الله بن عبد الملك والى سرقسطة بأن يقيم على الحدود. وفى سنة (١٧٨) أغار عبد الكريم بن عبد الواحد ثانية على بلاد ايليا ILIA والقلاع فغنم وسلم.

وفى ابن الأثير فى حوادث سنة ١٧٩ أن هشاما صاحب الاندلس سیر جيشا كثيفا عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فساروا حتى انتهوا إلى استرقه ASTORGA وكان أذفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد وامده ملك

(١) أو (برمند VERMENDUS) يروى أنهما التقيا فى محل يسمى (بريبا) فوقعت بينهما معركة كان الفوز فيها للعرب ورجع جيش المسلمين مثقلا بالغنائم والاسلاب.

(٢) كذا فى ابن الأثير وفى كندى جيرونه GERONA.

(٣) فى كندى أن العرب أخذوا مدينتى جيرونه ونربونه بالقوة ووضعوا السيف فى رءوس أهليهما وعبارة ابن الأثير تفيد أنهم اشرفوا على فتحهما.

البشكنس وهم جيرانه فصار في جمع عظيم فأقدم عليه عبد الملك فرجع اذفونش هية له وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم وأوغل فيها يغنم ويقتل ويخرب ورجع سالما.

وكان قد سير هشام جيشا آخر من ناحية أخرى فدخلوا أيضا على ميعاد من عبد الملك فاخربوا ونهبوا وغنموا فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر الفرنج فنالوا منهم وقتلوا نفرا من المسلمين وعاد الباقون سالمين. اهـ.

وفي رومي «في سنة ١٧٨ (٧٩٤) اغار عبد الكريم بن عبد الواحد ثانية على بلاد ايليا ILIA والقصور، وفي الوقت عينه زحف أخوه عبد الملك من طريق آخر على أرض النصرارى فلقى في استرقه ASTORGA ملك جليقية وملك البشكنس فلم يجرؤ على مهاجمته فتوغل عبد الملك في بلادهم لكن عند رجوعه مثقلا بالغنائم كمن له العدو في الطريق فخسر المسلمون خسارة تذكر وقتل منهم شجعانهم ومن بينهم يوسف بن بخت الذي كان قائد فرقة منهم وردت منهم الغنائم والأسرى» يظهر أن هذه الغزوة ابتدأت في أواخر سنة ١٧٨ وانتهت في سنة ١٧٩ وهي آخر غزوة غزاها هشام.

ما كان غزوة هشام صارفا له عن تحسين قرطبة فقد أنشأ فيها كثيرا من المباني والمساجد التي كانت تتخذ مدارس لتعليم الفقه واللسان العربى ويروى أنه منع النصرارى أن يتكلموا بغير هذا اللسان وأن يكتبوا بلسانهم اللاتينى - وكان شغف المسلمين في عهده بعد الغزو بهندسة الأبنية وقرض الشعر وفقه الدين.

واشتهر بالشعر في عصره عامر بن أبى جعفر وكان قيما في طليطة على التركات التي لا وارث لها الآيلة إلى بيت مال المسلمين.

واشتهر بالفقه زياد بن عبد الرحمن الذى رحل إلى الشرق ليتلقى الموطأ عن مالك بن أنس ثم عاد إلى الاندلس فادخل مذهبه فيها.

وفى سنة ١٧٩ للهجرة (٧٩٥ للميلاد) جمع هشام فى القصر الحاجب والوزراء وقاضى القضاة والولاة والخطباء وأعلنهم بأن ابنه الحكم هو ولى العهد بعده وكان عمره وقتئذ ٢٢ سنة ثم مرض هشام فى أوائل صفر سنة ١٨٠ للهجرة ومات فى ثانى عشر هذا الشهر (٢٦ ابريل سنة ٧٩٦) بعد أن حكم سبع سنين قمرية وتسعة أشهر كذلك وثمانية عشر يوما أو سبع سنين أفرنجية وستة أشهر كذلك وستة وعشرين يوما^(١).

٣- الحكم (من ٧٩٦ إلى ٨٢٢):

بعد وفاة هشام ولى الأمر بعده ابنه الحكم بعهد منه وشهرت إمارته فى موكب حافل يوم ١٤ صفر سنة ١٨٠ (٢٨ ابريل سنة ٧٩٦) وفى الجمعة الأولى (١٥ صفر) من حكمه حضر الصلاة فى جامع قرطبة الكبير وخطب الخطيب باسمه على المنبر وكان وقتئذ ابن خمس وعشرين سنة^(٢) وكان الناس يأملون فيه أن يكون خير خلف لأبيه وجدّه فإن سيماء السامية كانت تنبئ بذلك وتريسته من شأنها أن تهدى إلى الصراط المستقيم ولكن لا يعلم الباطن إلا الله، يصفه بعض المؤرخين بأنه كان عالما فطنا فصيحاً شاعراً صارماً حازماً لكنه متكبر قاسى القلب سريع الغضب ويصفه البعض بأنه كان طاغياً مسرفاً له آثار سوء قبيحة أمه أم ولد اسمها زخرف. اهـ.

وأعماله الآتية تنبئ عن صفاته فإنها أكبر شاهد:

لما ولى الإمارة الحكم اختار عبد الكريم بن عبد الواحد^(٣) حاجباً له فإنه تربى معه فى الصغر وكان أمين كتبه وكان الأمير يعجب بعلمه وقريضه وأمانته وشجاعته.

(١) انظر رومى (ص ٣١٠ ج ٣).

(٢) فى كثير من التواريخ ومنها كندى أنه ابن ٢٢ سنة ولكن فى رومى أنه كان ابن ٢٥ سنة وهو الصحيح.

(٣) يقول كندى عبد الكريم بن عبد الوليد.

وقد نازعه في الإمارة عمّاه سليمان وعبد الله: فالأول كان يعيش في طنجة من ابتداء سنة ٧٩٠ ولثروته واخلاقه كثرت أشياعه والثاني لم يترك إسبانيا (على قول) بل أقام في القصر الذي في ضاحية طليطلة لا يحرك ساكنا مدة حكم أخيه هشام للمعاهدة التي بينهما ولكنه في هذه الأثناء كوّن له حزبا قويا من قوّاد أعمال طليطلة كبيرهم عبيد الله بن حمزة - فلما جاء عبد الله النبا بموت أخيه وولاية الحكم نزعت نفسه إلى الثورة لكنه رغب أن يتفاوض مع سليمان في الأمر أولا فرحل هو وأسرته إلى طنجة بعد أن عهد إلى ابن حمزة بزعامه حزبه.

هنا لا ينص التاريخ على ما اتفق عليه الأخوان سليمان وعبيد الله لكن الحوادث الآتية تعرب عن هذا الاتفاق فإن عبد الله بعد أن أقام مدة قصيرة في أفريقية ذهب سرا إلى (شرلمان) ملك الفرنج (الفرنك) فاستقبله في قصره في مدينة (اكس لاشبال) AIX-LA CHAPELLE سنة ٧٩٧ وعقب ذلك دعا شرلمان ابنه لويس من اكيثانه وقابل نائب (ألفونس) ملك استوريا وجليقية وظهر أنهم اتفقوا على أن يشعلوا نيران الثورة في عدة جهات من إسبانيا في آن واحد كي ينزعوا الإمارة من الحكم فقد عاد لويس إلى اكيثانه ومعه عبد الله وقصد هذا إسبانيا ولوى على طليطلة فوجد عبيدة بن حمزة^(١) ومعه قوّاد حصون اقليش^(٢) UCLIS وهلده^(٣) HUELDE وشتت بريه مستعدين له استعدادا تاما فأماطوا جميعا لثام الاستار ورفعوا لواء العصيان واستولوا على أبواب وقصر طليطلة في خريف سنة ١٨١ (٧٩٧) ولم يبق على طاعة الحكم من قوّاد ضواحي طليطلة إلا عمروس قائد طلبيرة وفي الوقت عينه جاز سليمان بجيش جرّار من أفريقية إلى إسبانيا فبلغ الحكم قيام عمّيه فعمّي جيوشه ووجّه فرسان أرقش وشريش وشدونه

(١) كذا في كندى ورومي وفي ابن الأثير عبيدة بن حميد وقيل أيضا ابن عمير فحرر.

(٢) قال ياقوت: اتليش مدينة بالاندلس من اعمال شنت بريه وقال الحميدى: بليدة من أعمال طليطلة.

(٣) كذا في كندى وفي رومي هباهه HUBE DA.

واشبيلية لصدد سليمان ومنع اتصال جيشه بجيش أخيه عبد الله وتوجه هو إلى طليطلة.

وفي هذه الاثناء أرسل لويس اكيثانه جيشا اجتاز الثغور واستولى على نربونه وجيرونه سنة ٧٩٧ للميلاد وهدد مدن الحد الشرقي وخضعت له مدت يتنلون ووشقه ولاردة ونجم عن ذلك أن قامت ثورة في برشلونه أعقبها سقوط المدينة في يد من أهداها إلى شرلمان.

دعت هذه الكوارث قاضي وشقة المسمى عبد السلام بن عبد الوليد إلى أن يكتب إلى الحكم بأن الافرنج شنوا الغارة الشعواء على البلاد وإن سقطت في أيديهم بعض المدن وأن ولاية الحدود مالوا إليهم وأن والى وشقه سلم المدينة بشروط معيبة فلما قرأ ذلك الحكم ترك ثورة طليطلة إلى القائد عمروس وتوجه في الحال إلى الحدود يقود جيشا عظيما فاسترد وشقه ولاردة وبرشلونه وجيرونه ثم زحف على أرض أفرنجة فدخل نربونه وفتك بالافرنج فتكا ذريعا وسى نساءهم وأولادهم وغنم غنائم واسعة ورجع منصورا ولذا لقبوه بالمظفر^(١) وأقام على الحدود عبد الكريم بن عبد الواحد وفطيس بن سليمان وأسرع هو إلى طليطلة وحارب عميه في عدة وقائع كان له فيها الغلب عليهما حتى الجاهما في سنة ١٨٣ إلى أرض تدمير.

ودارت رحى الحرب دورات بين الحكم وجيش عميه كان فيها الغلب له عليهما وفي الواقعة الأخيرة حمى الوطيس بين الجيشين وكلاهما يكر على الآخر

(١) كندى ورومى ولم أر في التواريخ العربية أثرا لهذه الواقعة في السنين الأولى من حكم الحكم ويعبد أن يرى الحكم قيام الثورات في الجنوب والجوف من عميه ويتركهما قاصدا الحدود قبل أن يطفى نيرانها إلا أن ابن الأثير وتبعه غيره ذكر أن الحكم سير في سنة ١٨٠ جيشا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فدخل البلاد وبث سرايا ينهاون ويقتلون ويحرقون حتى غنموا مال الفرنج واسروا رجالهم وسبوا حريمهم وعادوا سالمين... اهـ. بتصرف وتاريخ هذه الواقعة سابق تاريخ قيام سليمان وعبد الله على الجكم.

كرَّ من يثق أن الفوز له وقد اظهر سليمان وأخوه عبد الله شجاعة ليس فوقها شجاعة حتى خال الرائي وقتئذ أن سيكون لهما الغلب ولكن قدر الله إصابة سليمان بسهم في نحره فسقط صريعا ووطئته سنابك الخيل فلما رأى عبد الله ما أصاب أخاه اخذ في الهزيمة وقد خيم الظلام إلى أن التجأ إلى بلنسية ثم جرى بجثة سليمان إلى ابن أخيه الحكم فبكاه وشيع جنازته بإجلال واحترام سنة ١٨٤^(١).

بعدئذ لم يسع عبد الله إلا أن يطلب الصلح من الحكم فأجابه إليه على أن يجعل أولاده نزلاء عنده في قرطبة فذهب عبد الله إلى طنجة وأرسل ولديه إلى الحكم فقابلهما بحفاوة وإجلال ورتب لعمه كل شهر ألف دينار وفوق ذلك خمسة آلاف في كل سنة وأباح له السكنى في قصور ضاحية بلنسية وعفا عن القواد الذين كانوا معه وزوج أخته المسماة (كنزاً) لأكبر ولدى عمه المسمى أصبغ وكان بذلك حسم النزاع سنة ١٨٦^(٢).

وفي سنة ١٨٤ التي قامت فيها المعركة الأخيرة بين الحكم وعميه سلَّمت طليطلة زعيم الثورة عبيدة بن حمزة إلى القائد عمروس فقطع رأسه وأرسله إلى قرطبة ودخل المدينة وأقام ابنه يوسف محافظاً عليها وأسرع في اللحاق بالأمير ومعه القوي التي أمكنه أن يعدّها ولم يترك حامية في طليطلة فأدركه في معسكره في جنجيلة^(٣).

(١) كذا يؤخذ من كندى - وفي ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٥ أن سليمان انهزم وقصد ماردة فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه فلما حضر عند الحكم قتله وبعث برأسه إلى قرطبة وكتب إلى أولاد سليمان وهم بسرقة كتاب أمان واستدعاهم فحضروا عنده بقرطبة.

(٢) في ابن الأثير وغيره أن الصلح تم في سنة ١٨٦ وفي كندى وتبعه رومي أنه كان في سنة ١٨٤ والمتبادر أن الواقعة الأخيرة هي التي كانت في سنة ١٨٤ (٨٠٠) وأما الصلح فكانت خاتمه في سنة ١٨٦.

(٣) قال ياقوت جنجيلة مدينة بالاندلس بين شاطبة وبنشنة.

يؤخذ من رومى أن الفرنج انتهزوا فرصة قيام الخصام بين الحكم وعميه فى السنين ٧٩٨ و ٧٩٩ و ٨٠٠.

١- فأغاروا على اسبانيا الشرقية وأوغلوا فيها وسبب ذلك أنهم بعد أن ضربهم الحكم فى آخر سنة ٧٩٧ وأخرجهم من الأنحاء التى فتحوها وطردهم من اسبانيا الشرقية ومن جزء من سبتمانية ما صدهم ذلك كله عن مقصدهم نحو اسبانيا ففى أوائل سنة ٧٩٨ اجتمع مجلس أمّتهم PLAIDE فى طلوّشة وقرر ارسال تجريدة إلى اسبانيا وفى ذلك الوقت كان بهلول يحكم البلاد الجبلية التى تناخم اكيثانه وقد ضربه الفرنج فى السنة الماضية فأرسل مبعوثين ليقدموا إلى المجلس هدايا ويلتمسوا الصلح فأكرم لويس وفادتهم وأجاب ملتمسهم وربما كان ارسال التجريدة إلى اسبانيا من ملتزمات بهلول من المجلس وقد استولت هذه التجريدة على جرونة وروضة وأميرياس.

٢- وأقاموا قلاعاً قوية على الحدود وقد شغلّتهم إقامة هذه القلاع عن إرسال بعثة حربية فى سنة ٧٩٩ إلى ما وراء جبال الأبواب ولكنها لما كملت فى السنة الأولى من القرن التاسع ورأى لويس حصانتها على طول جبال البرانس اجتاز الحدود إلى اسبانيا وكان مقصده الوحيد على ما يظهر أن يتحقق من صحة الوعود والقيود التى ارتبط بها زيد محافظ برشلونه وحسن محافظ وشقة فإن الأول أطاع شرلمان طاعة اسمية سنة ٧٩٧ ولما قرب الملك من برشلونه جاء إليه زيد واستقبله بإجلال وتعظيم ولكن لم يسلمه المدينة فتقدم الملك إلى لاردة وهاجمها فأخذها ثم خربها وخرب عدة قصور وقلاع على الطريق الذى بين لاردة وشقة ووالى هذه المدينة رفض أن يسلمها وكانت حصينة فاكتفى لويس باتلاف مزرعات قمحها وباحراق ما كان خارجاً عن أسوارها ولما جاء الشتاء عاد هو وجيشه إلى اكيثانه.

وفى ربيع السنة التالية عقدت الجمعية العمومية لمملكة اكيثانه فى طلوّشه

وقررت أخذ برشلونه فجتمعت الجنود من أربع أمم تابعة لهذه المملكة: من الفرنك والبشكنس والقوط والاكتان وجازت حدود جبال البرانس حتى وصلت إلى أسوار برشلونه وحاصرتها وكان أميرها يسمى زيدون فآثار حمية سكانها وحضهم على الدفاع والذود عن بيضتهم وصدّ الأعداء عن عاصمتهم فاستعدوا ودفعوا هجمات العدو برميّه بالنبال والقلاعات من فوق أسوار المدينة ولكن آل الأمر إلى سقوطها في سنة ٨٠١م.

ويؤخذ من كندى أن نصارى الفرنج أغاروا في سنة ١٨٥ على شرق اسبانيا فحاصروا مدينة جيرونة حتى خضعت ثم توجهوا إلى برشلونه فحاصروها زمنا طويلا إذ كانت منيعة فإن المسلمين كانوا حصنها تحصينا قويا وإن الحكم لما بلغه ثورة بهلول بن مرزوق وأنه يقود النصارى نحو طرجونة وكورة طروشة أمر بتوجيه قوة تطفئ ثورته وتردع هؤلاء الخائنين - وفي أثناء اعداد معدّات القوة جاء الخبر إلى قرطبة بسقوط برشلونه سنة ١٨٥ بعد أن طال حصارها سبعة أشهر^(١) وفي أثر ذلك سار الحكم نفسه إلى شرق اسبانيا ومعه قائد فرسانه محمد بن مفرج والوالى عمروس ولكن هذا عاد إلى طليطلة وسبب ذلك أن يوسف بن عمروس أحفظ أهل طليطلة وأهاج نفوسهم عليه لغلظته وقسوته حتى تجمعوا حول بيته ورموه بالحجارة وجرحوا كثيرا من حرسه وأرادوا الفتك به لولا أن حال دون ذلك كبراء المدينة وكتبوا إلى الحكم بهيجان الطليطليين وقيامهم على واليهم وأنه غير أهل لمنصبه فأطلع الحكم عمروسا على ما كتبه هؤلاء في ولده وأمره أن يدعوه إلى الحدود فرجاء هذا أن يقوم مقام ابنه في ولاية طليطلة ليتقم من أهلها فأجاب الأمير رجاءه.

لما استرد الحكم سرقسطة توجه إلى مدن الحدود الأخرى ليستردّها فأخذ

(١) جاء في ابن الأثير أن الفرنج ملكوا برشلونه سنة ١٨٥ واخذوها من المسلمين ونقلوا حماة نفورهم إليها وكان سبب ملكهم إياها اشتغال الحكم بمحاربة عميه عبد الله وسليمان.

تطيلة وترك يوسف بن عمرو قائدا لها واحتل بنبلونه وعند نزوله نحو شواطئ نهر ابرة استولى على وشقة ثم زار حدود فرنجة - وفي هذه الاثناء رغب يوسف قائد تطيلة الجديد أن يبرهن على أهليته فأغار على حدود الفرنج فوقع أسيرا في كمين نصبوه له سنة ١٨٧ ففداه أبوه منهم فأطلقوه^(١).

ثم سار الحكم إلى طرجونه فوجد أن بهلولا جلا عنها فاقضى أثره إلى أن أدركه في برية طرطوشه يقود عصابات من الجبيلين والنصارى فاشتبك القتال بينهما في عدة ملاحم قاوم فيها بهلول مقاومة تذكر لكنه قهر في الملحمة الأخيرة التي دامت أربع عشرة ساعة فجىء به حيا بين يدي الأمير فقطع رأسه سنة ١٨٨ (٨٠٤).

حصل هذا ولم يسترد الأمير برشلونه ويحتمل أن توالى المعارك وتتابع الاسفار أضعفت قوى جيشه فحال ذلك دون استرداد هذه المدينة الحصينة، يذكر بعض المؤرخين هنا أن الحكم بعد أن وطّد دعائم الأمن في الحدود عاد من طرطوشه إلى بلنسية فشاطبة فدانية فتدمير فقرطبة في أوائل سنة ١٨٩ للهجرة (٨٠٥).

وفي هذا الوقت ارتقى إلى عرش إمارة المغرب ادريس بن ادريس وهو الثاني من أمراء الإدارة فأرسل إليه الحكم وفدا يهتته بهذا الارتقاء ويعقد معه محالفة

(١) استخلصنا هذا من كندى ورومى لكن جاء في ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٧ أن الفرنج ملكوا مدينة تطيلة وسبب ذلك أن الحكم استعمل على ثغور الاندلس قائدا كبيرا اسمه عمروس فاستعمل ابنه يوسف على تطيلة وكان قد انهزم من الحكم أهل بيت من الاندلس أولو قوة وبأس لأنهم خرجوا عن طاعته فالتحقوا بالمشركون فقوى أمرهم واشتدت شوكتهم وتقدموا إلى مدينة تطيلة فحاصروها وملكوها من المسلمين فأسروا أميرها يوسف بن عمرو وسجنوه بصخرة قيس واستقر عمروس بمدينة سرقسطة ليحفظها من الكفار وجمع العساكر وسيرها مع ابن عم له فلقى المشركون وقاتلهم ففرض جمعهم وهزمهم وقتل أكثرهم ونجا الباقون منكوبين وسار الجيش إلى صخرة قيس فحاصروها وافتحوها وخلصوا يوسف أمير الثغر وسيره إلى أبيه وعظم أمر عمروس عند المشركون وبعد صيته فيهم. اهـ ولا يخفى ما في هذه العبارة من المغايرة لما نقلناه عن كندى ورومى.

على من بناوئهما وكان يصحب هذا الوفد خمسمائة فارس فقبول بالحفاوة والإجلال وكانت حاضرة إمارة إدريس (وليلي WALILI) لافاس فإنه هو الذي خطتها في سنة ١٩١ هـ (٨٠٧م).

وفي سنة ١٩٠ للهجرة (٨٠٦)^(١) حدث حادث فظيع في طليطلة وهو أن عمروسا لما ولي إمارة طليطلة خلفا لابنه عزم أن ينتقم من الطليطليين فانتهاز فرصة توجه عبد الرحمن بن الحكم إلى اسبانيا الشرقية يقود خمسة آلاف فارس ومروره بالقرب من طليطلة فدعاه أن يعرج على المدينة فلبى دعوته وكان ابن خمس عشرة سنة فأولم له الوالى وليمة فاخرة وأطلعه على ما عزم عليه من دعوة أعيان المدينة إلى الوليمة والفتك بهم فظهر ابن الأمير سخطه من هذا الأمر الشائن فأجابه الوالى بأن عداوة الطليطليين للامويين نار كامنة دائما متى كشفتها ربح الفرص ثاروا عليهم فيجب افزاعهم بما يخمد أنفاسهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك فهذا القول خدع الشاب فلما جاء المساء وبادر المدعوون إلى قصر الولاية للاحتفاء بابن أميرهم الحكم فأخذ الحرس كل مدعو إلى الداخل وقادوه إلى حفرة وقطعوا رأسه حتى قتلوا أربعمائة مدعو من الأشراف وفي اليوم التالي طرحت رؤوسهم أمام أهل المدينة فذعروا من منظرهم البشع ووجفت قلوبهم وشاع أن هذه المكيدة الشنعاء من تدبير الحكم فملئت قلوب الطليطليين بغضا فيه وكانوا لا يلصقونها بعبد الرحمن لصغره ولكنهم ما نسوا أنه كان العلة فيها فثاروا عليه أيام إمارته.

وبعد ثلاثة أيام سار الأمير الشاب وفرسانه إلى سرقسطة على الحد الذي كان وقتئذ نهر ابره ويقال إن السبب في تجريدة عبد الرحمن هذه الهنيلونيين PAM-

(١) هذه الحادثة يذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٩١ لكن في تاريخ كندى وتاريخ رومى أنها حدثت في سنة ١٩٠ ويذكرها دوزى في ٨٠٧ (١٩١) ويؤخرها عن حادثة ائتمار فقهاء قرطبة على خلع الحكم.

PLUNOIS والنفارين كانوا خاضعين للحكم منذ غزوته سنة ٨٠٢ ولكتهم في ٨٠٦ خضعوا للفرنح من تلقاء أنفسهم.

وفى ذلك الوقت كان الحكم وكى أصبغ ابن عمه مدينة ماردة فعزل هذا وزيره فتوجه المعزول إلى قرطبة ووشى بالوالى عند الأمير وقال له: إنه يتربص فرصة مناسبة ليلقى عن عاتقه نير الخضوع للإمارة الشرعية فأثرت هذه الوشاية فى نفس الأمير حتى أدت به إلى عزل ابن عمه وتولية الوزير فتوجه هذا إلى ماردة فرحا بنصرته وأعطى كتاب العزل والتولية إلى أصبغ فرفض أن يترك منصبه وكتب إلى الأمير جوابا يعجب فيه من سماع وشاية الوزير المعزول ويقول له: إن حفيد عبد الرحمن لا يطرد من عمله كما تطرد السوقة فهاج هذا الجواب غضب الحكم فبعث فى الحال كوكبة من فرسانه إلى ماردة فرأت أبوابها مغلقة فبلغت الأمير فحضر وعزم أن يدخل المدينة بالقوة ويمثل بأصبغ ولكن قدر الله درأ ذلك فخرجت كثر زوج أصبغ وأخت الحكم متطية جوادا يصحبها خادمان واخترت معسكر الحصار إلى أن دخلت خيمة أخيها فلما رآها ارتاع وهاجت فيه عاطفة الحنان إليها فترامت على قدميه وأخذت تبرى زوجها بفصاحة لسان وقوة جنان وتدحض عنه ما رماء به الوزير بحجج بالغة حتى اقنعت أخاها وصرفت عنه الظنون وذهب شيطان الشقاق وجاء ملك الوفاق ودخل الأمير وأخته المدينة وأقام فى ضيافة ابن عمه أياما إلى أن جاءه كتاب من قاسم ابن عمه عبد الله يدعو إلى قرطبة لقيام فتنة فيها فعاد مسرعا فقال له: «علمت أن كثيرا من وجهاء وفقهاء المدينة ممن ينقم عليك قسوتك وأثرتك وطاعة هواك ائتمروا بك ليقتلوك واختاروا أن أكون أميرهم فلم يسعنى إلا إظهار الميل لما يرومون وقد اطلعتك على أمرهم وأنا لا أزال على بيعتك» فبعث الحكم وسأله تصحيح ما بلغ فأخذ معه بعض ثقات الأمير وأجلسهم فى قبة فى داره وأخفى أمرهم وحضر القوم عنده ليتفقوا على موعد ينفذون فيه أمرهم فقال لهم: هذا الذى تدعوننى إليه لا يقوى

على القيام به فئة قليلة فسمّوا له آخرين معهم فقال: إني لا أثق بمن سمّيت دون أن اسمع منهم كما سمعت منكم فتطيب نفسي وأدخل في الأمر على قوّة وبصيرة فأتوه وسمع مقالتهم فقال لهم: موعدنا يوم الجمعة في المسجد وقت الصلاة وثقات الحكم بحيث يرون ويسمعون ويكتبون أسماءهم فلما صحّ عند الحكم أمرهم بشهادة هؤلاء الثقات عليهم أخذهم وصلبهم جميعا.

وروى دوزي هذه الحادثة بصورة أخرى في سنة ٨٠٥ فقال:

اتفق يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وفقهاء آخرون وبعض الأعيان على تولية ابن شماس ابن عم الحكم إمارة اسبانيا وخاطبوه في هذا الشأن فطلب منهم أن يعرفوه أسماء من يمكنه أن يعتمد عليهم فوعده بذلك في ليلة يعودون فيها إليه فلما خرجوا من عنده توجه سرا إلى قصر الحكم وأطلععه على أمرهم فكان يسمع منهم ويلوح على سيماء الرب في الأمر فقال له وقد كاد يتميز من الغيظ: «تريد أن تثير غضبي على أعيان عاصمتي - تالله إن لم تثبت ما أخبرتنى به لأقطعن رأسك» فسأله ابن شماس أن يرسل معه ثقة في ليلة كذا فأجاب الحكم سؤاله وأرسل إليه في الليلة المعينة ناموسه (كاتب اسراره) ابن الخاضع وغلّامه الخاص بخدمته المسمى (هيسنت HYACINTHE)^(١) وكان اسبانيا نصرانيا فاستترا وراء ستار وادخل ابن شماس من اثتمروا وسألهم عن من يعتمد عليهم من الرجال فذكروا له أسماء المؤتمرين والناموس من وراء الستار يكتب الأسماء في برنامج وكان بعضها أسامي أناس مخلصين في الظاهر للأمير فخشي الناموس أن يذكروا اسمه بين الأسماء فأحدث جلبةً بنطقه بعض ما يكتبه على الورق فشعر المجتمعون بالامر وقاموا مخذولين صائحين في وجه ابن شماس قائلين له: «غدرتنا يا عدو الله» ونجا بعضهم بالفرار من المدينة وممن فروا عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى

(١) وهو اسم نبات يسمى بالعربية السنبلة أو الخزامى ويسمى بالفرنسية أيضا (ZACINTHE زسنت) وذكر دوزي في تقييداته عدة ابنية لهذا الاسم منها (يزنت) عن ابن الأبار ثم قال إذا اضيفت جميع الحركات حصل (يزنتو YAZINTO) وبالإسبانية (ZACINTO زستو).

إلى طليطلة وقبضت الحكومة على اثنين وسبعين رجلاً من المؤتمرين وصلبتهم قال كندى ورومى إن من صلبوا كانوا ثلاثمائة وأن الحادث وقعت سنة ١٩٠ (٨٠٦) وأن من كانوا اختاروا ليكون أميرهم هو قاسم بن عبد الله عم الحكم وأنه هو الذى أفضى سرهم - ويؤخذ من ابن الأثير أن أهل قرطبة هاجوا ثلاث هيجات الأولى فى سنة ١٨٧ وأن عدد المصلوبين فيها اثنان وسبعون وأنهم كانوا اختاروا محمد بن القاسم القرشى المروانى عم هشام ابن حمزة وأخذوا له البيعة على أهل البلد وأنه هو الذى أطلع الحكم على أمرهم، والثانية فى سنة ١٩١ وأن الحكم عاد بسببها من ماردة إلى قرطبة وكشف عن الذين اثاروا الفتنة وصلبهم منكسين وضرب اعناق جماعة منهم ولم يعين هنا العدد ولا من اختاروه أميراً، والثالثة فى سنة ١٩٨ وقيل سنة ٢٠٢^(١) ويسمىها بواقعة الرىض وملخصها أن أهل قرطبة نقموا من الحكم انهماكه ولذاته وقتله جماعة من أعيانهم فعرّضوا به فكانوا ينادون عند انقضاء الأذان (الصلاة يا مخمور الصلاة) وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف وتعرضوا لجنده بالأذى والسبّ فحصن قرطبة وعمر أسوارها وحفر خنادقها وارتبط الخيل على بابها واستكثر المماليك ورتب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح ثم وضع على أهل قرطبة عشر الأطعمة كل سنة من غير حرص ثم قتل عشرة من رؤساء سفهائنها وصلبهم فهاج لذلك أهل الرىض فاجتمعوا بالسلاح فقاتلتهم الجنود فغلبهم الرىضيون وأحاطوا بالقصر فنزل الحكم من أعلاه وليس سلاحه وركب وحرّض الناس فقاتلوا بين يديه قتالا شديداً وأمر ابن عمه عبد الله فثلم فى السور ثلثة وخرج منها ومعه قطعة من الجيش فأحرق الرىض وأتى أهله المحاربين من ورائهم وفتك بهم فانهزموا وكانت مقتلة عظيمة وأخرج من كانوا فى المنازل والدور واسرهم فقتل الحكم من وجوههم ثلاثمائة وصلبهم منكسين

(١) نقل رومى عن بعض مؤرخى العرب أن واقعة الرىض كانت يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ للهجرة وقال ابن الأثير فى آخر عبارته: «وذكر بعضهم هذه الواقعة سنة اثنين ومائتين».

وأقام النهب والقتل والإحراق والتخريب فى أرياض قرطبة ثلاثة أيام وأشار على الحكم حاجبه عبد الكريم أن يعفو فنودى بالأمان على أن من بقى من أهل الربرض بعد ثلاثة أيام قتلناه وصلبناه فخرج من بقى منهم مستخفيا ومعهم نساؤهم وأولادهم وما خف من أموالهم. اهـ.

قال المقرئ (ناقلا عن ابن خلدون مع تصرف) كان للحكم الواقعة الشهيرة مع أهل الربرض لأنه فى صدر ولايته قد انهزم فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل: يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ، وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به وخلعوه ويابعوا بعض قرابته وكانوا بالربرض الغربى من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فحصره سنة تسعين ومائة^(١) فقاتلهم وغلبيهم فافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدو بالاسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ساروا بها فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون وغلبيهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش^(٢) فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة. اهـ.

وفى سنة ١٩٠ (٨٠٦) كانت قوآد الحكم تحارب على حدود جليقية حتى اضطر ملكها ألفونس أن يطلب هدنة ثلاث سنين من القوآد فأجابوه إلى طلبه وكان الحكم وقتئذ بماردة.

وفى سنة ١٩١ ثار فى باجة حزم بن وهب وقصد أشبونة فأرسل إليه الحكم ابنه هشاما فى جمع كثير فأذله ومن معه حتى طلبوا الأمان وفى أثناء ما كان الحكم مشغولا بأهل ماردة وقرطبة كان الفرنج يغيرون على المسلمين المتاخمين لهم

(١) كذا فى ابن خلدون ويظهر أن المقرئ أغفل هذه العبارة لشكه فى تاريخ الحادثة فإن ابن الأثير وهو من المآخذ التى أخذ عنها ابن خلدون أرخ هيجات قرطبة بسنين ١٨٧ و ١٩١ و ١٩٨ أو (٢٠٢).

(٢) جزيرة جريد أو كريت الآن.

على طول جبال البرانس حتى استولوا على جزء عظيم من أرض اسبانيا بين هذه الجبال ونهر ابرة.

وفى ابتداء سنة ١٩٢ حاصر الفرنج تحت قيادة لويس ملك اكيثانة مدينة طرطوشه فتوجه إليهم عبد الرحمن من سرقسطة يقود جيشا جرارا وانضم إليه جيش من بلنسية تحت قيادة واليها فرفعوا الحصار عن المدينة وفتكروا بالمحاصرين فتكا ذريعا حتى تغطت ميادين القتال بجثثهم وصارت أقواتا للطيور والوحوش وانهزم لويس ابن شرلمان إلى اكيثانه وعاد عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة وكان ابن تسع عشرة سنة فقبل فيها بالفرح والسرور سنة ١٩٣ ودعا عمروسا ليخلفه في اسبانيا الشرقية.

وفى سنة ١٩٣ (٨٠٩) نزل نصارى جليقية إلى (لوزيتانيا) تحت قيادة ملكهم ألفوس فحرقوا مدنها وقتلوا أهلها واستمروا في سيرهم حتى وصلوا إلى أشبونة فنهبوا وخربوا ضواحيها إلى أن جاءهم الحكم نفسه فدفعهم إلى أرضهم وعاد إلى قرطبة تاركا قواده تحاربهم إلى (سنة ٨١١) وفى سنين ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ عاودت أهل ماردة الخلاف على الحكم وعصوا عليه فسار إليهم بنفسه وقتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد إليهم حتى خضعوا وخرج منها واليها أصبغ وسكن قرطبة، وفى هذه السنين (كما جاء فى ابن الأثير) طمع الفرنج فى ثغور المسلمين وقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسبي وكان الحكم مشغولا بأهل ماردة فلم يتفرغ للفرنج فاتاه الخبر بشدة الأمر على الثغور وما بلغ العدو منهم وسمع أن امرأة مسلمة أخذت سبية فنادت واغوثاه يا حكم، فعظم الأمر عليه فجمع عسكره وسار إلى بلاد الفرنج سنة ١٩٦ وأثنى فى بلادهم وافتتح عدة حصون وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال وقصد الناحية التى كانت بها تلك المرأة فخلصها من الأسر فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: هل أغناكم الحكم؟ فقالوا نعم: ودعوا له وأثنوا عليه خيرا وعاد إلى قرطبة مظفرا.

قال المقرئ في سبب هذه الغزاة: إن العباس الشاعر توجه إلى الشجر فلما نزل
بوادى الحجارة سمع امرأة تقول واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو
علينا فأيمنا وأينمنا فذهب إلى الحكم وأنشده قصيدة يصف له فيها خوف الشجر
واستصراخ المرأة باسمه منها:

تدارك نساء العالمين بنصرة

فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

فأنف ونادى في الحين بالجهد فخرج إلى وادى الحجارة ومعه الشاعر وسأل
عن الخيل التي أغارت من أى أرض العدو كانت فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية
وأثخن فيها وفتح الحصون وخرّب الديار وقتل عدداً كثيراً وجاء إلى وادى
الحجارة فأمر باحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد فأحضر وأمر
بضرب رقاب الأسرى بحضرتها وقال للعباس سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت
المرأة: وكانت نبيلة والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو وأغاث المهلوف فأغاثه
الله وأعز نصره فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه وقال:

ألم تر يا عباس أنى اجبتها

على البعد أقتاد الخميس المظفرا

فـادركت أوطارا وبردت غلة

ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال العباس: نعم جزاك الله خيرا عن المسلمين وقبل يده.

ويؤخذ من روى أن الفرنج في سنة ٨١٠ أرادوا أن يعاودوا الكرة على
طرطوشه فذهب جيشهم أولا إلى برشلونة وصنعوا فيها زوارق سهلة الحمل كل
منها مقسم إلى أربعة أقسام يمكن حمله على حصانين أو بغلين ويسهل تركيبه عند
إرادة الاستعمال واستحضروا لهذا الغرض مطارق ومسامير وقيرا وشمعا ومشاقا
وليخفوا أمرهم كانوا يسرون ليلا ويختبئون نهارا في الغابات ولا يشعلون النار لئلا

يدل عليهم دخانها حتى وصلوا إلى شاطئ نهر ابرة بعد ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع ركبوا زوارقهم ووضعوها في الماء واخترقوا بها النهر قائدين خيلهم تسبح حول الزوارق فلما وصلوا إلى الشاطئ الآخر فاجتوا فرقة من العسكر كانت تخفر النهر فولت مدبرة تاركة وراءها امتعتها وخيامها فبات فيها الافرنج وفي اليوم التالي قابلهم والى طرطوشة المسمى عبيد الله أو عبدون بمن قدر على جمعه من الجنود ودارت رحى الحرب بين الفريقين وانجحت عن فوز الطرطوشيين وعن ارتداد الفرنج إلى اكيثانة على أعقابهم خاسرين^(١).

لما رأى الحكم تتابع الحروب بين المسلمين وبين الافرنج من جهة الشمال الشرقي وبين نصارى جليقية من جهة الشمال الغربي أرسل مبعوثين إلى شرلمان امبراطور الفرنج يطلبون الصلح ومع هؤلاء المبعوثين (كونت) كان أسيرا عند الأمير منذ سنين فوصلت هذه البعثة إلى مدينة (اكس لاشبال AIX-LA-CHAPELLE) في الوقت الذي وصلت فيه إليها بعثة امبراطور القسطنطينية (نسافورة NICEPHORE) لمثل غرض البعثة الأولى فعقد شرلمان الصلح مع البعثتين في شهر اكتوبر سنة ٨١٠م.

ومع هذا أغارت تجريدة بحرية من المسلمين في نهاية هذه السنة على جزيرة قرصة (CORSE) فخربتها لكن يظهر أن هذه التجريدة قامت من ثغور اسبانيا قبل أن يعلم الصلح في زمن كانت فيه وسائل نقل الأنباء صعبة وقليلة السرعة.

وفي نهاية هذه السنة أيضا طرد عبد الرحمن بن الحكم عمروسا من سرقسطة والجاء إلى وشقة مسقط رأسه لما ظهر من أن له علائق بالفرنج وأنه كان يظلمهم على المحال التي يسهل عليهم مفاجأتها وكان عمروس هذا من المولودين أبوه مسلم وأمه نصرانية فيحتمل أن الفرنج حالفوه على استقلاله بالشعر الأعلى تحت رعايتهم.

(١) هذه الحادثة لا أثر لها في التواريخ العربية التي بأيدينا.

وفى سنة ٨١١م فسخ عقد الصلح بين الحكم وشرلمان وعاد الشجار بين الأمتين على أرض اسبانيا حتى إن لويس تأهب لأخذ طرطوشة^(١) ويحتمل أن سبب ذلك استمرار غزوات المسلمين البحرية إلى جزائر البحر المتوسط التابعة لمملكة افرنجة.

وفى سنة ١٩٧ (٨١٢) دخل عبد الرحمن جيرونه وغزا أرض نربونه فقاتل أهلها ونهبها وعاد معه كثير من الأسرى والغنائم الواسعة وكان ابن إحدى وعشرين سنة وكان حاكم اسبانيا الشرقية ومحافظ الحدود^(٢) جاء فى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٠٠ أن الحكم جهز جيشا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالاندلس (يعنى نصارى جليقية) فسار بالعاكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخرّبها ونهبها وهدم عدة من حصونها فاستنفذ خزائن ملوكهم، فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصرين بهم فاجتمعت إليه النصرانية من كل أوب فأقبل فى جموع عظيمة بازاء عسكر المسلمين بينهم نهر فاقتتلوا قتالا شديدا عدة أيام، المسلمون يريدون أن يعبروا النهر وهم يمنعونهم فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبّر المشركون إليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهمز المشركون إلى النهر فأخذهم السيف والأسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من كنودهم^(٣) وملوكهم وقمامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما

(١) روى رومى عن قصصى منجم أن لويس سار إلى طرطوشه بنفسه يقود جيشا كثير العدد والعدد وحاصرها أربعين يوما وهو يرمى حيطانها بالمجانيق حتى طلب أهلها عقد شروط وألقى محافظها عبيد الله مفاتيحها إلى لويس فحملها وهو فرح إلى أبيه، واعقب رومى هذه الرواية باستبعاد استيلاء لويس على طرطوشة كما استولى على يروشونه وأنه ترك فيها حامية وأقام عليها محافظا - لأنه لم يوجد لذلك أثر فى تاريخ عربى ولا أفرنجى وقد جاءت اخبار مختلفة تتكلم عن طرطوشة بعد هذا الزمن باعتبار أنها مدينة خاضعة للحكم الاسلامى.

(٢) رومى.

(٣) جمع كند المعروف الآن بكنت.

فجاءت الأمطار وزاد النهر وتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم سابع ذى الحجة. اهـ.

وجاء فى ابن خلدون ما نصه:

«وفى سنة ٢٠٠ بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فسار فيها وخربها ونهبها وهدم من حصونها وأقبل إليه ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه أياماً ونال المسلمون منهم أعظم النيل وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كشرت الأمطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين وجاء فى تاريخ ابن عذارى نحو ذلك وسمى النهر نهر ارون وقال: إن المشركين قتل منهم عدد عظيم لا يحصى كثرة وضاعت الحال أيضا بالمسلمين فقفل عبد الكريم ظافرا لسبع خلون من ذى القعدة.

ويؤخذ من كندى ورومى:

١- أن جيش الحكم فى سنة ١٩٧ (٨١٢) كان يحارب نصارى الشمال الغربى تحت قيادة عبد الكريم وعبد الله فكان للجيش فى المبدأ نصرات لكن صعب القتال على المسلمين منذ دخلوا فى أرض جبلية يجعلونها فغلب النصارى القائد عبد الله على حدود جليقية فقتلوه وفرقوا جنده أبدى سبا وفرّ فرسانه حاملين الرعب إلى عساكر عبد الكريم حتى اضطروهم إلى الفرار مع ما هو عليه قائدهم من المهارة والشجاعة فغرق بعضهم فى النهر ولجأ البعض إلى الغابات المجاورة وتسلقوا اشجارها ليختبوا فيها ولكن عسكر النصارى أدركوهم ورموهم بالسهم.

٢- وإن عيسى بن أحمد الرازى قال: بقى الجيشان بعد الهزيمة يواجه أحدهما الآخر بدون قتال ثلاثة عشر يوما فلا النصارى يجرون على المسلمين ولا هؤلاء يجرون على أولئك ثم اشتبك الفريقان فى مناوشة دموية جرح فيها عبد الكريم برمح ومات أثر جرحه بيومين فأخذ جيشه فى الهرب.

لا يخفى ما بين كلام مؤرخى العرب وكلام مؤرخى الأفرنج فى هذه الحادثة

من التناقض لكن جاء فى تقييدات رومى (ص ٣٩٣ ج ٣) أن مرفى MURPHY يروى هذه الحادثة بوجه آخر أقل خسرانا على المسلمين قال «فى هذا الوقت (٨١٢) تقدم (اذفُنش) ملك الجلالقة يقود جنودا نحو المسلمين فالتقى الجيشان بالقرب من نهر واقتلا ثلاثة عشر يوما كان فيها الفوز للمسلمين لكن هطلت أمطار غزيرة أمدت النهر فطنى ماؤه فاضطر المسلمون وإن كانوا ظافرين إلى ترك ميدان القتال» فهذه العبارة تؤيد ما جاء فى التواريخ العربية ويذكر مؤرخو العرب هذه الحادثة فى حوادث سنة ٢٠٠ للهجرة ومؤرخو الافرنج يذكرونها فى حوادث ٨١٢ للميلاد المقابلة لسنة ١٩٧ فيحتمل أنها ابتدأت فى سنة ١٩٧ وانتهت فى سنة ٢٠٠ والله أعلم بالحقائق.

وفى ربيع سنة ١٩٨ أغار عبد الرحمن على جليقية ليأخذ بثأر من قتل من المسلمين فى السنة الماضية فطرد النصارى من مدينة سمورة التى على نهر دورو DUERO واستولى على عدة قلاع والتقى بالأعداء على نهر^(١) ففتك بهم حتى سالت دماؤهم كالنهر وانهزم من نجا منهم وبعدها عقد الصلح بين الفريقين وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مثقلا بالغنائم يقود كثيرا من الاسرى وقد اكسبت عبد الرحمن نصراته فخرا وشهرة واسعة فجمع والده الحكم الأمراء والوزراء وقاضى القضاة والولاة والقواد والسراة وعهد إليه أمامهم بولاية الأمر من بعده فارتضوه جميعا وحلفوا له بيمين الطاعة وكان ذلك فى يوم مشهود ساد فيه الفرح والسرور ومن ذلك اليوم سُمى ولى العهد سنة ١٩٩ يؤخذ من رومى (أن اختيار عبد الرحمن ولى عهد كان فى سنة سكنت فيها زوايج الحروب لاستمرار زمن الصلح بين المسلمين والفرنيج ولعقد عبد الرحمن الصلح مع الجلالقة عقب غزواته الأخيرة فى سنة ٨١٣) وكأنه نسى قوله قبل ذلك: إن عقد الصلح فسخ فى سنة ٨١١ وأن عبد الرحمن غزا أرض تربونه سنة ١٩٧ (٨١٢) إلا أنه يحتمل أن

(١) لم يسموا النهر ولعله نهر ازالا EZLA.

عبد الرحمن استعاد الفرنج الصلح عقب غزوه إياهم هذه السنة كما أنه عقده مع الجلالقة في السنة التالية.

ويؤيد ذلك قوله فيما بعد أن موت شرلمان امبراطور الفرنج في ٢٨ يناير سنة ٨١٤ لم يغير شيئاً في العلائق التي بين العرب والفرنج إلى سنة ٣١٥ ففيها فسخ الصلح الذي عقد بين الاملتين في سنة ٨١٢ وعادت الخصومات بينهما إلا أن عبد الرحمن وإلى اسبانيا الشرقية أرسل سفراء إلى (لويس) الذي خلف أباه شرلمان يطلبون منه إطالة زمن الصلح ثلاث سنين فقابلهم في سنة ٨١٦ وبعد مطاولة أجاب طلبهم في ٨١٧.

قال ابن الأثير «وفي هذه السنة (٢٠٠) خرج خارجي من البربر بناحية مورور فاستدعى الحكم قائداً وأخبره بذلك سراً وقال له: سر من ساعتك إلى هذا الخارجى فأتني برأسه وإلا فرأسك عوضه وأنا قاعد مكاني هذا إلى أن تعود فصار القائد إلى الخارجى وقتله وأحضر عند الحكم رأسه فأحسن إليه ووصله وأعلى محله (مورور بفتح فسكون فضم).

ويؤخذ من رومى وكندى أن الحكم كان لا يخرج من قصره زمن السلم مفوضاً شئون الحكومة إلى ابنه عبد الرحمن مولعاً هو بمجالس اللهو والطرب والخمر في حداثته بين غلمان ونسائه اللاتي كن يحسن الغناء وضرب آلات الموسيقى وكان هذا يلقيه عن أمور الدين، وكان يغضب الفقهاء والعلماء منه رأيه في شرب الخمر وسفكه الدماء وجوره على الرعية فكرهه الناس لذلك ولاتقاء شرهم اتخذ حراساً: مائتي جندي يرابطون على شواطئ النهر بازاء قصره في نكتتين بنيتا لهذا الغرض وخمسة آلاف مملوك من الصقالبة منهم مائتا راجل وثلاثة آلاف فارس يحرسون ذاته، خاصة وهؤلاء المماليك يخدمون في القصر وعند الحاجة يحملون السلاح ونفقات هؤلاء الحراس الجأت الأمير إلى أن يفرض على الأهليين رسوما يؤدونها على عروض تجارتهم المختلفة الداخلة في المدينة فامتلات صدورهم

حققا عليه وتذمروا وتوقف بعضهم عن ادائها واهانوا الجبة فأمر الحكم بالقبض على عشرة من المتوقفين ونشأ عن ذلك ضجيج وصخب فى انحاء المدينة وقضى عليهم قضاء صارماً بأن يصلبوا على أوتاد على شاطئ النهر ففعل بهم ذلك فى ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ فهرع سكان الرض الجنوبى من قرطبة ليروا هؤلاء المصلوبين فضرب جندى أحدهم فرموه بالحجارة وهجموا عليه فجرى أمامهم مغطى بدمائه حتى احتفى فى حرس المدينة وقد تهادوا فى الهيجان حتى انقضوا على الحرس وفرقوا شمله ووصلوا إلى قصر الأمير صارخين عليه ومهددين إياه.

لما علم الحكم بأمرهم تسربل بسلاحه وهم بالنزول إليهم فأراد إخصاؤه أن يمنعوه فلم يسمع لهم قولا فجمع فرسانه وركب فى مقدمتهم وطرده المتجمهرين وكانوا عزلاً ففر كثير منهم إلى مساكنهم وأوصدوا أبوابها عليهم ومن بقوا منهم فى الشوارع اجتهدوا فى أن يقاوموا فلم يفلحوا وقبض على ثلاثمائة منهم فقتلوا ورمت أشلاؤهم بالقرب من النهر - وفى اليوم التالى أمر الحكم بتخريب أرباض قرطبة لا سيما الرض الجنوبى^(١) وأباح نهب منازلها ثلاثة أيام خلا أن يمس النساء ضرر.

وفى اليوم الرابع نودى فى الناس بالأمان على أن يهاجروا من قرطبة فقر منهم كثير إلى قرى طليطلة ورحل منهم خمسة عشر ألفا إلى أفريقية فأقام منهم ثمانية آلاف فى المغرب والباقون ذهبوا إلى مصر^(٢) وقد اختاروا أبا حفص عمر بن شعيب البلوطى^(٣) رئيسا لهم فلما وصلوا الاسكندرية اعترض لهم أهلها ومنعواهم الدخول لكنهم قوّوهم^(٤) ودخلوا المدينة عنوة وفتكوا بأهلها وتغلبوا على حكومتها فجاءهم عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون واتفقوا على

(١) كان هذا الرض يمتد على الشاطئ الأيسر للنهر الكبير فى جنوب قرطبة بإزاء قنطرة السمح.

(٢) يروى أن الذين ذهبوا إلى مصر كانوا خمسة عشر ألفا خلا النساء والأطفال.

(٣) نسبة إلى فحص البلوط أى بركة قلعة رباح.

(٤) قايته فقوته أى غلبته.

الجبلاء عن الاسكندرية على مال وسكنى جزيرة اقريطش (جريد أو كريت) التى كانت قليلة السكان وقتئذ فرحلوا إليها وتغلبوا على أهلها وحكموها مدة ١٣٨ سنة إلى أن فتحها (ارماتاس) ابن امبراطور اليونان قسطنطين فى سنة ٣١٥ للهجرة (٩٦١ للميلاد).

هذه هى وقعة الربض الأخيرة وقد سبق كلام ابن الأثير وابن خلدون والمقرى فيها.

ولا يخفى ما فى روايتها من الاختلاف ومن أجلها لقبوا بالحكم بالربضى وكنوه بأبى العاص ومن هذه التسمية الأخيرة سماه الافرنج ابولاز ABULAZ.

وفى سنة ٢٠٣ للهجرة (من يولييه سنة ٨١٨ إلى يولييه سنة ٨١٩) وتالياتها توجه عبد الرحمن إلى حدود جليقية يقود جيوش ماردة فغزا النصارى وغلبهم فى عدة مناوشات ثم ذهب إلى حدود الفرنج فأوقف سير غاراتهم على اسبانيا ورجع إلى قرطبة سنة ٢٠٥ (٨٢٠-٨٢١) وعند مروره بطرجونه وجّه السفن الراسية على شواطئ اسبانيا هناك إلى جزيرة سردينيا فقاتلوا نصارها وأحرقوا أسطولهم أمام الجزيرة وقبضوا على ثمانى سفن تجارية لهم ورجعوا إلى ساحل اسبانيا.

أحدثت فظائع وقعة الربض تأثيرا سيئا فى عقل الحكم حتى مرض ومات فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦^(١) بعد أن حكم ٢٦ سنة قمرية و١٠ أشهر و١١ يوما.

قال ابن خلدون (ناقلا عن ابن الأثير مع تصرف) توفى الحكم ابن هشام آخر سنة ست ومائتين^١ لسبع وعشرين سنة من ولايته وهو أول من جند بالانڈلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والحواشى وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس

(١) فى ابن الأثير أنه مات لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٠٦.

وكان يقرّب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس. اهـ.

٤ - عبد الرحمن الثانى ابن الحكم (من ٢٠٦ إلى ٢٣٨):

قبض عبد الرحمن على دفة حكومة اسبانيا فى السنين الأخيرة من حياة أبيه الحكم فلما مات هذا فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ للهجرة انتقل لقب الإمارة العامة إلى ابنه وكان ابن إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام^(١).

يصفه بعض مؤرخيه بأنه كان اسمر اللون طويل القامة اقنى الأنف أكحل العين عظيم اللحية حازما ماهرا شجاعا عالى الهمة أديبا شاعرا عالما بالشريعة والفلسفة وأنه أول من شاد القصور الجميلة والمنتزهات ومهّد الطرق وأنى بالماء العذب إلى قرطبة من الجبال وبنى المدارس وشاد الجوامع وزاد فى جامع قرطبة وكان محبا للعلماء والأدباء ولم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه ابهة ومجدا وزاد حرسه ألف فارس.

فى أول ولايته ثار عليه عم أبيه عبد الله البلنسى ولم يطفى برّد لحيته نار طمعه فى ملك اسبانيا فعبر من طنجة مجاز جبل طارق بقوة عظيمة قاصدا قرطبة مدّعا أنه أمير اسبانيا ظانا أن أولاده يمدون إليه أيدى المساعدة وكانوا ثلاثة مرتقين إلى مراتب سامية فى الحكومة وهم: قاسم وأصبغ وعبيد الله فتقدم إليه عبد الرحمن وغلبه فى عدة معارك حتى الجأه إلى الفرار إلى مدينة بلنسية فجاءها الجيش الغالب وحاصرها إلى أن جاء ابنه عبد الله قاسم وأصبغ إلى المعسكر وطلبا العفو من الأمير عن أبيهما فعفا وصفح وتقابل عبد الرحمن وعبد الله وزال الخلاف وولاه الأمير كورة تدمير مدة حياته وبعد سنتين مات عبد الله سنة ٢٠٨ (٨٢٣)

(١) كندى ورومى وفيه نظر يتبين مما يأتى أخيرا - قال ابن الأثير أن عبد الرحمن ولد بظليطة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لابيّه هشام.

وكان شيخا كبارا ولد في الشام قبل دخول أبيه اسبانيا كذا يؤخذ من كندى ورومى وقال ابن الأثير: «لما ولى خرج عليه عم أبيه عبد الله البلنسى وطمع بموت الحكم وخرج من بلنسية يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فلما بلغ ذلك عبد الله خاف وضعفت نفسه فرجع إلى بلنسية ثم مات.

وقال ابن خلدون في هذا الموضع: «خرج عليه لأول ولايته عبد الله البلنسى عم أبيه وسار إلى تدمير يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فحام عن اللقاء ورجع إلى بلنسية ومات إثر ذلك» فيؤخذ من كلام هذين المؤرخين أن عبد الله لم يخرج على الأمير من طنجة بل من بلنسية وأنه لم تحدث معارك بين الفريقين وسبق أن الحكم سكنه ضاحية بلنسية.

وفي السنة التالية لسنة الولاية (٢٠٧) حدثت الواقعة المعروفة بوقعة (بالس)^(١) وسيبها أن الحكم كان قد بلغه عن عامل البيرة المسمى ربيعا أنه يظلم أهل الذمة وثبت الأمر لديه فقبض على العامل وصلبه ومات الحكم إثر ذلك فجاء المظلومون إلى قرطبة يطلبون رد الأموال التي ظلمهم فيها ربيع ظانين أنها ترد إليهم ووقفوا بباب القصر وشغبوا فبعث إليهم الأمير عبد الرحمن من يسكنهم فلم يقبلوا بل دفعوا من جاءهم فخرج إليهم الجند وأوقع بهم ونجا فلهم إلى البيرة.

في هذه الأثناء أغار كند^(٢) برشلونة على بلاد المسلمين من وراء الثغر^(٣) فحربوا وأحرقوا ونهبوا وعادوا مشقلين بالغنائم (٨٢٢) فجاء خبر ذلك إلى عبد الرحمن عقب أن عقد الصلح مع عم أبيه في بلنسية وكان يريد أن يطلق سراح الجنود فأمسك وأرسل فريقا منهم في المقدمة تحت قيادة عبد الكريم فقابل النصراري وهزمهم وحصرهم في برشلونة حتى جاء الأمير بقواته العظيمة وأحرق

(١) يظهر أنها سميت بذلك لأنها وقعت أمام القصر واسم القصر بلغة الافرنج (بالس PALAIS).

(٢) أو كونت ويجمعه ابن الأثير على كنود وهو لقب رقبه من رتب الافرنج.

(٣) الثغر اسم نهر في اسبانيا يخرج من فرنسا من شق سردينا على جبال البرانس ويصب في نهر ابيرة.

بالمدينة ووالى الهجوم عليها حتى فتحها^(١) وأخلاها من العدو وأمر بزم أسوارها ثم سار إلى أرغل URGEL فأصابها ما أصاب أختها ثم طارد الأفرنج حتى ألجأهم إلى قلاعهم المقامة على الجبال ثم عاد إلى قرطبة منصوراً سنة ٢٠٧ للهجرة^(٢) (٨٢٢).

وفى هذه السنة نشأت الفتنة فى كورة مرسية بين اليمانية والمضرية فاقتلوا بلورقة وكانت بينهم وقعة تعرف بوقعة (المصاراة) قتل فيها نحو ثلاث آلاف رجل وكان الأمير عبد الرحمن يرسل القواد بالجيوش ليزيلوا الشقاق المستحكم بين الفريقين ويكفّوهم عن القتال فكانوا إذا جاء قائد الأمير يسكنون وإذا رحل عنهم يهبون إلى الخصام وداموا على ذلك سبع سنين.

وفى ربيع السنة التالية جاء من القسطنطينية إلى قرطبة وفد من قبل قيصر الروم ميخائيل إلى الأمير عبد الرحمن بهدية ثمينة من الخيل المطهّمة المجهزة بعدد فاخرة لم ير لها فى اسبانيا نظير فاستقبل الأمير هذا الوفد بالحفاوة والإجلال وقبل الهدية وأضافهم فى قصره فبلغوه أن القيصر يرغب أن يكون له حليفاً على حزب المأمون خليفة بغداد وأن هذا يسهّل عليه تجديد ملك اجداده فى الشرق فوعدهم الأمير خيراً وغمّهم بالهدايا الجزيلة وأرسل معهم يحيى الغزال^(٣) من كبار أهل

(١) يستبعد رومى فتح عبد الرحمن برشلونه ويعدّه كفتح لويس طرطوشه.

(٢) هذه السنة تبدئ فى فبراير سنة ٨٢٢ وتنتهى فى فبراير سنة ٨٢٣.

(٣) كذا فى التواريخ العربية ويسميه كندى (يحيى بن حكم الغزالى) وتبعه رومى إلا أنه قال: (ابن الحكم) ويؤخذ من تقييدات هذا أنه سمى بالغزلى لأنه كان ينظم شعر الغزل وانظر هل هذا الشاعر هو المعنى فيما يرويه ابن عذارى من أن الغزال الشاعر دخل على الأمير فقال الأمير: جاء الغزال بحسنه وجماله فقال له الوزير أجز ما بدأ به الأمير فقال قال الأمير مداعباً بمقاله

جاء الغزال بحسنه وجماله

ابن الجهمال من امرئ أرى على

متعدد السبمين من أحواله

فإن صح ذلك يكون ما أبداه رومى من علة التسمية وهم.

الدولة ومعه هدية برسم القيصر من أفراس الاندلس الرائعة الكريمة ومن سيوفها البتارة المصوغة فى معاملها الموشاة بالحلى الجميلة وكان يحيى فصيحا شاعرا حكيما ماهرا فى فن الملاحة.

وفى السنة عينها (٢٠٨) أو فى مبدأ السنة التالية جاء إلى عبد الرحمن فى قرطبة وفد من النصارى والجبليين يدعونه إلى التحالف وهم من البشكنس وحملهم على هذا ما اشيع من أن الفرنج سيغيرون على الجبليين (سكان جبال البرانس) مدعين أن عصيانهم يتجدد دائما وعلى أثر هذه الإشاعة أقسم النصارى على إهلاك هؤلاء القوم الجرمانيين الذين هم وإن كانوا نصارى مثلهم إلا أنهم على الدوام يقاتلونهم أكثر من الأندلسيين المسلمين وعلى هذا دعوا هؤلاء لمساعدتهم على عدو الفريقين فأجاب عبد الرحمن دعوتهم وحالفهم، وما كانت هذه الإشاعة التى حملت الجبليين على أن يحالفوا الأندلسيين بدون أساس قفى أواخر سنة ٨٢٣ أمر ملك اكيثانه أن يجتاز جيش قوى الجبال تحت إمرة قائدين يسميان (إيلوس ELUS) و (أرناريوس ARNARIUS) وقتئذ كان المقصد من اجتياز الجيش غير معلوم هل كان محاربة العرب أو الجبليين أو النصارى أو الهنلونيين وقد علم بعد أن الجيش قصد بنبلونه فدخلها وقضى مآربه فيها ثم عاد فوقع فى أيدي أعدائه.

هنا لم يذكر المؤرخون السبب الذى اقتضى توجه جيش ملك الاكيثان إلى بنبلونه وما هو المآرب الذى قضاه بها ويظهر أن الغرض كان اتخاذ المدينة مركزا حربيا للاستيلاء على الأقوام المجاورين فحال دون ذلك أن سمع الجيش بتوجه العرب والبشكنس نحو الحدود فعاد مسرعا تاركا المدينة على ما كانت عليه.

ذكر المؤرخون الأندلسيون أن ولاية الحدود فى سنة ٢٠٩ للهجرة (٨٢٤) قاتلوا فرنج الجبال فى عدة معارك دموية وغلبوهم وقتلوا كثيرا منهم فى مضابق جبال البرت ومن تلك المعارك معركة (بُرت شزر PORT- SCHAZAR) التى هى

ثغر بنبلونيه فإن العرب مزقوا الفرنج فيها كل ممزق وأخذوا قادتهم أسرى إلى قرطبة وغنموا غنائم واسعة، يظهر أن هذه المعارك هي المعنية في التواريخ العربية بغزوة البة والقلاع.

قال ابن خلدون (نقلا عن ابن الأثير): «في سنة ثمان (٢٠٨) أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى البة والقلاع فخرّب كثيرا من البلاد وانتسفها وفتح كثيرا من حصونها وصالح بعضها على الجزية واطلاق أسرى المسلمين وانصرف ظافرا» وقال ابن عذاري: «وفي سنة ٢٠٨ كانت الغزاة المعروفة بغزاة البة والقلاع غزاها عبد الكريم بن عبد الواحد بالصائفة واحتل بالثغر وتوافت عليه عساكر الإسلام واختلفوا في الدخول على أي باب يكون إلى دار الشرك ثم اجتمعوا على أن يكون من باب (البة) إذ كان ذلك الباب انكى للعدو وأحسم لدائه فاقترحوا من فجّ يقال به جرنيق وكان وراءه بسيط للعدو فيه خزائنه وذخره فوقع أهل العسكر على تلك البسائط فاستصفوها وعلى ذخرك تلك الخزائن فانتهبوا وانصرفوا غانمين ظافرين».

وفي سنة ٢٠٩ أرسل الأمير عبد الرحمن إلى حد (الجوف)^(١) عبيد الله بن عبد الله البلنسي لأن النصاري كانوا ابتداءوا هناك في شنّ الغارات وكان عبيد الله هذا قائد السيّافه وقد أقامه الأمير محافظا على هذا الحد فقاتل (أذفّش) ورجح عليه حتى اضطره إلى أن يلتجئ إلى جباله وحصونه وعاد هو إلى قرطبة ومعه كثير من الأسرى والغنائم فاستقبله الأمير بالإجلال سنة ٢١٠ هـ.

وبعد أشهر أعاده الأمير إلى قتال هؤلاء الأعداء أنفسهم فتوجّه يقود الجيوش مشاة وفرسانا وبقي هناك ستين.

(١) يؤخذ من كندی ورومي أن (الجوف) في شمال إسبانيا لكن جاء في ياقوت الجوف أرض مطمئة أو خارجة في البحر في غرب الأندلس مشرقة على البحر المحيط والجوف أيضا من إقليم (اكشونية) من الأندلس وقال أيضا: (اكشونية) مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل اشبونة وهي قرطبة.

ما كانت حروب عبد الرحمن العديدة عاتقة له عن تحسين قرطبة وإعلاء حضارتها وجلب الماء الصافي من الجبال إليها في أنابيب الرصاص وبناء الجسور على نهريها^(١) وعن تشييد القصور والمدارس والجوامع ذات النافورات المرمرية في قرطبة وغيرها من المدائن وعن أن يعيش ملكا منعما في قصره الباذخ مغمورا في الترف والرفاهة ويفيض بأعطياته على مهندسي مبانيه وشعرائه ومغنيه وجواريه وكانت تلجئه نفقات هذه الشئون ونفقات الحروب إلى فرض ضرائب باهظة على الأهلين حتى سخطوا وتذمروا من ذلك - وكان النصارى المدائن العظيمة ارتباط بأهل أوروبا فإن كثيرا منهم كانت تدفعهم رغباتهم في التجارة إلى السفر من اسبانيا إلى بلاد الغال (فرنسا الآن) وجرمانيا حتى إلى جزيرة (برتون BRETON) فطنطنوا في شكواويهم من الأمير إلى الأوربيين ففي سنة ٢١٣ (٨٢٨) جاء كتاب من (لويس ملك الفرنج إلى أهل ماردة يحرضهم على الثورة على الإمارة^(٢)) فصادف منهم صدورا حرجة من قسوة الشرطة في جبي الضراب التي كانوا يسمونها بالزكاة فرفعوا لواء العصيان تحت إمرة محمود بن عبد الجبار الذي كان جاييا في عهد الحكم وفصل من وظيفته في مبدأ حكم عبد الرحمن لأنه شهر نفسه في حزب خصمه عبد الله وهجموا على بيوت العمال ونهبوا وخرّبوا وفتكوا بهم وما نجا الوالى من القتل إلا بالهرب من المدينة - في هذه الأثناء كان الأمير يتأهب للرحيل إلى الشمال الشرقي من اسبانيا لينفزو الفرنج ويرد إلى إمارته حدودها القديمة التي كانت تمتد إلى جبال البرانس فلما جاءه نبأ ثورة الماردين وقف عن السير وأمر والى طليطلة عبد الرءوف بن عبد السلام بالتوجه إلى ماردة لإطفاء نار الثورة فيها فلما بلغت جنوده هدموا أبنية ضواحيها ومنازل النزهة بها وأتلفوا بساكنيها فأغضب فعلهم هذا الأمير فكتب إلى عبد الرءوف يلومه وينهاه أن لا يزيد خسائر الأهلين وأنه إذا فتح المدينة لا يعامل أهلها بالقسوة، هذا وقد

(١) كندى .

(٢) انظر نص الكتاب في تاريخ رومى صحيفة ٤٤١ وما بعدها من الجزء الثالث.

استمر حصار المدينة عدة أشهر ساءت فيها أحوال المحصورين وكان من بينهم نحو أربعين ألف رجل مسلحين كان يدفعهم تلمس القوت إلى نهب بيوت الغنى والتجارة فاجتمع رؤساء المسلمين المخلصين للإمارة وقرروا فيما بينهم أن يفتحوا أبواب المدينة لجيش الأمير فبعثوا بستة من شبانهم إلى المعسكر ليعلموا القائد بالامر ويدعوه إلى الدخول فى ساعة معينة ليلا فدخل الجنود المدينة بدون معارض ولما أصبح الصباح تتبعوا العصاة فى الشوارع وقتلوا منهم سبعمائة رجل وفرقوا شمل الباقين منهم ولم يؤذوا أحداً من الأهلىن امتثالا لأمر الأمير - وبعد أيام نادوا فى المدينة بالأمان سنة ٢١٣ (٨٢٨) وقد فرّ رؤساء الثورة ومن بينهم محمود بن عبد الجبار والتجأوا إلى جليقية.

ما انتهت فتنة ماردة إلا واعقبها ثورة طليطلة وكان يسكن هذه المدينة كثير من النصارى واليهود الأغنياء الذين هم وإن كانوا خاضعين لحكومة الأمير إلا أنهم أعداء للمسلمين ويريدون أن يلقوا نير حكمهم عن عاتقهم فكانوا يحدثون الفتن والقتال لاضطراب الحكومة وزعزعة أركانها ويسرّهم حلول المصائب بها فثاروا وكان زعيم ثورتهم شاباً غنياً يهوى الانتقام يسمى هاشما كان يحرض الأهلىن على القيام على الوالى ويعطى فى سبيل ذلك كثيرا من المال إلى الفقراء حتى استمال بذلك أحرار قصر الولاية وهجم عليه هو وشيعته وقتلوا عماله ونهبوا جميع الأسلحة وكان الوالى ميسرة الفتى غائبا فى قلعة رياح فاخبر عبد الرحمن بما بلغه من أمر الثورة فأرسل الأمير ابنه أمية^(١) ومعه فرقة من الفرسان لنجدة الوالى فلم ينالا غرضاً من هاشم بل استمر عصيانه نحو تسع سنين.

فى هذا الوقت كانت مدينة ماردة هادئة لحسن ادارة واليها عبد الرؤوف فإنه كان يشغل ذوى البطالة بأعمال تكسبهم أرزاقهم ويطارد الشاردين ويقىم الشرطة والعسس لاتقاء شر اجتماع المفسدين الذين لا يرون لهم الصيد إلا فى الماء العكر

(١) وقيل: أمية بن الحكم وسأى أن الوليد بن الحكم يحاصر طليطلة أيضا

وأحراساً تحفظ المدينة من الطواريء فيبينما عبد الرءوف يوطد دعائم السلام في المدينة إذ جاءه أمر الأمير بالتوجه إلى حصار طليطلة إذ قد مرت ثلاث سنين وقادة الأمير لم يحلوا بطائل من ثائريها إلى أن جاءت سنة ٢١٧ (٨٣٢) ففيها أمكن أمية أن يحدق بهم بواسطة كمين أكمته لهم على شواطئ نهر البرش وأن يفتك بهم فتكا ذريعا حتى كاد يستأصلهم قتلا وألجأ من قدر الله نجاته منهم إلى المدينة وفي السنة التالية حضر من ماردة عبد الرءوف يقود قوة عظيمة فقاتل ثوار طليطلة وانتصر عليهم إلا أنه لم يجز ثمر انتصاره.

بعد أن فارق عبد الرءوف ماردة عاد الناقمون من الحكومة إلى الثورة ودعوا محمد بن عبد الجبار وشيعته إلى المدينة فدخلوها وهجموا على الحرس ونهبوا مخازن الأسلحة وقتلوا قائدين، ولما بلغ الأمير أمرهم أمر قواد تلك الكورة أن يحشدوا الجنود ويذهبوا إلى ماردة ثم حضر الأمير نفسه وحرسه وقابل القواد والجنود المحشودة في مكان يسمى بعين الكبوش فأمر القواد بأن ينبهوا جنودهم إلى أن من يحاربونهم هم أناس من دينهم فمن يهرب منهم أو يخضع لا يُعَدَّ عدوا فلا يُمسَّ بأذى بل يكفي نزع سلاحه منه وأن القصاص لا يحل إلا على زعماء الثورة الذين الجثوا أهل المدينة إلى حمل السلاح.

لما وصل الأمير وجنوده إلى ضاحية ماردة أراد أن لا يدخلها سافكا الدماء فأمر كل جندي أن يعلق في سهمه رقعة يكتب فيها «أن الأمير يعفو عن الثائرين إذا فتحوا أبواب المدينة ما عدا زعماء الثورة» وأن يقذفوا بالسهم إلى المدينة ففعل الجنود ما أمروا به فلما قرأ الثائرون والمخلصون للأمير هذه الرقاع فتحوا أبواب المدينة وقد فر زعماء الثورة وفيهم محمود بن عبد الجبار فدخلها بحرسه وقابله الأهلون بالفرح والسرور.

وأقام أياماً أمر فيها والى الكورة المسمى عبد الله بن كليب بإصلاح القلاع والأسوار وقد أشار بعضهم على الأمير بهدمها لئلا يعود السكان إلى العصيان فلم يكثرث الأمير بإشارته ووضع في القلعة الأصلية رقعة كتب فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اللهم هب بركتك ووقايتك أمة أطاعتك:

بَنَى هذه القلعة وأسوارها في عهد ما كان الأمير بن الحكم (أيده الله) يحكم أمة تطيع الله عامله عبد الله بن كليب بن ثعلبة وخادمه جعفر بن محسن رئيس البنائين في ربيع الثاني سنة ٢٢٠ (٨٣٥)^(١) ومع هذا ما زالت نار الحرب مستعرة في طليطلة ثلاث سنين أخرى وحصارها شديد والاثرون يدفعون عنها بشبات غريب إلى أن ألجأهم الجوع إلى الخروج من المدينة لقتال جيوش ميسرة وعبد الرءوف فسقط هاشم زعيم الثورة جريحاً فجيء به إلى عبد الرءوف فقتله في الحال ودخل المدينة سنة ٢٢٣ (٨٣٨) وأعلن الأمان العام بناء على أمر جاءه من الأمير وأخذ يصلح ما أفسدته أيدي الحداث ويوطد دعائم السلام وقد قلده الأمير ولاية المدينة ودعا ميسرة إلى قرطبة واتخذته وزيراً^(٢).

روى المؤرخون حوادث ماردة وطلطيلة بروايات مختلفة لا تخلو من التناقض.

جاء في ابن الأثير في حوادث سنة ٢١٣ أن أهل ماردة قتلوا عاملهم فشارت الفتنة عندهم فسير إليهم عبد الرحمن جيشاً فحصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعاودوا الطاعة وأخذت رهائنهم وعاد الجيش بعد أن خرب سور المدينة ثم أرسل عبد الرحمن إليهم بنقل حجارة السور إلى النهر لئلا يطمع أهلها في عمارته فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان واسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور واتقنوه فلما دخلت سنة ٢١٤ سار الأمير في جيوشه إلى ماردة ومعه رهائن أهلها فلما بارزها راسله أهلها وافتكوا رهائنهم بالعامل الذي اسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدتهم ورحل عنهم ثم سير إليهم جيشاً سنة ٢١٧ فحصرها وضيقوا عليها ودام الحصار ثم رحلوا عنها، فلما دخلت سنة ٢١٨ سير إليها جيشاً

(١) كندى ورومى.

(٢) كندى ورومى.

ففتحها وفارقها أهل الشر والفساد وكان منهم محمود بن عبد الجبار فحصره عبد الرحمن في جمع كثير من الجند وصدقوه القتال فهزموه وقتلوا كثيرا من رجاله وتبعتهم الخيل في الجبل فاقنوه قتلًا واسرا وتشريداً ومضى محمود فيمن سلم معه من أصحابه إلى (منت سالوط) فسير إليه عبد الرحمن جيشاً سنة ٢٢٠ فهرب فجدت سرية في طلبه فهزمها وغنم ما معها ومضى لوجهته وقابلته سرية أخرى فنال منها ما نال من سابقتها وسار حتى وصل إلى بلاد المشركين واستولى على قلعة لهم فأقام بها خمسة أعوام حتى حصره أذفونش ملك الفرنج (الجلالة) فملك الحصن وقتل محموداً ومن معه سنة ٢٢٥.

وفي حوادث سنة ٢١٤ أن هاشماً الضراب خالف بمدينة طليطلة وكان ممن خرج منها لما أوقع الحكم بأهلها فسار إلى قرطبة ثم عاد فاجتمع إليه أهل الشر فأغار على البربر فاشتدت شوكته واجتمع له جمع عظيم وأوقع بأهل ستبريه وكان بينه وبين البربر وقعات كثيرة فسير إليه عبد الرحمن جيشاً فقاتله فلم يستظهر أحد الفريقين على الآخر فسير إليه عبد الرحمن جيشاً كثيفاً سنة ٢١٦ فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا فاشتدت الحرب بينهم ودامت عدة أيام ثم انهزم هاشم وقتل هو وكثير ممن معه من أهل الطمع والشر وطالبي الفتن وكفى الله الناس شرهم (واستمر أهل طليطلة على الخلاف).

وفي حوادث سنة ٢١٩ أن عبد الرحمن سير جيشاً مع أمية بن الحكم إلى طليطلة فحصرها وكان أهلها قد خرجوا عن الطاعة فقطع أشجارهم وأهلك زروعهم فلم يذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم وانزل بقلعة رباح جيشاً عليهم ميسرة الفتى فلما أبعد خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون غفلة من ميسرة فينالون منه ومن أصحابه غرضاً وكان ميسرة قد بلغه الخبر فجعل الكمين في مواضع فلما وصل أهل طليطلة إلى قلعة رباح للغارة خرج الكمين عليهم من جوانبهم ووضعوا السيف فيهم واكثروا القتل وعاد من سلم منهم منهزماً إلى

طليطلة وجمعت رءوس القتلى إلى ميسرة فلما رأى كثرتها عظمت عليه وارتاع لذلك ووجد فى نفسه غما شديدا فمات بعد أيام يسيرة وفيها أيضا كان بطليطلة فتنة كبيرة تعرف بملحمة العراس قتل من أهلها كثير.

وفى حوادث ٢٢٠ «سير عبد الرحمن ملك الاندلس جيشا إلى طليطلة فقاتلوا فلم يظفروا بها».

وفى حوادث ٢٢٢ أن جماعة من أهل طليطلة خرجوا سنة ٢٢١ إلى قلعة رباح وكان بها عسكر لعبد الرحمن فاجتمعوا كلهم على حصر طليطلة وضيّقوا عليها وعلى أهلها وقطعوا عنهم باقى مرافقهم إلى أن دخلت سنة ٢٢٢ فسير عبد الرحمن أخاه الوليد، فرأى أهلها وقد بلغ بهم الجهد كل مبلغ واشتد عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال فافتتحها قهرا وعنوة يوم السبت لثمان خلون من رجب وأمر بتجديد القصر على باب الحصن الذى كان هدم أيام الحكم وأقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣ حتى استقرت قواعد أهلها وسكنوا.

وجاء فى دوزى ما ترجمته، كادت الثورات لا تنقطع فى مدينة ماردة فإن نصاراها كان بينهم وبين لويس ملك الفرنج تراسل واستمر عصيان طليطلة عدة سنين فإن الطليطليين بعد سنين قلائل منذ يوم الحفرة حصلوا على استقلالهم وهدموا قصر عمروس فاحتال الحكم على أخذ المدينة فأظهر أنه يريد غزو قطالونيا فتوجه إلى مرسية وخيم بها معسكره ولما أبلغته عيون أنه الطليطليين يظنون الآن أنهم بعيدون عن تهديد الأمير حتى إنهم يهملون إحصاء أبواب المدينة ليلا نهض مسرعا إليها حتى جاءها ودخلها وهم غافلون فملكها بدون قتال وأحرق منازل القسم المرتفع منها وكان من بين هذه المنازل منزل شاب يسمى هاشما فجاء قرطبة وهو معدم فاشتغل بالحدادة ثم عاد إلى طليطلة وفؤاده مشتعل بحب الانتقام فكون له عصابة تمكن بها من طرد جند عبد الرحمن وشيعته (٨٢٩) وأخذ يجوب البلاد ينهب ويحرق قرى العرب والبربر حتى استفحل أمره وقويت

عصابتة فأمر عبد الرحمن محمد بن بسيم محافظ الحدّ أن يجمع هؤلاء المفسدين فلم يحل بظائل منهم واستمر هاشم سنة كاملة يعثو في البلاد فسادا بدون أن يناله قصاص إلى أن جاء المدد إلى محمد ولامه الأمير على تراخيه فهاجم الأشرار وكان له الغلب عليهم بعد معركة دامت أياماً قتل فيها زعيمهم وتفرقوا ومع هذا استمرت طليطلة على استقلالها إلى أن جاءت سنة ٨٣٤ فأرسل إليها عبد الرحمن ابنه أمية فحاصرها ولكن الطليطليين نجحوا في صدّ هجماته على المدينة فاضطر إلى رفع الحصار عنها والعود إلى قرطبة، فلما رأى الطليطليون تباعد جيش العدو عنهم عزموا على أن يتحرشوا به ولكن أمية ترك في قلعة رباح جيشاً تحت إمرة ميسرة فلما علم هذا بمقصد الطليطليين أكمّن لهم كميناً فلما جاءوا أحرق بهم الكمين واثخن فيهم حتى قتل منهم كثيراً وقدم العسكر رءوس القتلى إلى قائدهم فارتاع من رؤيتها وحزن على أبناء أمته ومات بعد أيام، فإن ميسرة هذا كان من الأسبان الذين ارتدوا عن النصرانية (كهاشم).

لما اتحدت كلمة الطليطليين أمكنهم أن يحافظوا على استقلالهم بضع سنين وإن كان الأمير في خلالها أنزل بهم الكوارث فلما زال الوفاق من بينهم سهل على الأمير قنصهم، لا ندري ما الذي حصل في المدينة ولكن الحوادث التي طرأت فيها بعد حملتنا على الظن بوقوع الخلف بين مسلميها الأسبان والنصارى فإن رئيساً يسمى ابن مهاجر^(١) ترك المدينة هو وحزبه سنة ٨٣٦ قاصدين قلعة رباح لينضموا إلى قائدها ويساعدوه على فتح المدينة وانفقوا جميعاً على أن يضيقوا دائرة الحصار عليها ويمنعوا عنها الميرة، فحاصرها الوليد بن الحكم سنة حتى أضرها الجوع وجاء أهلها رسول من قبل القائد ينصحهم بأن يسلموا طوعاً ويغتموا وقتاً يخول لهم وضع شروط للتسليم وإلا عما قريب يسلمون كرها، فرفضوا وعاد

(١) يظهر أنه من الفريق الأول.

الرسول وأخبر الوليد بضعفهم وحالتهم السيئة وأعجله على الهجوم عليهم بشدة فهاجم فسقطت المدينة في ١٦ يونيو سنة ٨٣٧ بعد أن استقلت نحو ثمانى سنين. يؤخذ من رومى أنه بعد أخذ طليطلة بقليل أخذ العرب يقاتلون نصارى الشمال فإن هؤلاء آووا العاصى محمد بن عبد الجبار عند نكبته الأولى وربما مدّوا إليه يد المساعدة فى ثورة ماردة الأخيرة، فكان هذا سببا فى الحرب فقد أغار جنود ماردة وبطليوس واشبون (لسبونة) سنة ٨٣٨ على أرض جليقية وحاربوا ملكها أذفونش فكان الفوز لهم وقيل كان الفوز له^(١) ومهما يكن من الأمر فإن محمد بن عبد الجبار فرّ من انتقام عبد الرحمن فأواه أذفونش واسكنه ورفقاه جليقية فى أرض قريبة من مدينة (لوغو LUGO) فما كان من النزيل بعد إقامته ثمانى سنين إلا أن رأى فى استطاعته أن يشور على من أكرم مثواه ويؤسس إمارة مستقلة فى جليقية، وأما التحالف السرى الذى يتوهم حصوله بين عبد الرحمن وابن عبد الجبار على أذفونش فيجب أن يدرج فى عداد الخرافات التاريخية التى كثرت فى التواريخ الاسبانية الجديدة، فابتدأ ابن عبد الجبار منازعته بالاستيلاء على قصر (سنت كرسيتين SAINTECHRISTINE) على بعد فرسخين من لوغو وتحصن فيه وكان يأمل أن يكون حصنا يستطيع منه أن يستولى على البلاد - هنا يغالى المؤرخون الاسبانىون فى عدد جيشه فيقولون: إنه يبلغ ٥٠ ألفا ويقصون علينا مع العجب انتصار أذفونش على هذا العدد الكثير والذى يظهر أنه حقيقى (أن أذفونش لما بلغه قيام ابن عبد الجبار جاءه وهاجمه وغلّبه وقتله واستولى على حصنه).

وفى هذه الاثناء ابتدأت الحرب فى إقليم (قوطيه GOTHIE) الشامل أرض سبتمانيا وكورة برشلونه وقد ساعدت الظروف جيش الأمير فانتصر وذلك أنه فى سنة ٢٢٤' (٨٣٨) أمر الأمير عبد الرحمن والى سرقسطة أن يجمع الجنود من

(١) فى كندى أن أهل ماردة وبطليوس واشبون خربوا مدائن جليقية وحاربوا ملكها أذفونش.

اسبانيا الشرقية ويسرع بها إلى أرض الفرنج فشن عبيد الله بن عبد الله البلنسى^(١) وابن عبد الكريم الغارات على هذا الإقليم مدة ستين بجيوش جرارة، وأغار موسى وإلى تطيلة على سردانيا وأنزل بها النواذب، وقامت سفن عربية من طرجونه وأمدتها سفن أخرى خرجت من موانئ جزائر (ميورقه) واتجهت كلها إلى شواطئ (مرسليا) ونهبت ضواحيها واستولت على كثير من خيراتها وأسرت كثيرا من أهلها^(٢)، في هذا الوقت جاء قرطبة من القسطنطينية سفراء من قبل ملك الروم (تيوفيل THÉOPHILE) يطلبون المساعدة على المعتصم خليفة الشرق فاستقبلهم الأمير بصدر رحيب وأكرم مثواهم وكتب إلى الملك يخبره أنه متى خلص من الحروب الداخلية يرسل إليه سفنه لتساعده ثم غمرهم بالعطايا وصرفهم. يذكر مؤرخو الإفرنج أن وفدا جاء قبيل ذلك الزمن من قبل المأمون إلى لويس ملك الفرنج بهدية من المنسوجات والعطور.

وفي سنة ٨٤٠ للميلاد مات لويس ملك الإفرنج في المانيا وعقب موته انفجر الشجار بين ولديه (بين PEPIN) و (كرلوس CHARLES) ويظهر أن كونت برشلونه المسمى (برنار) دخل في حزب الأول سرّاً وساعده على أن يستقل في إمارته عن أخيه، وقد علم هذا بذلك فدعا (الكونت) إليه بعد أن عقد الجمعية العمومية في (طلوشه) وقتله بيده^(٣) فقام غليوم بن برنار ليتقم من قاتل والده وكان له حزب كبير فهجم أولاً على (ألدرا ALDERAM) كونت برشلونه الذي عينه الملك خلف أبيه ولتحقق من نجاح ثورته دعا أمير قرطبة إلى مساعدته وكان يقاقل باسم (بين) المعزول فلبى الأمير دعوته وثار (البشكنس) على كرلوس

(١) يظهر أنه ابن البلنسى كان وإلى سرقطة.

(٢) يظهر أن الغرض من هذه الحروب كان يرمى إلى كسب الأموال أكثر من فتح البلاد فإن الضرورة كانت تدفع العرب من وقت إلى آخر في ظروف معينة إلى أن يتخروا التفقات لقتال أعدائهم المجاورين.

(٣) انظر رومي صحيفة ٤٧٣ ج ٣.

أيضا فاتقدت نيران الثورات بين برشلونه وبنبلونه (أى فى إقليم قطلونيا) فى السنة الخامسة والأربعين من القرن التاسع الميلادى وجاءت جيوش الأمير بناء على دعوة غليوم ودخلت فى غمار هذه الثورات التى استمرت إلى سنة ٨٤٧ فإن الصلح عقد فى هذه السنة بين الملك كرلوس والأمير عبد الرحمن واعقب ذلك خمود نار القتال، ومع هذا قد استولى غليوم على برشلونه وأميرياس سنة ٨٤٨ ولكن لم تدم مدة حكمه فإن أحزاب (الدرايم) قاموا فى السنة التالية على غليوم وقتلوه وأعادوا الولاية إلى زعيمهم.

قلنا إن جيوش الأمير دخلت فى غمار الثورات فى قطلونيا ولزيادة البيان نقول: إن جيشين من المسلمين اجتازا نهر (ابره) أحدهما تحت قيادة والى سرقسطة ابن البنسى وقد أغار على الأقاليم السفلى من جبال البرانس واستولى على قلاع كثيرة والآخر تحت إمرة عبد الكريم وقد اتجه نحو برشلونه وأحرق بها وكان بها كثير من اليهود فساعدوا الجيش على تسليمها واقتفى الجيشان آثار أعدائهما فى مضائق الجبال حتى أرض الفرنج قال رومى: ما كان يتوقع أن تخرج برشلونه من قبضة المسلمين بعد هذه المرة: ولكن دل تاريخ الفرنج فيما بعد على أنها عادت إلى حكمهم.

واقول: يظهر أن السياسة قضت على الأمير عبد الرحمن بأن يقبل مخالفة غليوم على أن يكون هذا والى برشلونه تابعا لإمارة الاندلس وأن المسلمين بعد أخذها هذه المرة سلموا مقاليدها لحليفهم وأن الصلح بين العرب والفرنج عقد على ذلك، لكن كرلوس أوعز إلى حزب (الدرايم) أن يقتلوا غليوم ويستردوا المدينة ونشأ عن هذا فسخ عقد الصلح بين العرب والفرنج سنة ٨٥٠ (٢٣٦) قال ابن الأثير فى حوادث ٢٣٦: «غزا جيش بالاندلس بلاد برشلونه فقتلوا من أهلها فأكثروا واسروا جمعا غفيرا وغنموا وعادوا سالمين».

وفى أثناء ما كانت رحى الحرب دائرة فى إقليم (قوطية) كان اسطول الأمير

يجدد غاراته على ولاية (فرنسا PROVENCE)^(١) فنهب وأحرق ضواحي مرسلية الجنوبية ويظهر أنه اكتفى بذلك بدون أن يحتل البلاد التي دخلها، ارتجفت أوروبا من فوز جنود العرب في إقليم (قوطية) ومن نجاح اساطيلهم في غاراتها على جزائر وشواطئ (الغال) الجنوبية وقد اتسعت دائرة هذه الاساطيل في تلك الأيام وكثر الخوف من اعتدائها، فاخترق بعضها غير مرة بحر الادرياتيك وبحر الشاك واجترأت إحدى سفائنهم مرة على اجتياز رأس (كورونيه COROGNE)^(٢) وشقت عباب المحيط المظلم حتى دخلت جزيرة (أوية OYE) من برطانيه عند مصب نهر اللوار وهددتها وما تقهقرت إلا من فزع لا يعلم سببه فينتج من ذلك أن مسلمي الاندلس كان لهم السيادة على البحر المتوسط^(٣).

ساقطنا حوادث العرب والفرنج إلى سنة ٨٥٠ ولكن نرجع إلى الوراء لنذكر ما فاتنا من الحوادث الأخرى فنقول:

في سنة ٢٢٩ (٨٤٣) جاء على شواطئ اشبونه أربع وخمسون سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين جاءوا من البلطيق وشواطئ النروج يعرفون عند الاوروبيين بالنورمان NORMANS OU NORMANDS OU NORTHMEN أى رجال الشمال ويعرفون عند العرب بالماجوج^(٤)، وكتب التاريخ العربية في هذا الموضع تحرف اللفظ إلى (مجوس)^(٥) فنهبوا البلاد وقتلوا العباد وأحرقوا المدائن فاجتمع المسلمون وحملوا السلاح وجاءوا ليدفعوا غائلتهم فأروهم ركبوا السفن بغنائمهم واختفوا ثم نزلوا في شاطئ (الغرب ALGARVE) ويظهر أنهم لما اجتمعوا عند

(١) بروفنسا ولاية قديمة في الجنوب الشرقي لفرنسا حاصرتها (اكس AIX).

(٢) في الشمال الغربي من اسبانيا.

(٣) رومي ص ٤٧٧ و ٤٧٨ ج ٣.

(٤) جاء في كتب التفسير أن بعض أحبار اليهود ذكر أن يأجوج ومأجوج في منتهى الشمال حيث لا يستطيع أحد غيرهم السكنى فيه.

(٥) يبعد أن يكون المراد عبدة النار.

مصّب النهر الكبير انقسموا أقساماً: قسم توجه إلى أفريقية وقسم تقدم إلى قّادس ثم إلى شدونة والقسم الثالث دخل النهر وصعد نحو اشبيلية في ٨ المحرم سنة ٢٣٠ (٢٥ سبتمبر سنة ٨٤٤) وكانوا ينبهون القرى التي على الشاطئين ويمثلون سفنهم بالنهاب، وقد ملئوا سكان الشواطئ رعباً حتى فرّوا من وجوههم، ولما وصلوا إلى جزيرة قبّطيل^(١) قابلتهم جنود العرب المجتمعة هناك وحاربتهم فغلبوها ثم نهبوا اشبيلية وكان السكان قد اخلوها وفرّوا إلى قرمونه وتحصنوا في طليطلة^(٢) فلما جاء الماّجوج إليهم غلبهم مسلمو هذه المدينة وفي ثاني عشر هذا الشهر علموا أن الأمير أرسل خمس عشرة سفينة تقلّ جيوشاً شجعاناً لتصدّهم عن المرور في النهر، فانسحبوا واختفوا في المحيط وعادوا إلى شواطئ المغرب وقد أمر عبد الرحمن جنود ماردة وشتيرين وقلّمرية بالتوجه لمراقبتهم والمحافظة على السواحل، ولكنهم كانوا فعلوا أفاعيلهم قبل أن تجتمع هذه الجنود.

في هذه الأثناء أخذ عبد الرحمن في السير ونحت إمّرتة فرسانه ليساعدوا اشبيلية فلما حضر وشاهد ما اتلفته أيدي هؤلاء البربر المتوحشين بدون أن يقابل منهم أحداً حزن وأمر بإصلاح الفاسد ورتق فتوق التلف (كذا يؤخذ من كندى ورومى).

وفي تاريخ ابن الأثير أن عسكر الأمير قاتلوهم وقتلوا منهم سبعين رجلاً وهزموهم حتى دخلوا مراكبهم وسير الأمير جيشاً آخر وأتاه المدد من كل ناحية فخرج إليهم المجوس وقاتلوهم فكاد المسلمون يهزمون ثم ثبتوا وهزموا مقاتليهم إلى مراكبهم وقتلوا منهم خمس مائة رجل وأخذوا منهم أربعة مراكب وأحرقوها بعد أن أخذوا ما فيها، ثم خرج المجوس إلى لبّلة فأصابوا سبياً ثم نزلوا جزيرة قوريس (قورة) قسموا ما كان معهم من الغنيمة فحمى المسلمون ودخلوا

(١) هكذا اللفظ في تاريخ ابن عذارى وفي التواريخ الأفرنجية CABTAL.

(٢) في معجم ياقوت طليطلة ناحية بالاندلس من أعمال استجة قرية من قرطبة.

إليهم فى النهر وقتلوا منهم رجلين ثم رحل المجوس فطرقوا شدونهم فغنموا أطعمة وسبيا ثم وصلت مراكب عبد الرحمن إلى اشبيلية فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبله فأغاروا وسبوا ثم لحقوا باكشونيه ثم مضوا إلى باجه ثم انتقلوا إلى اشبونهم ثم ساروا وانقطع خبرهم عن البلاد. اهـ.

واتقاء بما يطرأ من قبيل هذه الحوادث أمر الأمير بإنشاء سفائن فى قادس وقرطاجنه وطرجهونه لتحفظ الشواطئ وناط ذلك بآبنة يعقوب وأمر أن ينشأ فى كل نقطة حربية محل للبريد يرأسه قائد ويتبعه فرسان ينقلون أوامر ومراسيم الحكومة بسرعة.

وجاء فى المقرئ وابن عذارى أن الأمير بعث فى سنة ٢٣١ عساكره تحت أمرة ابنه محمد إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب أهلها فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً فثلّموا منه ثلثة ورجعوا.

وجاء فى المقرئ أن الأمير اغزى حاجبه عبد الكريم فى العساكر إلى بلاد برشلونه فعاث فى نواحيها واجتاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فدوخها قتلاً واسراً وسبياً وحاصر مدينتها العظمى جرنده وعاث فى نواحيها وقفل^(١).

وفى سنة ٢٣٢ أصاب الاندلس جندب عقم أرضها عن إنبات القمح والشعير وأبىس الكروم والأشجار المثمرة وأهلك الناس والدواب ظمأً وفوق ذلك البلاء المبين حلّ بأرضها جراد، جردها من الزرع فاشتدت المجاعة وحتى اضطرت عدداً عظيمًا من الاندلسيين أن يهاجروا إلى أفريقية فإن وسق^(٢) الحنطة كان يباع

(١) هذه الغزوة هى عين الغزوة التى وقعت عقب دعوة غليوم للأمير عبد الرحمن كما سبق فإن سنة ٢٣١ توافق ٨٤٥ هـ فتنه.

(٢) الوسق حمل بعير وقيل: ستون صاعاً.

فى المغرب بثلاثة دراهم ودام هذا الحال إلى السنة التالية حتى اعفى الأمير الناس من العشور التى كانوا يؤدونها كل سنة وفتح للفقراء أبواب العمل والكسب ليقتاتوا من أجورهم، فقد شغلهم ببناء مساجد ومدارس وقصور وحدائق فى مدائن اسبانيا وبيناء رصيف النهر فى قرطبة وبإنشاء حياض ماء ممرية فوقه للسقاية وبعمل سقائف فوق الرصيف وبوضع أنابيب رصاص ليجرى فيها الماء من الجبال إلى المدن^(١)، وغير ذلك من الأعمال النافعة وقد بلغت قرطبة فى عهد عبد الرحمن مبلغا من الحضارة والعظمة لم يعهد من قبل.

وفى سنة ٢٣٤ وجّه الأمير ثلاثمائة سفينة نقل الجنود إلى غزو أهل جزيرة ميورقة لنقضهم العهد واضرارهم بسفن المسلمين التى كانت تمر بهم ففتحوا أكثر جزائرها^(٢).

وفى سنة ٢٣٥ ورد إلى الأمير كتاب من أهل ميورقة ومنورقة يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين فكتب إليهم كتابا منه: (أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم وإصابتهم ما أصابوه منكم من أرزاقكم وأموالكم والمبلغ الذى بلغوه فيكم وما أشقيتم عليه من الهلاك وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكروهم والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ويمنعكم عن العود إلى مثل الذى كنتم عليه وقد أعطيناكم عهد الله وذمته^(٣)).

وفى سنة ٨٥٠ للميلاد مات (رامير)^(٤) ملك استوريا وخلفه ابنه (اردن) ولم يحدث موته انقلابا فى سياسة الصلح الذى كان بين المسلمين ونصارى الشمال.

(١) كندى.

(٢) كندى.

(٣) كندى.

(٤) رومى ويسميه ابن الأثير ردمير.

وفى سنة ٢٣٧ ادعى النبوة رجل من المعلمين بشرق الاندلس وتأول القرآن على غير تأويله فتبعه فريق من الغوغاء وكان من شرائعه النهى عن قص الشعر وتقليم الأظافر فبعث إليه يحيى بن خالد عامل ذلك البلد فأتى به وكان أول ما خاطبه به أن دعاه إلى اتباعه فأمره العامل بالتوبة فامتنع فصلبه^(١).

وفى سنة ٢٣٨ توفى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر^(٢) فتكون مدة حكمه إحدى وثلاثين سنة قمرية وثلاث أشهر وستة أيام.

ذنابات:

الأولى: يصفه بعض المؤرخين بأنه كان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب الماء إليها، وجعل له مصنعا اتخذه الناس شريعة وزاد فى جامع قرطبة رواقين ومات قبل أن يتمه فاتمه ابنه محمد بعده وبنى بالاندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة.

الثانية: ذكر بعضهم أن وزراءه كانوا تسعة رزق كل واحد منهم ثلاثمائة دينار كل شهر وقضائه أحد عشر وأن عدد أولاده بلغ ٤٥ من الذكور و٤١ من الإناث وأن مال الجباية انتهى فى أيامه إلى ألف ألف فى السنة وكان قبل لا يزيد عن ستمائة

(١) عن ابن الأثير وابن عذارى.

(٢) اتفق ابن الأثير وابن خلدون والمقرئ وابن عذارى على أن وفاة عبد الرحمن بن الحكم فى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ وعين الأخير ليلة الوفاة وزاد المقرئ أن مولده بظليطة فى شعبان سنة ١٧٦ فعلى هذا لم يتم السنة الثانية والستين ويقول كندى ورومى: إنه مات فى آخر يوم من صفر سنة ٢٣٨ (١٩) أغسطس سنة ٨٥٢ وأنه عاش ٦٥ سنة وثلاثة أشهر (يقول كندى ٣ أيام ورومى ٦ أيام) ويقول كندى: إن مدة حكمه ٣١ سنة و٣ أشهر و٦ أيام ويقول رومى: إن هذه المدة تتجاوز ٣١ سنة بقليل وكلاهما هنا لا يلتزم مع ما سبق لهما من أن عبد الرحمن يوم التولية كان ابن ٣١ سنة و٣ أشهر و٦ أيام كما لا يخفى على الحاسب.

ألف^(١) وكان يجتمع في مجلسه العلماء والشعراء ويفضل من بينهم عبد الله بن شمر ويحيى الغزال الذي سافر إلى القسطنطينية واختلط بملوك الروم وعرف عاداتهم وآدابهم.

الثالثة: ممن كان له حظوة وجاه عند الأمير عبد الرحمن الفقيه يحيى بن يحيى الليثي والمغنى على بن نافع الملقب بزرياب والأميرة طروب ونصر الخصى. فالفقيه يحيى رجل من الاندلس إلى الشرق وروى الموطأ عن مالك بن أنس يحكى أنه بينما هو في مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل: حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى فقال له مالك: مالك لم تخرج وليس الفيل في بلادك فقال: إنما جئت من الاندلس لأنظر إليك وأتلم من هديك وعلمك ولم أكن لأنظر الفيل، فأعجب به مالك وقال هذا عاقل الاندلس. ولما عاد إلى الاندلس نشر مذهب مالك في تلك الديار وكان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلى قاض في أقطار الاندلس إلا بمشورته واختياره على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زيدا في جلالته وكان ممن اتهم بالتهيج في وقعة الربض المشهورة ففر إلى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير أمانا وانصرف إلى قرطبة وعاش في زمن إمارة عبد الرحمن إلى أن مات سنة ٢٣٤.

والمغنى زرياب وفد على الاندلس من الشرق وكان تلميذا لإسحاق الموصلى ببغداد ويحكى أن الرشيد طلب من إسحاق مغنيا غريبا مجيدا للصنعة فذكر له تلميذه هذا وقال: إنه مولى لكم وسمعت له نزعات حسنة ونغمات رائقة ملشاة بالنفس وأحدس أن يكون له شأن، فقال الرشيد هذا طلبى فأحضرنيه فأحضره فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم أحسن منه ما يحسنه الناس وأكثر ما أحسنه لا

(١) هذا لا يخلو من نظر فحقق.

يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه
إذن قبلك فأمره بالغناء فأخذ العود وغناه.

يأيها الملك الميمون طائره

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأنتم النوبة وطار الرشيد طربا وهاج إسحاق من داء الحسد ما غلب على صبره
فخلا بزرياب بعد الانصراف من مجلس الخليفة وقال: يا على إن الحسد أقدم
الأدواء وأدواها والدنيا فتانة والشركة في الصناعة عداوة وقد مكرت بي فيما
انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك وعن قليل تسقط منزلتي وترتقى أنت فوقى
وهذا ما لا أصاحبك عليه فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما إما أن تذهب عنى فى
الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره -
وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا إلىّ فخذ الآن حذرک منى فلست والله
أبقى عليك ولا ادع اغتيالک باذلا فى ذلك بدنى ومالى فاقض قضاءك - فاختر
زرياب الرحيل وأعانه إسحاق على ذلك سريعا وراش جناحه فرحل ومضى إلى
المغرب - وأمّ أمير الأندلس الحكم وكتب إليه يسأله الإذن فى الوصول إليه
ويعلمه بمكانه من الصناعة، فسر الحكم بكتابہ وأرسل فى طلبه فسار زرياب نحوه
بعماله وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء فلم يزل بها حتى توالى عليه
الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع إلى العدو فكان معه منصور اليهودى المغنى
رسول الحكم إليه فشاه عن ذلك ورغبه فى قصد القائم مقام الحكم وهو عبد
الرحمن ولده وكتب إلى هذا بخبر زرياب فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه
إليه والسرور بقدمه عليه وكتب إلى عمّاله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه
إلى قرطبة وأمر خصيّا من أكبر خصيائه أن يتلقاه ببغال وآلات حسنة، فدخل هو
وأهله البلد ليلا وانزله فى دار من أحسن الدور وحمل إليها جميع ما تحتاج إليه
وبعد ثلاثة أيام استدعاه وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتباً وأن يجرى على

بنية الأربعة عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار منها لكل عيد ألف دينار ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مَدَى^(١) ثلاثاً شعير وثلاثها قمح وأقطع من دور قرطبة وبساتينها وضياعها ما يقوم بأربعين ألف دينار.

ثم استدعاه وسمع غناؤه فاستهواه واطرح كل غناء سواه وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء فحرك منه بحراً زخر عليه مدة فأعجب الأمير به وراقه ما أورده وكان زرياب عالماً بالنجوم وتقويم البلدان حافظاً لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بالحنانها.

وقد جمع إلى خصاله هذه كثيراً من ضروب الظروف وفنون الأدب ولطف المعاشرة وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يحوه أحد من أهل صناعته حتى اتخذته ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جُمَّتَه مفروقاً وسط الجبين عاماً للصدغين والحاجبين، فلما عاينوا تحديقته هو وولده ونساؤه لشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها إلى آذانهم واسدالها إلى اصداغهم هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه، وهو أول من اجتنى بقلّة الهليون المسماة بلسانهم الاسفراج ASPERGE ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله، واخترع لهم بعض ألوان من الأطعمة لا تزال منسوبة إليه ومما أخذه عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة وإيثاره فرش انطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان واختياره سُفَر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة ولبسه كل صنف من الشيايب في زمانه الذي يليق به وخلف أولاداً فخلفه كبيرهم في صناعته وحظوته.

(١) المدى كقفل مكيال يسع تسعة عشر صاعاً وهو غير المد الذي هو ربع صاع.

وأما الأميرة طروب فهي إحدى حظيات الأمير وكان يحبها حباً جما يحكى أنه أغضبها فهجرته ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها وجهد أن يرضاها بكل وجه فأعياء ذلك، فأمر بسد باب المقصورة من خارجه بيدر المال وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أن لها جميع ما سدد به الباب فأجابته وفتحته فانهالت البدر في بيتها واكبت على رجل الأمير تقبلها وحازت المال^(١).

وأما نصر الخصى فكان اسبانياً قائماً بشئون القصر (على ما يظهر) يحكى أن طروب أرادت أن يخلص ملك اسبانيا لابنها عبد الله بعد أبيه الأمير عبد الرحمن مع أن ابنه محمداً كان ولى عهده، فأطلعت نصرًا على سرها فوعدها بما يشفى فؤادها ونوى أن يسم الأمير وولى عهده وطلب من الطيب أن يدس السم في دواء يطلبه الأمير ويعطيه ألف دينار ففعل، ولكنه أوعز إلى السلطان مع قهرمانه القصر ألا يشرب الدواء فإن نصراً أكرهه على اذابة السم فيه وياكر نصر القصر ودخل على سيده يستفهمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه وقال له: إن نفسى قد بشعته فاشربه أنت فوجم فأقسم عليه فلم تسعه مخالفته فشربه وركب مسرعاً إلى داره فهلك لحينه^(٢) سنة ٢٣٦.

٥- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم:

من سنة ٢٣٨ إلى ٢٧٣ (DE 852 A 886)

بعد وفاة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم خلفه ابنه محمد أبو عبد الله، بويع يوم الخميس لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ للهجرة^(٣) وكان ابن ثلاثين

(١) المقرئ.

(٢) ابن خلدون.

(٣) ابن عذارى ويؤيد هذا ما سبق من أن وفاة عبد الرحمن ابن الحكم كانت ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ ويقول كندى ورومى: أعلنت إمارته في قرطبة في اليوم السادس من ربيع الأول ٢٦ أغسطس سنة ٨٥٢.

سنة وأشهر، وكان الناس يأملون في حكمه مستقبلا سعيدا لما امتاز به من الخلال الحميدة، فقد تحلى منذ نشأته بالعدل والإنسانية والشجاعة مع استعداد فائق وعلم واسع مكتسب^(١)، في الأشهر الأولى من حكمه قام نزاع بين فقهاء قرطبة والحافظ أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فإنه كان تلقى في المشرق مذهب الإمام أحمد بن حنبل على أشهر علمائه، ولما قدم الأندلس علم في جامع قرطبة مصنف أبي بكر بن أبي شيبة في أصول المذهب فقام عليه مدرسو مذهب مالك الذي كان كثير الانتشار في اسبانيا وشكوا منه إلى الأمير فاستحضرهم وإياه وتناظروا في حضرته فحكم بأن الفروق في المذهب الحنبلي لا تخالف روح الشريعة ولا تغاير السنة بل إن فيه أصولا شريفة نافعة لها مساس بحوادث الإنسان في ذلك الزمان ونهى الأمير خصوم بقي عن أن يتعرضوا له وأذن بتعليم مذهبه فمن ذلك الوقت أخذت تتسع دائرة مذهب أحمد بن حنبل^(٢).

في سنة ولايته ثار عليه أهل طليطلة وحبسوا العامل عندهم حتى أطلقت رهائنهم من قرطبة فاطلقوه وفي السنة التالية (٢٣٩) بعث العساكر مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح وكان أهل طليطلة خربوا سورها وقتلوا كثيرا من أهلها فرم السور وأصلح حال القلعة ورد إليها من هجرها وتقدم إلى طليطلة فعاث في نواحيها

(١) كندى.

(٢) كندى وروى وجاء في نفع الطيب (ج ٢ ص ٥٨٩) ما ملخصه:

ارتحل من الأندلس إلى المشرق بقي بن مخلد أبو عبد الله القرطبي وأخذ العلم من كبار العلماء وعنى بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وكان إماما حافظا صادقا قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفشى بالأثر قال ابن حزم: إنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره ابن جرير ولا غيره وكان محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقي بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشموه وقام جماعة من العامة عليه ومنعته من قراءته فاستحضره الأمير وإياهم وتصفح الكتاب جزءا جزءا حتى أتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هذا لا تستغنى عنه خزانتنا فانظر في نسخته لنا وقال لبقى انشر علمك وارو ما عندك ونهاهم عن أن يتعرضوا له - ولد بقي في رمضان سنة ٢٠١ وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦هـ.

وسير الأمير جيشاً^(١) آخر إلى طليطلة فلما قاربها خرجت عليه الجنود من المكامن فانهزم وأصيب أكثر من فيه فسار الأمير بنفسه في المحرم سنة ٢٤٠ في جيوشه إلى طليطلة فاستمد أهلها ملك جليقية وملك البشكنس فأمداهم بجيوش كثيرة.

فلما بلغ الأمير ذلك وكان قد قارب طليطلة أعمل الحيلة فأكمن لهم الجيوش في وادي سليط وتقدم إليهم في عدد قليل من الجند فاعلم أهل طليطلة الفرنج بقلعة عدد المسلمين فسارعوا إلى قتالهم وطمعوا فيهم فلما تراءى الجمعان وانتشب القتال خرج الكمناء من كل جانب وأوقعوا باعدائهم حتى بلغ عدد القتلى من الفرنج والطلبيليين عشرين ألفاً.

وفي سنة ٢٤١ أكثر الأمير من الرجال بقلعة رباح ليقفوا على أهل طليطلة^(٢) وبعث الجيوش مع موسى صاحب تطيله^(٣) فعاثوا في نواحي البه والقلاع وفتحوا بعض حصونها وعادوا^(٤).

وفي سنة ٢٤٢ بعث جيشاً إلى برشلونه فدخلها وحارب قلاعها وجاوزها إلى ما وراء أعمالها فغنم كثيراً وفتح حصن طراجة وهو من آخر حصون برشلونه^(٥).

وفي سنة ٢٤٣ خرج أهل طليطلة يجمعهم إلى طلبيرة وعليها مسعود بن عبد الله العريف فقاتلهم حتى هزمهم وقتل أكثرهم وحمل إلى قرطبة سبعمائة رأس^(٦).

وفي سنة ٢٤٤ خرج الأمير بنفسه إلى طليطلة فكان للطلبيليين واقعة هائلة

(١) يؤخذ من ابن عذاري أن قائد هذا الجيش قاسم بن العباس وتمام بن أبي العطاء صاحب الخيل وقائد جيش طليطلة (شندلة) وأن هذه الواقعة كانت في شوال.

(٢) ابن الأثير وفي ابن عذاري أن الأمير شحن قلعة رباح وطلبيرة بالحشم ورتب فيها الفرسان وترك فيها عاملاً حرث بن يزيع.

(٣) ابن خلدون.

(٤) ابن الأثير.

(٥) ابن الأثير وفي ابن عذاري أن الأمير كتب إلى موسى بن موسى بحشد الثغور والدخول إلى برشلونه فغزا إليها واحتل بها وافتتح حصن طراجة وهو من آخر أحوار برشلونه.

(٦) ابن الأثير.

على قنطرة نهر تاجه إذ اجتمعوا عليها وكانت قد أخلت ولم يشعروا فسقطت بهم ففرقوا في النهر عن آخرهم^(١).

وفي سنة ٢٤٥ دعا أهل طليطلة الأمير إلى الأمان فعقده لهم^(٢) كذا يؤخذ من التواريخ العربية.

ويؤخذ من دوزي أن تمسك السلطان محمد بدينه كان يدفعه إلى اضطهاد نصارى قرطبة وأنه لما بلغ أهل طليطلة نبأ هذا الاضطهاد^(٣) تأهبوا للقتال تحت إمرة (سندله SINDOLA) ولخوفهم على حياة رهائنهم في قرطبة قبضوا على المحافظ وأعلموا السلطان (أنه إذا رغب في الإبقاء على حياة المحافظ فعليه أن يرد إليهم الرهائن) ففعل وهم أطلقوا سبيل المحافظ، ولكن شهرت الحرب وحمل الخوف من الطليطليين حامية قلعة رباح على إخلالها فجاءوا إليها وهدموا أسوارها لكن السلطان بعث بالجنود فرموا الأسوار (٨٥٣) ثم أمر بتسيير قائدين إلى طليطلة لكن الطليطليين بعد أن مروا من مضائق (جبال مرنه SIERRAMAR- NA) للقاء عدوهم أسرعوا في الهجوم عليه بالقرب من (اندوچر ANDUJAR) فهزموه واستولوا على معسكره - قرب هذه الهزيمة من اندوچر هدد قرطبة فجمع الأمير جنوده وقادهم بنفسه إلى طليطلة في يونيو سنة ٨٥٤ فبعث سندله يستنجد بملك ليون أردن الأول فأمدهم بمدد عظيم تحت إمرة (غثون كند بيرزو GATON CONTE DU BEIRZO) فترع هذا المدد من محمد أمل الفوز فأكمن معظم جيشه خلف الصخور التي يجري بعينها نهر سليط وسار إلى المدينة في عدد قليل ووجه

(١) يقول دوزي بعد أن شغل السلطان القنطرة بجيوشه أخذ مهندسوه يخلون دعائمها بدون أن يراهم الطليطليون فلما كاد المهندسون يتهون من أعمالهم أمر عساكره أن يتحققروا عنها فافتقوا آثارهم عساكر طليطلة فلما حلوا فوقها انهارت بهم في الحال ففرقوا في نهر تاجه.

(٢) ابن عذارى.

(٣) لم أر في التواريخ العربية ولا في كندى ولا في رومي أثرا لاضطهاد الأمير نصارى قرطبة فمن أين جاء دوزي نبأ هذا الاضطهاد ومن التناقض مدح كندى الأمير محمدا وذم دوزي إياه.

آلاته الحربية نحو جدرانها، فلما رأى الطليطيون قلة العدد الهاجم دعوا غثون^(١) إلى الخروج فخرج مسرعا يقود جيشه وجيش الطليطيين وهجم على جند محمد فأخذ الجند في الفرار جارا وراءه اعداءه نحو الكمين حتى ظهرت عليهم الجنود الكامنة وأبادت معظمهم وقطعت من رؤوس القتلى ثمانية آلاف ووضعتها كرامة وصعدت عليها. اهـ.

ويؤخذ من رومي وكندى أن الأمير محمدا كان ذا حمية عظيمة في الدين لكنها ما كانت تطفئ منه كل نور وكل تسامح وقد دفعته هذه الحمية في صدر ملكه إلى نشر الإسلام في حدود اسبانيا كي يصد عن مملكته هجمات أهل الحدود فأمر ولاية ماردة^(٢) وسرقسطة بجمع الجنود وغزو بلاد الفرنك ونصارى جليقية فاجتاز المسلمون جبال البرانس الشرقية وتوغلوا في البلاد إلى إقليم نربونة وغنموا غنائم واسعة واسروا أسرى كثيرة وفرقوا شمل السكان شذر مذر لكنهم لما حاربوا نصارى جليقية كانت الحرب سجالا بين الفريقين وآل الأمر إلى أن هزم ملك استوريا (أردن) الوالى موسى بن زياد ZEIAD بالقرب من القلعة البيضاء حتى أخذها منه^(٣)، لما جاء نبأ هزيمة المسلمين واستيلاء النصارى على القلعة البيضاء إلى قرطبة كان له وقع سيئ لدى الدولة الأموية واتخذ أعداء موسى هزيمته فرصة للوشاية فيه لدى الأمير واتهامه بالارتشاء فعزله من ولاية سرقسطة^(٤) وعزل ابنه لوبيا^(٥) من ولاية طليطلة.

(١) فى ابن عذارى أن غثون أخو أردن بن أذفونش صاحب جليقية.

(٢) لعلها لاردة فإن هذه هى القرية من سرقسطة.

(٣) يقول رومي: إن موسى كان قوطيا واسلم طمعا فى الترقى فقطع فى طريقه شوطا بعيدا فى عهد الأمير السابق فلذلك كثر اعداؤه ولما رأوا كدر الأمير من سقوط القلعة اتهموا موسى بالخيانة ووشوا به لديه قائلين فيه «ذمى مغلوب ابن نصارى خدعه ملك النصارى وحالفه ورشاه» وكان العرب يطلقون اسم الذمى على كل من كان من أصل أجنبى.

(٤) يؤخذ من كندى ورومي أن موسى كان والى سرقسطة وأن اسمه موسى ابن زياد وابن خلدون يقول: إنه كان والى طليطلة واسمه موسى بن موسى.

(٥) كذا بسميه رومي هنا ويسميه فى الآتى لوبوس.

نشأ من هذا العزل أن حالف موسى وابنه نصارى استوريا أو جليقية ونصارى نفارة والبشكنس وكذا حالفا بعض العرب على أن يحفظوا استقلالهم ورفعوا لواء العصيان ودخلت المدائن سرقسطة وتطيله ووشقه وطليلة في حزبهما، ومع هذا لم يدخل في محالفتهم ملوك الفرنك الذين هم خلف جبال البرانس فأخذ موسى بوجه جيوشه لقتالهم فاجتازوا الجبال وأغاروا على أقاليم الغال وأخذ ابنه (لوپوس) يرتب معدات الدفاع عن طليطة، وقد زحف عليها الأمير محمد مدبرا مكيدة معروفة ولكنه نجح بها، أخفى جلّ جيشه في غابة كثيفة مظلمة ليست بعيدة عن طليطة وأقبل على المدينة في قليل من الرجال والفرسان على مرأى من أهلها فعاث في بريتها التي على نهر تاجة الأيسر فوالها ما ظن في القادمين إلا طليعة جيش بعيد فأراد أن يتتهز الفرصة ويضربها ضربة تشل يد القوة المنتظرة فخرج إليها في جيش كاف لأن يفتك بها فانهزمت أمامه حتى قادته إلى وادى سليلت وهو وادى الكمين فانقض فرسان قرطبة وهم تحت إمرة هشام بن عبد العزيز حاجب الأمير على الطليطليين من كل جانب وفتكوا بهم حتى غطت أشلاء القتلى ميدان القتال وقد بلغ عددهم من النصارى ثمانية آلاف ومن المسلمين سبعة آلاف وما كانت عاقبة هذا الفوز أن خضعت طليطة بل إن لوپوس ومن أمكنه الفرار دخلوا المدينة ورفضوا الصلح مع أن الأمير وعدهم بالعفو إذا سلموا المدينة بدون شرط، ولما رأى أن حصارها يطول عاد إلى قرطبة سنة ٢٤٠ للهجرة وترك جيشا محاصرا تحت إمرة ابنه المنذر ولكونه شابا ترك معه قائدين وهما: عبد الملك بن عبد الله أبو مروان، وهشام بن عبد العزيز وقد ابتدأ حصار المدينة من آخر سنة ٨٥٤ واستمر إلى السنة التالية.

وفي سنة ٨٥٥ أرسل موسى جنودا كثيرة تعزز ابنه المحصور فبهذا صار الحصار غير ممكن الاستمرار فرفعه ابن الأمير في الأشهر الأولى من هذه السنة

وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام توجهت إلى قلعة رباح وطلبيرة وزورته ZURITA مواضع قوية تكتنف طليطلة، ومنها كانوا يناوشون المدينة ولكن لوپوس كان يدفع هجماتهم وقد اجتهد في استرضاء اردن فنجح وحالفه إلا أن مساعدته إياه لم تغن شيئا فقد اضطر أن يسلم المدينة سنة ٨٥٩ وقد حضر الأمير محمد نفسه.

وأما موسى فقد استفحل أمره وامتدت سلطته على أرض واسعة تتكون من هضبة اسبانيا المتوسطة ومن وادي العذارى وريورة RIOJA وارجون ARGON وكانت تتاخم من الشرق لأملاك الفرنك في جبال البرانس، ومن الجنوب والغرب لأملاك المسلمين الباقين على طاعة الأمير الأموي، ومن الشمال لاودية النفرين والبشكنس وليزيد في اتساع ملكه رغب أن يتحد مع النفرين فزوج ابنته لمن يعدونه رئيسا عليهم وكان يسمى (غرسينوس) أو (غرسية بلغة اسبانيا الجديدة) فاحتدم ملك استوريا غيظا من هذا الاتحاد الذي كان عقب أن شقوا عصا طاعته وأعلنوا استقلالهم فوجه جيشه إلى مقاتلتهم فقتل منهم عشرة آلاف من بينهم (غرسية) وهزم الباقين وجرح موسى ثلاث مرات ولكنه لم يمت بل فر إلى اسبانيا الشرقية حيث يرأس ولده إسماعيل سرقسطة وولده (فرتون) نظيلة وحفظ استقلاله بدون نظاهر إلى سنة ٨٧٠، فقد مات فيها حين حاصر المنذر سرقسطة كما سيأتي - من مقارنة الحوادث المذكورة في التواريخ العربية في هذا الموضع بما يقابلها في التواريخ الافرنجية نرى مغايرة بينهما فمن الأولى لا يؤخذ أن موسى خرج عن طاعة الدولة الأموية كما ذكر في الثانية بل أن حروبه نحو الشمال والشرق كانت بأمر الأمير محمد ولا يؤخذ منها أيضا أن والي طليطلة كان ابن موسى كما في كندى ورومى.

بينما الأمير يطفى نار الثورة (٢٤٥هـ) في طليطلة ويخضعها لسلطان قرطبة إذا الماجوج (المجوس) اعدوا الكرة على شواطئ اسبانيا فأغاروا أولا على سواحل

جليقية GALICE^(١) ثم مضوا في ستين مركبا^(٢) إلى شواطئ الاندلس فنزلوها وعاثوا في كوررية وقرطمة CARTAMA ومالقة ورندة، وما اجتروا على التوغل في داخل البلاد ولكنهم أحرقوا المدائن المجاورة للبحر وهدموا كثيرا من المباني التي أقامها الامراء المتأخرون على الشواطئ لا سيما القلاع التي كانت مَعَدَّة لمراقبة الطوارئ الخارجية وخربوا جامع الجزيرة الخضراء الذي كان يسمى مسجد الرايات (لأن طارقا جمع فيه زمن الفتح رايات القوم للرأى) فأرسل الأمير فرسانه ليدفعوا غائلة الماسجوج فلما رأوهم أقلمعوا ومضوا إلى شواطئ أفريقية فأغاروا على مدينة ناشور NACHOR^(٣) ثم عادوا إلى ساحل تدمير وانتهوا إلى حصن اوربولة^(٤) ثم رحلوا إلى جزائر ميورقة ومنورقة وقرمطرة FORMENTERA فخربوها^(٥) ثم ساروا إلى سواحل أفرنجة فشتوا بها وعاثوا فيها واصابوا الذراري والأموال^(٦) وبلغوا بنبلونة وأسروا صاحبها غرسيه وفدى نفسه بسبعين ألف دينار، ثم انصرفوا فلقبهم مراكب الأمير فقاتلوهم وغنموا مركبين واستشهد جماعة من المسلمين^(٧) ثم أخذوا طريق العودة إلى اسكندناوة ومراكبهم مثقلة بالغنائم الواسعة سنة ٨٦٠ (٢٤٦ للهجرة)^(٨).

(١) رومى.

(٢) فى تاريخ ابن عذارى أن مراكبهم اثنان وخمسون وإنهم وجدوا البحر محروسا ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط أفرنجة إلى حائط جليقية فى الغرب وإن هذه تلاقى بمركبين من مراكب المجوس فى بعض كورساجه فأخذتهما بما فيهما من الذهب والفضة والسي والعلة.

(٣) رومى.

(٤) ابن عذارى.

(٥) رومى.

(٦) ابن عذارى.

(٧) ابن خلدون وقوله «أسروا صاحبها غرسيه» لا يلتزم مع ما سبق من أن غرسيه قتل فى قتال الاستوريين فلعل المراد أنهم أسروا ابن غرسيه فقد تشهر الابناء باسم الأب.

(٨) كندى ورومى.

يقول ابن عذارى إنهم فقدوا من مراكبهم أكثر من أربعين وأن مراكب الأمير أصابت منها مراكب بريف شذونة فيهما أموال عظيمة.

إن انتصار اردن على موسى جرّاه على الهجوم على المسلمين في جنوب نهر دويره فهزم والى الحدود زيد بن قاسم واستولى على عدة مدن وحصون منها: كوريا وسلمنقة (٢٤٦) وقتل رجال هاتين المدينتين ولم يبق إلا على النساء والأطفال وقد ساقهم إلى استوريا.

فزع الأمير محمد من أخذ كوريا وسلمنقة فبعث ابنه المنذر يقود جيشاً عرمرماً ليرد هاتين المدينتين فسار على شواطئ النهر^(١) حتى التقى باعدائه وقهرهم وقتل منهم عدداً عظيماً وفرّق شمل الباقيين وردّ المدن والحصون المسلوبة، ثم حوّل جيشه إلى الشمال الشرقي فعبر نهر الابرة ودخل نفارة حتى بلغ أرض بنبلونة فأتلف ثمارها وحاصلاتها وافتتح ثلاثة حصون منها حصن قشتيل وأصاب فيه بطلا صنديلاً يسمى فرتون بن غرسية^(٢) فساقه إلى قرطبة فمكث فيها أسيراً ٢٠ سنة ثم أطلقه الأمير ليرحل إلى بلده فأقام مختاراً في قرطبة إلى أن بلغ ١٢٦ سنة^(٣).

وفي سنة ٢٤٩ (٨٦٣ - ٨٦٤) أغار نصارى جليقية على بلاد المسلمين فنهبوا واتفقوا مزارعها واسروا رجالها فأمر محمد قواده وولاته بجمع الجيوش للجهاد فخرج بهم وانضم إليهم فرسان ماردة واتجه إلى جليقية ودخل مدينة (سكتياك أوسنت ياقب SANCTYA)^(٤)، فما استطاع الجلالقة أن يثبتوا على مقاومته بل

(١) يقول كندى ورومى إن المنذر قسم جيشه إلى خمسة أقسام - المقدمة والجناحين (الميمنة والميسرة) والقلب والساقة أى المؤخرة ولذا يعبر عن مثل هذا الجيش بالخميس.

(٢) فى هامش رومى ما نصه 'يقرا فى سورفى أن محمدا فى سنة ٢٤٧ (٨٦١) أغار على أرض بنبلونة فأخضع قسما عظيما من البلاد وأخذ عدة قلاع وحبس فرتون أخا الملك (أى ملك) وبقي هذا أسيرا فى قرطبة نحو ٢٠ سنة.

(٣) رومى.

(٤) فى هامش رومى أن هذه اللفظة منحوتة من سنكتوس يعقوبوس ومن ذلك أخذ الاسبانيون (ستياغو) وفى معجم ياقوت سنت ياقب بضم القاف قلعة حصينة بالاندلس. اهـ وربما مدوا حركة القاف فقالوا ياقوب كما فى نزهة المشتاق.

تقهقروا والتجأوا إلى القلاع القائمة على الصخور المنيعة فرجع الأمير من طريق (طلييرة)^(١) وأرسل فرسان ماردة من طريق سلمنقة وواصل سيره مع فرسان قرطبة متجهاً إلى طلييلة^(٢).

وعلى حدود الفرنك في بلاد ارجون العليا قامت ثورة هائلة يقود زمامها شقى يعرف بحفصون^(٣) نشأ هذا الشقى في إقليم رية من بلاد الأندلس وكان يعيش من كسب يديه، ولما أعياه الفقر هجر إقليمه ورحل إلى ترجيلة^(٤) TORDJIELLA مؤملاً أن يصادف متسعاً من الرزق فلم يجز طريقاً للكسب إلا أن اختلط هو وفئة من الأشرار وعاثوا في الأرض فساداً وجعلوا مهتهم السرقة وقطع الطريق وكثيراً ما قاوموا الكشاف الذين كانوا يقتفون آثارهم ليضطشوا بهم حتى شهر أمرهم واستولوا على قلعة بيشتر ومع هذا في سنة ٢٥٠ (٨٦٤) طرد حفصون وعصابته من الأندلس ففروا إلى حدود الفرنك في الأودية المتوسطة بين جبال البرانس وكان يسكنها أفارقة أغلبهم يهود فانزلوه في حصن من حصونهم يعرف بروطة اليهود^(٥)، وكان هذا الحصن عبارة عن قصر منيع على قمة جبل صخري يكتنفه نهر ولما بلغ نصارى هذه الجبال شهرة حفصون ونجاحه في سطوانه استرضوه وعاهدوه على شق عصا طاعة الأمير.

انقضّ جموع حفصون من الجبال كالسيول الجارفة مغيرين على بلاد اسبانيا

(١) رومي - وفي كتلى من طريق سمورة.

(٢) بعض المؤرخين يذكر هذه الحادثة في حوادث سنة ٢٤٧ (٨٦١ - ٨٦٢) وبعضهم يذكرها في سنة ٢٤٩ (٨٦٣ - ٨٦٤).

(٣) رومي - في كتلى أنه يسمى عمر بن حفص ويعرف بابن حفصون.

(٤) يقول ياقوت أنها مدينة بالأندلس من أعمال ماردة بينها وبين قرطبة ستة أيام غرباً وبينها وبين سمورة من بلاد الفرنج ستة أيام ملكها الفرنج سنة ٥٦٠.

(٥) رومي، قال ياقوت (روطة حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس وهو حصين جداً على وادى شلون.

حتى بلغوا بريشتر^(١) BARBASTER ووشقة وفراجة مفسدين المزارع مستفزين الأهلين على نبذ طاعة ولائهم مخربين مدائن وقرى من يأبى الانضمام إليهم محتلين قلاع البلاد إلى أن وصلوا مقاطعة لاردة فانضم إليهم قائدهم المسمى عبد الملك وسلمها إليهم وتبعه قادة القلاع الأخرى وغيرهم من المسلمين واليهود والنصارى الناقمين من الأمير وامتد لهيب الثورة في زمن قريب على شاطئ نهر ابرة الأيسر.

كان في استطاعة والى سرقسطة أن يرد هجمات العصاة ولكن عزله الأمير وقتل وبقي منتظرا من يخلفه فاغضى عنهم وتركهم يعيشون في الأرض كي يعظم الخطر.

لما استفدح الأمير محمد أمرهم كتب إلى ولاته يأمرهم بحشد الجنود وذهب بنفسه إلى طليطلة يقود جيشا كثيفا وعهد إلى ابنه المنذر بمراقبة حدود جليقية وفي الوقت عينه اجتمع جنود بلنسية ومرسية وتوجهوا تحت قيادة زيد بن قاسم حفيد الأمير إلى نهر ابرة ليجتمعوا هم وجيش قرطبة على شاطئ النهر ويتجهوا إلى مقر حفصون ويستردوا منه الحصون التي استولى عليها.

تحقق حفصون أنه لا يقوى على دفع قوى الأمير العظيمة وأنها ستكون الضربة القاضية عليه لا محالة فعمد إلى المكر والخداع وأرسل إليه رسالة يظهر فيها خضوعه ويقسم بآله السموات والأرضين أن كل ما فعله لم يكن إلا خديعة للمشركين حتى يلتبس عليهم الأمر إذ ردّ جيوشه نحوهم وأنه إذ ساعده الأمير بجيوش بلنسية ومرسية المتجهة لقتاله فاجأ بلاد الفرنج التي في جنوب نهر شيقر SEGRE ودمرها وأنه لم يزل مسلما صادقا مخلصا.

خدع الأمير واعتقد صدق رسالة حفصون وما هي إلا زور وبهتان ووعدته

(١) قال ياقوت بريشتر مدينة عظيمة في شرقي الأندلس من أعمال بريطانيا وقد صارت للروم في صدر سنة ٤٥٢ وبريطانية مدينة كبيرة بالأندلس أيضا يتصل عملها بعمل لاردة وهي في شرقي الأندلس.

بحكومة ولايتي وشقة وسرقسطة إذ أخضع هذه البلاد لسلطان قرطبة، وعندئذ أرسل جيشه إلى جليقية لينضم إلى جيش ابنه المنذر وأمر حفيده أن يقود جنوده ويساعد حفصون على قتال الفرنج وعاد هو إلى قرطبة.

اجتمع جيش زيد وجيش حفصون في وادي «الكنت»^(١) وقابل الثاني الأول بالحفاوة والإجلال كأنهما صديقان، ولكن لما خيم الظلام ومالت عساكر بلنسية ومرسية إلى الراحة ولم يأخذوا حذرهم انقضّ عليهم عساكر حفصون وعبد الملك والى لاردة وفتكوا بأغلبهم ولم ينج إلا القليل، وقد قتل زيد بعد أن دافع دفاع الأبطال وكان شابا يبلغ ثمانى عشرة سنة ٢٥٢هـ - ٨٦٦م.

لما بلغ الأمير نبأ هذه الكارثة هلع هلما شديدا ودعا قواده في الحال إلى حرب مائة^(٢) ينتقم فيها من العاصي الخائن حفصون واستقدم ابنه المنذر من حدود جليقية ليأخذ بقياد هذه الحرب فقاد عساكره وانضم إليه غيرهم وقلوب الكل تغلى كالمراحل ماؤها الغيظ وحب الانتقام إلى أودية العصاة بين صخور روضة اليهود فرجال حفصون وعبد الملك قاوموا بشجاعة هجوم عساكر المنذر لكن لم تغن مقاومتهم ولا مناعة حصونهم شيئا فقد انتصر جيش قرطبة عليهم وألجأ في اليوم الأول عبد الملك مجروحا ومائة رجل من شجعانه إلى هذه الروضة المنيعه، وفي اليوم الثاني أحرق المنذر بها من جميع الجهات هو وجنوده وقد أحرق صدورهم غليل الانتقام حتى قهروا قلاعها وجاسوا خلالها، وقد دافع عبد الملك دفاع المستميت إلى أن سقط مغطى بدمائه فقطع المنذر رأسه وأرسله إلى قرطبة.

وقد أدى سقوط روضة اليهود إلى خضوع لاردة وحصون أخرى والتجأ حفصون إلى ركن منيع من أركان جبال البرانس بعد أن فرق أمواله على أحيابه

(١) كذا في كندى.

(٢) أى تجعل النساء أيامى.

ووعدهم بالعودة إليهم إذا جاد الزمان، وعاد المنذر إلى قرطبة فاستقبل فيها استقبالا باهرا ومنح الأمير شبان الجيش عطايا فاخرة من الأسلحة والملابس والخيول وكان اليوم يوم عيد عند الأهليين سنة ٨٦٦ (٢٥٢).

فى السنة التى انتصر فيها محمد على حفصون (٨٦٦) مات (أردن) بعد أن حكم ما ينيف عن ١٦ سنة وخلفه ابنه (اذفنش) وهو ابن ١٨ سنة فحكم ٤٥ سنة كذا فى رومى وفى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٥٤ أن أردن بن رديمير صاحب جليقية مات وولى مكانه اذفونش وهو ابن اثنتى عشرة سنة ولا يخفى ما فى الروايتين من المغايرة فى تاريخ الوفاة، وفى عمر الملك الجديد وفى ابن الأثير فى حوادث هذه السنة أيضا أن أهل ماردة عاودوا الخلاف على محمد صاحب الأندلس فسار إليهم وحصرهم وضيق عليهم فانقادوا فتقلهم وأموالهم إلى قرطبة وهدم سور ماردة، وفى تاريخ ابن عذارى أنه نقل فرسانهم عبد الرحمن ابن مروان وابن شاكر ومكحولا وغيرهم بعيالهم إلى قرطبة وولى عليها سعيد بن عباس القرشى وأمر بهدم سورها.

وفى سنة ٨٦٨ حاصر بنبلونة عاصمة نفارة سرية من المسلمين يقودها إسحاق ابن إبراهيم العقيلي وزيد بن رسم حتى استولت على بعض ابراجها لكنها لما رأت إقبال كثير من جنود الفرنك لانقازها اضطرت إلى تركها والانسحاب إلى نهر ابرة وكان الحامل على إرسال السرية لحصار بنبلونة حب الانتقام من واليها ابن غرسية صهر موسى، فإنه كان يساعد رؤساء اسبانيا الشرقية الخارجين عن طاعة الأمير.

وفى سنة ٨٦٩ جمع الأمير محمد جنود الأندلس ووجهها تحت قيادة ابنه المنذر إلى سرقسطة فإن واليها موسى كان يحفظها مستقلة عن قرطبة فلما جاءها المنذر وقد أغلق الوالى أبوابها حاصرها ٢٥ يوما، وحرصا على الوقت من أن يضيع سدى دخل نفارة ونهب أرضها وكسح قطعانها وعاد إلى حصار سرقسطة وبقي فى اسبانيا الشرقية إلى سنة ٢٥٧ (٨٧٠).

وفيها مات موسى فألقت المدينة مقاليدها إلى المنذر - ومع موت موسى وفتح سرقسطة لم تخشع طليطلة بل ثارت في هذه السنة وانتخبت عبد الله بن لبّ بن موسى والياً عليها وكان قد فارقها منذ سقوطها سنة ٨٥٩ واستوطن استوريا وكان قائداً شجاعاً خبيراً بتصاريف الحروب - لما علم محمد بعصيان طليطلة جمع جنود الأندلس وقادهم إليها وكان أهلها متأهبين للمقاومة والدفاع عن أنفسهم وهم فيها، ولكن رئيسهم لما علم كثرة جنود قرطبة لم يرد أن يجعل المدينة عرضة للخطر بالبقاء بين حياتها فأمر قواده بالخروج إلى ضاحية المدينة ثم بعث رسلاً إلى أهلها يشيرون عليهم بالخضوع إلى الأمير، فما كان من العامة إلا أن أرادوا الفتك بالمبعوثين لكنهم تشاوروا في الأمر واتفقوا أخيراً أن يسلموا المدينة على شرط أن يتجاوز الأمير عن الماضي ولا يبحث فيه (٨٧١) بعد أن أقام الأمير بعض أيام في طليطلة يوطّد دعائم السلام فيها عاد إلى قرطبة فقبيل بفرح عظيم.

وفي سنة ٢٥٩ (من نوفمبر سنة ٨٧٢ إلى أكتوبر سنة ٨٧٣) أغار المنذر على أرض جليقية وقاتل أهلها، والذهر تارة له وطوراً عليه فعلى ممرّ نهر سهجون المتجه إلى نهر دويره كانت بينهما وقعة دموية قتل فيها كثير من فرسانه الأبطال ومع ذلك كانت خسارة الجلالة فادحة جداً حتى إنهم قضوا أكثر من أحد عشر يوماً في دفن جثث موتاهم - وبقي المنذر على الحدود طول ستة يأتى بأعمال حربية غريبة غير مفترّ في أغلب أيامه عن مناوشة أعدائه الشجعان الذين كانوا يصدّون هجماته العنيفة - وفي آخر هذه السنة رجع إلى لوزيتانيا.

وفي سنة ٢٦٠ (٨٧٤) حلّ بأرض اسبانيا جذب شديد ولم يكن قاصراً عليها بل عمّ أفريقية ومصر والشام وجزيرة العرب حتى أن مكة أم القرى هاجموا أهلها ولم يبق خادم في الكعبة فأغلقت^(١)، جفّت المنابع والغدران فلم تأت الأرض

بشمراتها فعمّت المجاعة وانتشرت الأمراض وكثر الموت وكان هذا الجذب أفضح من جذب سنة ٢٤٤.

وفي سنة ٢٦١ جمع ابن مروان رجاله وهرب بهم من قرطبة وقصد قلعة الحنش في جنوب ماردة فملكها وامتنع بها فغزاه السلطان محمد وحصره ثلاثة أشهر حتى اضطر إلى أن يأكل لحم الخيل ويطلب الأمان ويسلم المدينة، فأمنه السلطان وأباح له أن يسكن بطليوس فاستوطنها، ولم يرجع عن عصيانه فقد ضمّ عصابته إلى عصابة أخرى يقود زمامها من يسمى (سعدون) ودعا إلى جيشه كل من كان على شاكلته من مولدى ماردة وغيرها، ودعا مواطنيه إلى دين جديد وسَط بين الإسلام والنصرانية وحالف أذفونش الثالث ملك (ليون)^(١) وهو بالطبع حليف كل من يثور على السلطان وأخذ يعيث في البلاد^(٢).

فأرسل إليه السلطان جيشا تحت قيادة وزيره هاشم سنة ٢٦٢ فلما سمع الجليقي خبر هذا الجيش أرسل سعدون إلى حليفه أذفونش يطلب منه مددا ولم ينتظر في بطليوس بل توجه إلى حصن (كركى)^(٣) وانضم إليه أهل ماردة، فجاء هاشم وعسكر بالقرب من هذا الحصن واحتل أحد ضباطه حصن مت شلوط وكان سعدون قد اقترب منه بالمدد وأشاع أنه في قلة فكتب الضابط إلى هاشم يخبره بقلة المدد بناء على الإشاعة الكاذبة، فقد كان غرض سعدون منها التفرير فرأى هاشم أن قد سنحت الفرصة في سعدون فبادر بالخروج في خيل قليلة لمقابلته فتركه سعدون يوغل في البلاد حتى دخل مضيقا كان فيه أعداؤه مختبئين خلف الصخور، كهاجموه على غرة وكانت ملحمة هائلة أصيب فيها هاشم بعدة جروح وقتل كثير من فرسانه وأسروا سيق إلى ابن مروان فأكرمه وأحسن إليه

(١) لهذه المحاكمة لقب ابن مروان بالجليقي.

(٢) دوزى.

(٣) يقول بعض المؤرخين (كركر) والصحيح الأول قال ياقوت (كركى) بالتحريك اسم حصن من أعمال «أوريطة» بالانطلس له ولاية وقرى - راجع هاشم دوزى ج ٢ ص ١٨٥.

وأرسله إلى ملك ليون سنة ٢٦٣ فطلب فيه فدية عظيمة - وبعد سنتين أطلق سبيله وقد دفع السلطان عنه بعض الفدية وترك هاشم أخويه وابنه وابن أخيه رهائن على باقى الفدية كذا يؤخذ من دوزى وابن عذارى.

لما علم السلطان بأسر وزيره هاشم أغزى ابنه المنذر جليقية سنة ٢٦٣ (٨٧٦-٨٧٧) وجعل طريقه على ماردة فاحتل قائده الوليد بن غانم بطليوس بعد أن أجلى عنها ابن مروان وألجأه إلى بلاد العدو وغنم المنذر غنائم واسعة وأسرى كثيراً من أعدائه عقب قتال صعب المراس فقد فيه كثيراً من جنوده، منهم يحيى ابن الحجاج وكان فارساً شجاعاً مشهوراً بسياحاته إلى الشرق، كذا يؤخذ من ابن عذارى وكندى، ويؤخذ من رومى أن أذفونش فى هذه السنة صد هجمات المنذر واستولى على حصون ومدن أجلى عنها المسلمين واسكنها قومه النصارى وأنه ما زال يصد هجماته حتى ألجأه إلى حدود لوزيتانيا الجنوبية.

قال ابن خلدون انتقض على الأمير محمد عبد الرحمن بن مروان الجليقى فيمن معه من الموليين وساروا إلى التخم ووصل يده بأذفونش ملك جليقة فسار إليه الوزير هاشم فى عساكر الأندلس سنة ٢٦٣ فهزمه عبد الرحمن وحصل هاشم فى أسره ثم وقعت المراودة فى الصلح على أن ينزل عبد الرحمن بطليوس ويطلق الوزير هاشم فما فتم ذلك سنة ٢٦٥، ونزل عبد الرحمن بطليوس وكانت خربة فشيدها وأطلق هامشاً بعد سنتين ونصف من أسره ثم تغير أذفونش لابن مروان ففارقه وخرج من دار الحرب بعد أن قاتله ونزل مدينة انطانية بجهاث ماردة وهى خراب فحاصنها وملك ما وليها من بلاد (ليون) وغيرها من بلاد الجلالقة واستضافها إلى بطليوس. اهـ.

فى هذه الأثناء ثار الخائن عمر بن حفصون المستنظل فى حماية نصارى الفرنك وبمساعدتهم استولى على عدة قلاع منيعة على نهر شيقر SEGRE (كذا يؤخذ من كندى ورومى).

وفي سنة ٢٦٤ بعث الأمير محمد ابنه المنذر ثانية إلى بلد بنبلونة فمر بسر قسطة وقاتل أهلها ثم تقدم إلى تطيلة وعاث في نواحيها وخرَّب بلاد بني موسى، ثم مضى لوجهه إلى بنبونة فدوخها ورجع، كذا في تاريخ ابن خلدون نقلاً عن ابن الأثير.

عاد المنذر إلى جليقية وصرف سنة ٢٦٥ كلها (من سبتمبر سنة ٨٧٨ إلى أغسطس سنة ٨٧٩ في الحدود بين نهر دويرة والجبال ومعه جيوش ماردة وطليلة وحاصر مدينة (سمورة) التي كان أخذها أذفونش في إحدى الغزوات السابقة - كادت المدينة تسقط في يد المنذر لولا أنه علم بمجيء أذفونش يقود جيشاً كثيفاً لانقاذها فأسرع يتأهب لمحاربته.

في هذا الموضع تختلف روايات المؤرخين في حوادث وأذفونش والذي يفهم من مجموعها، أن جيشي المنذر وأذفونش بقيا على الحدود إلى سنة ٢٦٧ يصدّ كلاهما هجمات الآخر.

وإنه في شوال هذه السنة (مايو سنة ٨٨١) زلزلت الأرض زلزلاً هائلاً هدم المنازل والقصور الجميلة ودك الجبال وحطم الصخور وانشقت الأرض وابتلعت قرى وروابي وجذر البحر من شاطئ ومد من آخر وازدردت المياه الجرز وطفئت على الأعالى وفر الناس من المدن إلى الصحارى وانسلت الطيور من أوكارها إلى السماء وهبت الوحوش مذعورة من أرباضها إلى الخلاء.

هذا الزلزال سبقه خسوف القمر في سنة ٢٦٦ أو في التي قبلها وكانت هذه الحوادث تؤثر في عقول العامة وتفزعهم وتجعلهم يتطيرون من حكومة الأمير محمد، حتى إن عساكر المنذر كانوا يمتنعون من القتال وهذا كان يقشع عن عقولهم سحب هذه الأوهام ويقتنعهم بأن الخسوف والزلزال من حوادث الطبيعة التي لا علاقة لها بعمل الإنسان وليست خاصة بالمسلمين بل نعم النصارى وتشمل الإنسان والحيوان.

عقب الزلزلة كانت مهادنة بين الفريقين ثلاث سنين، يؤخذ من رومى (أن مجيء أذفونش صرف المنذر سنة ٢٦٥ عن حصار (سمورة) وأنه وقعت بينهما واقعة فى مكان يسمى (بُلْفُورَرِيَا POLVORARIA) على نهر (أُرْبِكُوس URBICUS) وأنه عقب هذه الواقعة كانت الهدنة بين المسلمين والنصارى ثلاث سنين وكان الوساطة فيها القائد أبا الوليد، وأنه عند فراغ الهدنة يوم ٢٢ شوال سنة ٢٦٥ (كذا) (٢٥ مايو سنة ٨٨١) زلزلت الأرض زلزالها.

وأقول: من الحساب يتبين أن مايو سنة ٨٨١ يقابل شوال سنة ٢٦٧ فيظهر أن رقم ٥ فى كلام رومى محرف عن ٧ فى السنة العربية وبهذا التصحيح يتحد كندى ورومى والتواريخ العربية فى أن حادثة الزلزلة وقعت سنة ٢٦٧ للهجرة - ويذكر كندى المهادنة بعد الزلزلة لا قبلها وأنها كانت بناء على رضا الملك محمد وأن الملك أذفونش أرسل سفراء إلى قرطبة يصحبهم فرسان من جيش المنذر لأجل عقد الهدنة.

وفى تواريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن عذارى أن الأمير محمداً أمر فى سنة ٢٦٦ بإنشاء مراكب فى نهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط ويأتى جليقية من ورائها فلما فرغت وكملت برجالها وعدتها توجه بها إلى البحر الرعيطى المعروف بابن مغيث فأصابها الرياح وتقطعت فلم يسلم منها إلا القليل.

وفى هذا دلالة على أنه لم يكن مهادنة فى السنة التى تلتها سنة الزلزلة كما يقول رومى.

وفى سنة ٢٦٧ ثار عمر بن حفصون بحصن بِيَشْتَر من جبال مالقة فزحف إليه عامر عامل تلك الناحية لكنه انهزم واسلم قبته فآخذها ابن حفصون وقوى أمره وهو أول رواق ضربة فاستكن إليه أهل الشر، وعزل الأمير عامرا من كورة رية وولاهها عبد العزيز بن عباس فصالحه عمر فطلب العامل كل من له أثر فى مساعدة ابن حفصون فأهلكه وفيهم من أبعد فاستقام أمر الناحية.

يؤخذ من تواريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن عذارى أن هذه الثورة أول خلاف عمر بن حفصون على إمارة الاندلس ولم يذكروا عصيانا لأبيه حفصون مع أن رومي وكندى ينسبان إلى حفصون تارة وإلى عمر بن حفصون تارة أخرى، ثورات قبل سنة ٢٦٧ في إقليم (رّية) وفي شمال نهر (ابره) راجع ما سبق في حوادث سنة ٢٤٩ وما بعدها، ويؤخذ من دوزى أنه كان يوجد في دسكرة قرية من حصن (أوت) (يقال له اليوم زناتة YZNATE) على شمال مالقة الشرقى زارع يسمى حفصاً من سلالة شريفة فإن جده الخامس المسمى (أذفونش) القوطى كان يلقب بـ (الكونت) قد ألجأت تقلبات الدهر جدّه حفصاً في عهد الحكم إلى أن يهاجر من (رنده) ويستوطن بالقرب من الحصن المذكور وأن يظهر الإسلام ويخفى في قلبه النصرانية دين أسلافه - جمع حفص ثروة من كسبه واقتصاده وكان جيرانه الأقل منه غنى يحترمونه ويبجلونه حتى كانوا يسمونه حفصون بزيادة واو ونون على اسمه علامة على تشریفهم إياه.

ولم يكن ما يكدر صفو عيشه إلا سوء سلوك ابنه عمر حتى إن هذا في يوم شاجر أحد الجيران بدون سبب معقول ورماه على الأرض قتيلًا، فاضطر حفصون أن يهاجر بابنه من الدسكرة خوفاً عليه من القتل ويستوطن جبال رنلة في سفح جبل (بُشتر) أثرت المعيشة بين الجبال والغابات والمضايق غير المطروقة في طباع الشاب عمر، فدفعه شقاء العيش إلى أن صار لصاً قاطع طريق وأوقعه اعتلاؤه بين أيدي الحكومة فجلده والى المقاطعة، ولما يش والده من تثقيفه وأعيته الحيل في أمره طرده من منزله - ولما لم يجد عمر ما يعيش به في اسبانيا جاز البحر قاصداً أفريقيا حتى وصل (تاهرت) ودخل صانعاً عند خياط يعرفه قليلاً لأنه ولد في كورة رّية.

دخل شيخ هرم دكان الخياط وأوحى إلى عمر أن يترك الإبرة ويأخذ السيف ويرجع إلى بلده فإنه سيكون خصماً لدوداً للامويين وسيحكم أمة عظيمة، وقع كلام الشيخ الهرم في فؤاد الشاب عمر كوحى الهى، فرجع في الحال إلى اسبانيا

ولم يجرؤ على مقابلة أبيه بل قابل عمه وقصّ عليه حديث هرم تاهرت فشجعه على أن يثور ووعدّه أن يساعده بما يستطيع، جمع أربعين شابا من رستاقه وعرض عليهم أن يكونوا حزبا لابن أخيه وتحت إمرته فقبلوا جميعا فأسكنهم عمر معه في جبل يُشتر سنة ٨٨٠ أو سنة ٨٨١ وأخذوا يقطعون الطريق ويخطفون البهائم ويفرضون ضرائب فادحة على المزارع المنفردة.

استفحل أمر عصابة عمر وتفاقم شرّها وكانت تهاجم المدن فهاجمها والى رية بكل جنوده ولكنه كسر وانهزم وترك خيمته العظيمة للعصاة فنسب السلطان هذه الكسرة إلى عدم أهلية الوالى فعزله وولى مكانه غيره فهادن الوالى الجديد حامية يُشتر.

وبعد سنتين أو ثلاث استنزلها هاشم أول الوزراء من حصنها وقادها إلى قرطبة فلما رأى السلطان فى ابن حفصون ضابطا شهما وفى رجاله جنودا أبطالا رحب بهم وعرض عليهم أن يتظموا فى جيشه فلم يسعهم إلا القبول.

وفى صيف سنة ٨٨٣ لما توجه هاشم لقتال محمد بن لب رئيس بنى موسى وأذفونش ملك ليون رافقه عمر وقام بأعمال استمالته إليه ودعته إلى شكره، ولكن لما عاد عمر إلى قرطبة اشتكى من ابن غانم محافظ المدينة فإن هذا كان يكره هاشما ولذا أساء معاملته عمر فهرب ورجاله إلى حصنهم المنيع سنة ٨٨٤.

لما عقدت الهدنة بين المنذر وأذفونش سنة ٢٦٧ خاف ابن حفصون من أن يهاجمه المنذر فطلب من الفرنك ومن سكان جبال (البرّئات) أن يمدّوه بما استطاعوا من الجنود، فاجتمع لديه أقوام لا يحصون عددا فأخذوا يتدفقون كالسيول من الجبال إلى البلاد حتى بلغوا شواطئ نهر (ابرة) فقابلهم واليا سرقسطة ووشقة عند تطيلة فانهزما وطلبا المساعدة من قرطبة فجمع الملك محمد قواه من فرسان ورجلّان ورتب جيشا عظيما جعل فى مقدمته ابنه المنذر وفى الميمنة ابن عبد الرءوف وفى الميسرة ابن رستم وفى الساقة ابنه أبا زيد والى شدونة وجعل

نفسه في القلب^(١)، ولما اكتملت معدات القتال جد هذا الخميس في المسير نحو الأعداء وهؤلاء لما رأوا تلك القوة الكبيرة قد اقتربت منهم فزعوا وتقهقروا مسرعين إلى حصونهم ولكن حمية المسلمين سهلت لهم اقتحام الجبال فكانت لديهم كالسهول في المسير فاقتفوا آثار أعدائهم عاقدين النية على القتال مهما كانت الصعوبات، ففي صباح يوم اكتشف المنذر معسكر الفرنك على مقربة منه وهؤلاء وجدوا أن لا سبيل إلى النجاة ولا مناص من العراك فالتقى الجمعان واقتلا قتال الهالكين وحفظ كلاهما مركزه معظم اليوم، لكن أمكن جيش قرطبة أن يهزم جيش النصارى وقد قتل ملكهم غرسية^(٢) وفرسانه وجرح عمر بن حفصون جروحاً بليغة وغطت أشلاء قتلاهم الدامية ساحة الوغى.

وكانت هذه المعركة في صيف سنة ٢٦٩ وتعرف بمعركة (ايبار Aybar) لأنها كانت في واد يعرف بذلك على بعض فراسخ من بنونة، بقي الأمير المنذر على الحدود إلى فصل الشتاء وعاد الملك محمد إلى قرطبة وكان يوم دخوله فيها يوم عيد عند الأهلين كذا يؤخذ من كندى ورومى.

لم تكن واقعة (ايبار) حاسمة الخلاف في أسبانيا الشرقية فإن ابن حفصون وقد انسحب من المعركة إلى طود الجنوب مصاباً بجروح بليغة تؤدي إلى هلاكه^(٣) لكن حربه ما زال باقياً وبنى موسى يحكمون على شواطئ نهر (ابرة) فاسماعيل ابن موسى في سرقسطة وأخوه فرتون بن موسى في تطيلة وكانا صديقين لاذفونش ملك استوريا، لهذا بقي المنذر في الحدود يتعقب العصاة ويخمد نيران ثوراتهم فحاصر سرقسطة وتطيلة وصالح حفيد موسى المسمى محمد بن لب بن موسى وكان هذا على غير وفاق مع عميه إسماعيل ورتون، وبهذه المصالحة تمكن المنذر من أن يهاجم بلاد استوريا من جنوبها الشرقي فإن ابن لب ساعده

(١) رومى ص ٤٠ ج ٤.

(٢) ابن بنت موسى وكان قتله في السنة الثانية من ملكه.

(٣) قيل: إنه مات في سنة ٨٨٣ لكن سيأتى أن عمر بن حفصون يموت في عهد الناصر.

بالخيل والرجال وقد عاد الجيش الإسلامي إلى قرطبة في سبتمبر وكان قد غادرها في مارس سنة ٨٨٢ كذا يفهم من رومى^(١).

ويؤخذ من ابن الأثير وابن خلدون وابن عذارى أن الأمير محمدا بعث ابنه المنذر سنة ٢٦٨ لقتال أهل الخلاف فقصد سرقسطة وحاصرها وعاث في نواحيها وفتح حصن روضة وأخذ منه عبد الواحد الروطى وكان أشجع أهل زمانه ثم تقدم إلى دير بروج^(٢) وفيه محمد بن لب بن موسى وقصد مدينة لاردة وقرطاجنة وكان فيها إسماعيل بن موسى فحاربه فاذعن إسماعيل بالطاعة وأعطى رهائه ثم تقدم إلى آلب والقلاع وفتح حصونا ورجع.

هذه الغزوة هي التي كان فيها واقعة (ايبار) لكن يظهر أنها بُدئت سنة ٢٦٨ وانتهت في سنة ٢٦٩ للهجرة وكانت كلها في سنة ٨٨٢ للميلاد ولا يخفى ما في الروايتين الأفرنجية والعربية من المغايرة:

فالأولى: تذكر أن محمدا سار بنفسه في هذه الغزوة، وأن إسماعيل بن موسى كان في سرقسطة، وأخاه فرتون بن موسى في تطيلة، وأن المنذر حاصرها بدون كبير جدوى - ولا تُعين مدينة ابن لب.

والثانية: تذكر أن محمدا سير ابنه المنذر فيها، وأن إسماعيل كان في قرطاجنة وأنه أذعن بالطاعة للمنذر وأعطاه رهائه، وأن ابن لب كان في دير (تروجة) أو (بروجة)^(٣).

(١) ولم يعين رومى مدينة ابن لب لكنه قال عند افتتاحه سرقسطة أخذ عمه إسماعيل بن موسى وابن عمه إسماعيل بن فرتون أسيرين في معركة في موضع جبلى على خمسة أميال من المدينة وقادهما إلى حصن (بكاريا Beccaria) المختص به وانظر أين هذا الحصن.

(٢) كذا في ابن خلدون بالباء الموحدة وفي ابن الأثير بالتاء المشنة فوق ولعل الأول يقصد (برجة) على شمال نهر (ابرة) والثاني (تروجة) على البحر المتوسط فحرر

(٣) تروجة أو برجة - انظر الهامش السابق والرواية الآتية عن غالب ابن حفصون والظاهر أن كلمة (قرطاجنة) مقحمة فإنها ليست من الثغر الأقصى الذي كانت فيه الغزوة بل هي في الشرق نحو الجنوب كما يرى ذلك في المصور (الخريطة) وأن ابن الأثير يقصد أن إسماعيل كان في لاردة.

والذى يستخلص من الروايتين مع مراعاة وضع البلاد الجغرافى أن المنذر سار فى سنة ٨٨٢ إلى الثغر الأعلى لأخضاع أهل الخلاف فأخضع بنى موسى على شواطئ نهر (إبرة) ثم حارب النصارى وكسره بعد أن قتل ملكهم (غرسية) ابن بنت موسى وجرح عمر بن حفصون ثم هاجم بلاد استوريا من هذه الجهة وقد ساعده حليفه محمد بن لب بن موسى بخيله ورجله، ثم عاد إلى قرطبة فى سبتمبر سنة ٨٨٢.

ويؤخذ من روى أن ابن لب بعد أن فتح سرقسطة وتطيلة فى شتاء سنة ٨٨٢ وأخذهما من عميه رأى نفسه أميرا على إمارة عظيمة على نهر (إبرة) الأعلى فحدثه نفسه بالاستقلال فجاهر بعصيان قرطبة، وبذلك عادى ملك استوريا وملك قرطبة معا، فالأول أمر بعض قاداته أن يقاتلوه فكان بينه وبينهم وقعت أدته إلى طلب الصلح من أذفونش - وفى ربيع ٨٨٣ حاصر جيش المنذر وأبى الوليد سرقسطة فتحها بعد يومين وعاث فيها وفى ضواحيها وفى جميع بلاد بنى غازى أى بنى موسى بن زياد ثم جاس خلال استوريا حتى دخل حدود (ليون Léon) فى شهر أغسطس سنة ٨٨٣ وفعل فى البلاد ما فعله فى المرة السابقة ولكنه اضطر أخيرا إلى مغادرتها راجعا إلى (قسطيلة Castille) وهناك بقى القائد أبو الوليد يخبر ملك استوريا فى الصلح حتى إن هذا أرسل فى شهر سبتمبر سنة ٨٨٣ إلى ملك قرطبة رسولا اسمه (دلقدبوس Dulcidius) وكان قس كنييسة طلبيلة ليخبره فى شروط الصلح، ويظهر أنه ما تم الاتفاق عليها إلا فى ديسمبر هذه السنة وأن من هذه الشروط أن يكون الفاصل بين المملكتين نهر دورو وبهذا دخلت المدن التى على شماله ومنها مدينة (سمورة) فى مملكة استوريا، وقد استمر الصلح بين الامتين زمنا فلم يقع بينهما حرب فى المدة الباقية من حكم محمد وهى نحو ستين ونصف ولا فى مدة حكم ابنه المنذر وعبد الله وقد حكم الأول نحو ستين والثانى إلى سنة ٩١٢.

وفى سنة ٢٧٠ (٨٨٣) أى السنة التى تم فيها الصلح دعا الملك محمدا أمراء أسرته ووزرائه وبيطانته وولاة الأقاليم إلى قرطبة وأعلن فى مجلسهم ولاية العهد لابنه المنذر وأنه هو الذى يحمل تاج الملك بعد وفاته وقد حلفوا له جميعا يمين الطاعة.

يروى أن عمر بن حفصون مات من جروحه فى سنة ٨٨٣ فجدّد ابنه غالب Calib عهد أبيه مع سكان جبال الفرنك، وقد حرّكهم حبّ الانتقام إلى الأخذ بالثأر فنزلوا معه من الجبال التى خلف (جاقة) حيث كانت أمنع حصن لابن حفصون إلى أرض (برجة Borja) وهناك شتّوا الغارة على شاطئ نهر إبرة منادين بأن غالب بن حفصون هو ملك هذه البلاد، لما بلغ قرطبة نبأ هذا العاصى وأتباعه أمر الأمير المنذر الوليد بن عبد الحميد بجمع فرسان طليطلة وقادهم إلى مشار العيصان متخذاً طريق (بلنسية) لأن لهيب الثورة امتد على طول شاطئ نهر إبرة كله، لما علم العصاة بمجيء الأمير لجأوا إلى جبالهم، عسكر الأمير فى طرطوشة وجعلها مركز أعماله الحربية وسير ابن عبد الحميد ليدافع عن التخوم ويراقب حركات الشائرين فقاتلهم أثناء هذه السنة والسنة التالية ٢٧١ (٨٨٤ - ٨٨٥) وفاز عليهم واسترد منهم الحصون التى على نهر شيقر ونهر (سنقه) والتى على الأنهار المتجهة نحو نهر إبرة، لكنه فى آخر سنة ٢٧٢ (مايو أو يونيه سنة ٨٨٦) أثناء ما كان يقتفى أثر عصابات مهزومة من نصارى الفرنك لم يأخذ الحيطه فوق فى كمين وأصبح جيش المسلمين محصورا فى واد ضيق عند حصن (شيرس Xeriz)^(١).

وقد جرح القائد ووقع هو وكثير من رجاله أسرى فى أيدي العدو والباقون من الجيش انهزموا والتجأوا إلى المدن المجاورة.

(١) قال ياقوت شيرس حصن حصين ومقل مكن من أعمال تاكرنا لكن سياق الكلام يدل على أن هذا الحصن فى الشمال لحرر.

لما بلغ المنذر نبأ هذه الواقعة حزن كثيرا وأرسل رسلا يفدون ابن عبد الحميد فقدوه بمال كثير، كذا يؤخذ من كندى ورومى.

فى التواريخ العربية السابقة أن عمر بن حفصون لم يمت إلا فى سنة ٣٠٦ فى عهد عبد الرحمن الناصر ولم يذكر فيها ابنه غالب ولا الوليد بن عبد الحميد وأسره عند حصن شيرس، ويؤخذ منها أن هاشم بن عبد العزيز غزا سنة ٢٧٠ كورة (رية) واستنزل عمر بن حفصون من جبل (بِشْتَر)^(١) وقدم به إلى قرطبة فأكرمه الإمام، وأن هاشم بن عبد العزيز سار سنة ٢٧١ إلى سرقسطة وفيها محمد ابن لب بن موسى فملكها وأخرج منها محمدا فصالحه وأطاع وكان فى عسكره عمر بن حفصون فلما عادوا إلى قرطبة هرب عمر وقصد بيشتر مخالفا.

وفى سنة ٢٧٢ سار هاشم إلى ابن مروان الجليقى وحاصره بحصن منت مؤلس^(٢) ثم رجع عنه فأغار ابن مروان على اشبيلية ثم نزل منت شلوط أو سليط Salud فامتنع فيه وصالح عليه الأمير واستقام على طاعته إلى أن مات^(٣)، وفى يونيو سنة ٨٨٦ سار المنذر ليهاجم صاحب الحامة فإنه كان قد حالف ابن حفصون فأسرع هذا إلى مساعدة حليفه فحصرهما المنذر فى الحامة مدة شهرين إلى أن كادت تنفذ أقوات المدينة فعزم المحصورون على الخروج من المدينة واقتحام جيش قرطبة، فنالت عمر جراح وشلت يده وبعد أن فقد كثيرا من رجاله التجأ إلى حصنه، بينما المنذر مسرور بانتصاره إذ جاءه نبأ وفاة والده ليلة الخميس الثامن والعشرين من صفر سنة ٢٧٣^(٤) (٤ أغسطس سنة ٨٨٦)^(٥) لنحو خمس وثلاثين

(١) قال ياقوت بيشتر حصن مفرد بالامتناع من أعمال (رية) بالاندلس بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخا وربما اشبعوا الباء الثانية فقالوا بياشتر.

(٢) قال ياقوت (مولس) بالسين المهملة فى آخره حصن من إقليم من أعمال طليطلة وفى ابن خلدون مولن بالنون فى آخره ويظهر أنه محرف عن مولس.

(٣) ابن خلدون.

(٤) صفر هذه السنة ٢٩ يوما فقط.

(٥) يقول ابن عذارى إنه كان مع المنذر فى هذه الغزاة القائد محمد بن جهوروان صاحب الحامة هو حارث بن حمدون من بنى رفاعة.

سنة من إمارته فاسرع المنذر في العودة إلى قرطبة، قال ابن عذارى: كان الأمير محمد فصيحاً بليغاً عظيم الأناة يؤثر الحق وأهله لا يسمع من ياغ ولا يلتفت إلى قول زائع، وكان عاقلاً على أخلاق جميلة ومكارم حميدة وذا بديهة وروية وكان أعلم الناس بالحساب وفيما لمواليه في أنفسهم وفي أعقابهم لا يكدر عنده كادح في شيء عن أحدهم فيسمع أو يسمع، وكان محبوباً في جميع البلدان وكان محمد بن أفلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار بسجلماسة وكان فرذند ملك افرنجة يسترجح عقله فيهاديه.

٦- المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ):

ولى إمارة الأندلس بعد وفاة أبيه محمد وكان ابن أربع وأربعين سنة فقد ولدته أمه (أيل)^(١) سنة ٢٢٩ للهجرة (٨٤٤ للميلاد) وبايعوه يوم الأحد لليلتين^(٢) خلثا من ربيع الأول سنة ٢٧٣ (٧ أغسطس سنة ٨٨٦) وكنوه بأبي الحكم ولم تطل مدته بل أقام في الملك نحو ستين، فيهما قتل وزير أبيه هاشم بن عبد العزيز في شوال سنة ٢٧٣ وقاتل ابن حفصون وأشياعه ومات وهو محاصره في صفر سنة ٢٧٥ وقد اختلف المؤرخون في حوادث المنذر فمنهم من قال: إن قتاله لابن حفصون وأشياعه كان في الجنوب وأن هذا خدعه وأخذ منه مائة بغل في أول حصاره لقلعته وأن المنذر مات أثناء حصاره الأخير لهذه القلعة وهي حصن بيشتر ومنهم من قال: إن القتال كان في الشمال وأن ابن حفصون خدع هاشماً وهو يحاصره في طليطلة وأخذ منه البغال وأن المنذر قتل وهو يقاتل أحزاب ابن حفصون في قلاعهم على شواطئ نهر التاجة وأخوه عبد الله يحاصر طليطلة. ولتفصيل هذا الإجمال نستخلص من كلام المؤرخين ما يأتي:

(١) كذا ذكر ابن عذارى اسم أمه وأيل كسيد الوعل أو الأروى، والجمع: إيايل.

(٢) قال ابن الأثير يبيع له بعد موت أبيه بثلاث ليال. اهـ. أي بلبلة الجمعة من صفر ولبلى السبت والأحد من ربيع الأول.

قال ابن خلدون ولى بعد محمد ابنه المنذر فقتل لأول ولايته هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وسار فى العساكر لحصار ابن حفصون فحاصره بحصن يشتر سنة أربع وسبعين وافتتح جميع قلاع وحصونه، وكان منها ربة وهى مالقة وقبض على واليها من قبله عيشون فقتله ولما اشتد الحصار على ابن حفصون سأل الصلح فأجابه وأفرج عنه فنكث فرجع لحصاره وصالح ثم نكث مرتين، فأقام المنذر على حصاره وهلك سنة ٢٧٥ لستين من إمارته فولى مكانه أخوه عبد الله وقفل بالعساكر إلى قرطبة وقد اضطربت نواحي الأندلس بالشوَار فقلّ الخراج لامتناع أهل النواحي من الاداء وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار: مائة ألف منها للجيش، ومائة ألف للنفقة فى النواث وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفرا فانفقوا الوفر فى تلك السنين.

ويؤخذ من ابن عذارى أن أهل قرطبة كانوا يسمعون فى هاشم لدى المنذر ويؤوكون كلامه للإيقاع به حتى إنه لما أنشد عند مواراة الأمير محمد:

أَعَزَى يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي

أَمِينُ اللَّهِ ذَا الْمُنَنِ الْجَسَامِ

فَهَلَا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا

وَدُفِعَ عَنْكَ لِي كَأْسُ الْحَمَامِ

تأولوا أنه يريد بقوله «قوم لم يموتوا» المنذر وما زالت تدب بينهما عقارب

السعاية حتى أمر بالمنذر بسجن هاشم وكتب هذا إلى جاريته وهو فى السجن:

وَأَنى عَسَدَانِى أَنْ أَزُورَكَ مُطَبِّقِ

وَبَابِ مَنِيعٍ بِالْحَدِيدِ مَضْطَبِّ

فَإِنْ تَعَجَّبِى يَا عَاجٍ مِمَّا أَصَابَنِى

فَفِى رَيْبٍ هَذَا الدَّهْرِ مَا يَتَعَجَّبُ

تركت رشاد الامر إذ كنت قادرا
 عليه فلاقيت الذي كنت أرهب
 وكم قاتل انج ويحك سالما
 ففى الأرض عنهم مستراد ومذهب
 فسقلت له إن الفرار مذلة
 ونفسى على الاسواء أحلى وأطيب
 سأرضى بحكم الله فيما ينوينى
 وما من قضاء الله للمرء مهرب
 فمن يك أمسى شامتا بى فإنه
 سينهل فى كأسى وشيكا ويشرب

ثم بعث فيه الأمير ليلا فقتله ونهب ماله وسجن أولاده وألزمهم غرم مائتى ألف دينار فلم يزالوا فى السجن والغرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله فاطلقهم ورد إليهم ضياعهم.

وفى سنة ٢٧٣ كانت الواقعة على أهل طليطلة وكانوا قد جيّشوا البربر المنفيين من ترحيله فقتل منهم ألوف.

وفى سنة ٢٧٤ خرج الأمير المنذر بجيوشه إلى عمر بن حفصون فافتتح حصونه بركة... وحاصر أرجذونة إلى أن نبذوا طاعة رئيسهم عيشون واسلموه إلى الأمير المنذر فدخلها وافتتح حصون بنى مطروح بجبل باغه وأسر منهم اثنين وعشرين رجلا وأرسل الأسرى إلى قرطبة فصلبوا جميعا وصلب مع عيشون فى الخشبة خنزير وكلب لأنه كان يقول: إذا ظفر بى فليصلبنى وليصلب عن يمينى خنزيرا وعن يسارى كلبا، ثم حاصر المنذر ابن حفصون وأخذ بمخنقه وسدّ أفواه طرقة فاعمل الفكر فى الخديعة والمكر وأظهر الإنابة إلى طاعة الأمير على أن يكون عنده من خاصّة جنده وقطّان قرطبة بأهله وولده وأن يلحق ابتاءه بمواليه

فأجابه الأمير إلى ما طلب... فسأله مائة بغل يجعل عليها جملة متاعه وعياله فأمر الأمير أن تقاد إليه البغال ومعها عشرة عرفاء ومائة وخمسون فارسا أكراما فأرسلها ابن حفصون إلى بُيُشتر، لكن لما انقضت جمع ذلك المعسكر ودخل الليل هرب عمر ابن حفصون إلى قلعته فلقى العرفاء فناصرهم القتال وأخذ منهم البغال وعاد إلى سيرته الأولى فاقسم الأمير المنذر أن يقصده ويحلّ عليه ولا يقبل منه أو يلقي بيده إليه، فجمع جنوده وأحرق بقلعة بيشتر ثلاثة وأربعين يوما حتى يش ابن حفصون لكن أصابت المنذر علة أكذبت نفسه وكذّرت أنسه فبعث إلى أخيه عبد الله لينوب منابه، فلما حضره أسلم روحه إلى بارئه وعاد عبد الله بالعساكر إلى قرطبة ومعهم جمل يحمل المنذر فدفن مع أجداده وكانت وفاته منتصف شهر صفر من سنة ٢٧٥ وهو ابن ست وأربعين سنة وملك نحو ستين.

ويؤخذ من دوزي ما تعريبه مع تصرف أن المنذر بعد أن عاد من الحامة إلى قرطبة لوفاة أبيه محمد اغتنم عمر بن حفصون من هذه الحادثة توسيع سلطانه فدعا أصحاب الحصون (التي بينه وبين الساحل) إلى أن يتبعوه فأطاعوه ورضوا به جميعا أن يكون ملكا عليهم، ومن ذلك الحين صار الملك الحقيقي للجنوب ومع هذا وجد في السلطان الصاعد على كرسى الملك قرنا شهما يحول بينه وبين ما يشتهي يقول عنه الأمويون: لو عاش سنة زائدة لاضطر عصاة الجنوب إلى القاء السلاح فقد قاومت جنوده العصاة مقاومة شديدة حتى إن أقاليم قبرة والبيرة وجيآن صارت مبادين حروب دموية يتعاقب فيها النصر والخذلان، ففي ربيع سنة ٨٨٨ للميلاد سار المنذر بنفسه نحو الشائرين واستولى على بعض الحصون وعاث في ضواحي بُيُشتر وحاصر أرشدونة^(١) وفيها عيشون وكان شديد البأس يثق بشجاعته

(١) وفي ابن عذارى أرجذونة قال ياقوت: أرشدونة مدينة بالاندلس معدودة في أعمال رية قبل قرطبة بينهما عشرون فرسخا وقال أرجذونة: مدينة بالاندلس قال ابن حوقل: رية كورة عظيمة مدينتها أرجذونة فيها كان عمرو بن حفصون الخارج على بني أمية. اهـ. فهل مدينتان أو مدينة واحدة تسمى أرجذونة أو أرشدونة.

فى القتال لا يقوى أحد على منازلته حتى كان يقول: إذا ظفر بى السلطان فليصلبنى وليصلب على يمينى خنزيراً وعلى يسارى كلباً - فاته أن السلطان عنده وسيلة للقبض عليه أقوى من قوة السلاح فقد دسّ إليه بعض أهل المدينة بأن يحتالوا فى أخذه فوعده بأن يسلموه إليه حياً ففى يوم دخل عيشون مسكن أحدهم وهو أعزل فكلبوه بالحديد وسلموه إلى السلطان فصلبه بالطريقة التى رسمها لنفسه وبعدئذ سلمت أرشدونة، ثم ظفر السلطان بينى مطروح الثلاثة وفتح حصونهم بجبل باغة وأسر معهم تسعة عشر من عمّالهم وصلب الاثنتين والعشرين فى قرطبة، وبعد ذلك حاصر بيشر حتى ضاق ابن حفصون ذرعاً من الحصار ولم يجد وسيلة إلى الخلاص إلا الخداع فعرض الصلح على المنذر قائلاً له: أسكن قرطبة أنا وأهلى وأكون أحد قوآد جيشك وأبنائى مواليك، غرّ المنذر هذا الكلام وأحضر من قرطبة القاضى والعلماء ليحرروا عقد الصلح، كما عرض ابن حفصون ففعلوا - وبعدئذ حضر ابن حفصون إلى السلطان والتمس منه أن يبعث إلى بيشر بمائة بغل ليحمل عليها أنقاله إلى قرطبة فأرسل إلى قلعة ما طلب ومائة وخمسين فارساً وعشرة حرّاس من الضباط ورحل الجيش المحاصر إلى قرطبة لكن ابن حفصون ترقب جنان الظلام وغفلة الحراس وفرّ إلى حصنه وتبعه جنده وهجم على الحراس وانتزع البغال منهم - كاد المنذر يتميز من الغيظ من فعلة ابن حفصون فاقسم أن يعود إلى حصار قلعة ويأخذ بخناقه ولكن حال الموت دون أن يبرّ بقسمه فقد اختطفته يد المنون أثناء الحصار فى ٢٩ يونيو سنة ٨٨٨ (متتصف صفر سنة ٢٧٥).

ويؤخذ من رومى وكندى ما تعريه مع تصرف أن المنذر لما جاء من المربة إلى قرطبة لأخذ البيعة دخل بملايس السفر فى البهو المعد للاحتفال بجنّازة أبيه فقام الحاجب هاشم بن عبد العزيز وأخذ يقرأ كتاب تولية المنذر كالعادة حتى وصل إلى ذكر محمد فحزن عليه وفاضت عبراته وعلا نحيبه وعقد لسانه وكاد

الحضور لا يسمعون صوته حتى اضطره إلى إعادة ما قرأ وقد نظر المنذر إلى ذلك بعين الغضب والسخط ولما جرى بالنعش إلى القبر هلع هاشم هلعاً غير مزلوف حتى خلع رداءه ونزع عمامته وصاح يندب محمداً قائلاً: «وامحمداه ليتني كنت معك فإني سأسقى كأس الحمام من أجلك» فأحفظ هذا الأمير الجديد ومع ذلك بقي هاشم في حجابته ولكنه يش من سعادة مستقبله.

في هذه الأثناء استولى غالب بن حفصون على أسبانيا الشرقية وآلت إليه سرقسطة ووشقه وبواسطة الجبلين امتدت سلطته على جميع الأرضين التي يسقيها نهر (ابرة) من الشاطئين ما عدا طرطوشة وعندئذ جمع عشرة آلاف فارس فوق ما عنده من المشاة وسار بهم إلى طليطلة، حتى دخلها وقد ساعده نصاراها ونادوا به ملكاً عليهم ثم ملك قلاع نهر التاجه وأقام حراساً عليها يهددون سلطان الأمير، فأرسل المنذر جيشاً تحت إمرة هاشم (الذي يكرهه باطنا من جرأ ما ذكرناه سابقاً) فأسرع الخطى حتى بلغ تخوم طليطلة وحاصرها بشدة.

رأى غالب أنه لا يقوى على الجيش المحاصر فطلب مدداً من حلفائه ولأجل أن يوجد زمناً كافياً لمجيء المدد إليه عمد إلى الخديعة فعرض على هاشم الصلح بأنه يسلمه المدينة وينسحب إلى أسبانيا الشرقية، غير أنه يحتاج إلى بغال ليحمل عليها جرحاه وأقواته التي في مخازن طليطلة وأنه ما جاءها إلا مخدوعاً من نصاراها وأشرار مسلميها فاعتقد هاشم صدق هذا القول وتوسط لدى المنذر في أن يمنح ابن حفصون ما طلب ناظراً إلى أن في هذا الاتفاق حسم حرب أهلية دموية طويلة مرتاب في عاقبتها - فردّ عليه^(١) الملك يحذّره خداع الثعلب الماكر غالب بن حفصون - ومع هذا التحذير ما زال هاشم ظاناً صدق غالب فكتب إلى الملك ينبته أن ليس في الأمر كبير خطر وأن الثائر إذا أخذ البغال وحملها وأبى تسليم المدينة حاربناه وإذا سلمها أمنا شر حرب خسائرها فادحة وإن كتب لنا النصر.

(١) من كلام كندى وهو يعبر عن امراء بنى أمية في الاندلس بالملوك.

وبعدئذ أعطى هاشم غالباً دوابّ الحمل التي طلبها فأخرج قسماً عظيماً من جيشه من طليطلة وأخفى باقى الجيش فيها - وحمل البغال بالجرحى والذخائر موهما أنه وأتباعه تاركون المدينة حسب الاتفاق وقد احتلها فى الحال بعض جنود الاندلس تحت إمرة وال مخلص للامويين - حيثئذ عاد هاشم وجيشه إلى قرطبة وهنأ الأمير بما تمّ وما درى أن هذا ما كان إلا خداعاً من ابن حفصون فإنه بمجرد ما علم برحيل عساكر قرطبة وبقرب مجيء النجدة من حلفائه الجبليين أشعل نار الحرب وتمكن من دخول طليطلة بواسطة أهلها وجنوده المختبئين وآل الأمر إلى أن استولى بسهولة على القلاع التى على شاطئ نهر التاجة الإيسر وبذلك امتدت سلطته على اسبانيا الوسطى.

جاءت الرسائل تنبئ الملك بحركات ابن حفصون هذه فأخذها هاشم من حاملها وكان خارجاً من منزله مع ابنه عمر وفضّها وقرأها، لما علم المنذر بالأمر امتلاً غضباً وسخطاً على هاشم وأرسل إليه كوكبة من الخيل تجيء به فدخل رسول إليه فى قصره ورأى أناساً قد اقتربوا منه للسلام عليه فمنعهم قائلاً لهم: «أنتم مخطئون ليس هذا الشخص الجدير بالاحترام» أدرك هاشم الأمر المرسل إليه من الملك فلم يفه بينت شفة، بل أركب حصاناً صعب القياد سريع الخطى وسارت الكوكبة حتى بلغت باب المدينة فجفل الحصان وألقى بصاحبه على الأرض مغشياً عليه زمناً، ولما حضر مجلس المنذر صاح فيه قائلاً: «أنت الذى أشرت علىّ بهذه المتاركة أنت الذى ساعدت العاصى على خيائته لا بد من قتلك اليوم حتى تكون عبرة لغيرك» وقطع رأسه فى ساحة القصر فى ٢٦ شوال سنة ٢٧٣ (٢٥ مارس سنة ٨٨٧) وقيل: حبسه أياماً قبل قتله وعزل ولديه عمر وأحمد من ولايتى جيان وأيدة^(١) Ubéda وسجنهما وصادرهما فى مالهما.

(١) قال ياقوت: أبدة بالضم ثم الفتح والتشديد مدينة بالاندلس من كورة جيان.

وعقب ذلك أمر قواد الاندلس وماردة بجمع الرايات واللحاق به نحو طليطلة وفى اليوم الثانى توجه مع جنود حرسه وأخيه عبد الله، عَلمَ أحزاب ابن حفصون بتوجه المنذر إليهم فلم يجرءوا على مقابلته بل بقى بعضهم فى طليطلة وبعضهم فى قلاع إقليمها، فكلف الأمير أخاه عبد الله بحصار المدينة وأخذ هو يتعقب العصاة ومساعدتهم وقاتلهم حتى تمكن من طرد بعضهم من القلاع التى كانوا يحتلونها على نهر التاجة، وأحرق بعض القرى التى تحصن فيها النصارى واستمر القتال أكثر من سنة حتى دخلت سنة ٢٧٥ فكان المنذر يجتهد فى إيجاد معركة تكون حاسمة بيد أن ابن حفصون كان يتجنب بحذق مقابلة جنود الاندلس، ففى يوم اكتشف المنذر وهو فى عدد قليل من الفرسان جيشا كثيفا من العصاة معسكرا على ربوة قريبة من حصن ويدى^(١) Webda فدفعته شجاعته وحميته أن يلقي بنفسه وفتته القليلة بين أعدائه الكثيرين غير مبال بكثرة عددهم ولا منعة موقعهم. فتقهقروا أولا ثم ارتدوا وأحدقوا بفرسان الأندلس فقاتلوا بشجاعة فائقة حتى قتل كثير منهم وأصيب المنذر بعدة رماح فسقط صريعا فى ميدان القتال وذاع الخبر بأن الأمير قتل فظن جيش غالب أن المقتول قائدهم ففروا من ساحة الوغى ولم يمكن بقية جيش قرطبة أن تتبعهم لقلّة العدد ودخول الليل.

وكان موت المنذر فى صفر سنة ٢٧٥ (يوليو سنة ٨٨٨) لنحو ستين من حكمه.

لما علم عبد الله بموت أخيه رجع إلى قرطبة حيث تمت له البيعة.

٧- عبد الله بن محمد (من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٣٠٠ للهجرة):

ولى عبد الله بن محمد إمارة الاندلس وعمره نحو ٤٥^(٢) سنة فقد ولدته

(١) قال ياقوت: ويدى مدينة بالاندلس قرب طليطلة.

(٢) يقول ابن الأثير: إنه ببيع وعمره ٤٢.

أمه (١) سنة ٢٣٠ (٢) وبويع يوم السبت منتصف شهر صفر سنة ٢٧٥ وكان يوم وفاة أخيه المنذر عند حصار بيشتر أو طليطلة كما تبين قبل.

صعد على كرسي الإمارة ودعائمه تكاد أن تنقض فقد كثر في أنحائها قيام الثوار وتغلبوا على الكور والمدن وامتنعوا من أداء الخراج (٣) لكن انقطع قتال الفرنج والجلالقة ولولا ذلك لساءت العقبي وتقلص ظل مملكة الأمويين في أسبانيا.

من الاطلاع على ما قاله المؤرخون في حياة الأمير عبد الله نرى أن ليس في أقوالها تطابق بل اختلاف كثير يدل على تناقض الحوادث وزيادة بعضها في موضع ونقصها في آخر، وذلك لا يؤدي إلى الحقيقة إلا على وجه مجمل فيؤخذ من كندى ورومى:

١- أن عبد الله في مبدأ حكمه غزا ابن حفصون في كورة طليطلة على نهر التاجة.

٢- وأن له ولدين محمدا وعبد الرحمن المظفر وأن الأول كان والى اشبيلية وعصى أباه، والثاني جاءه ليرده عن عصيانه فأبى فحاربه وأسره وأكرمه وعنى بجروحه وحبسه في قلعة في اشبيلية، وأن محمدا مات في محبسه من الجروح ولم يمت مسموما.

٣- وأن عبد الله غزا سوارا وأسرهم في كورة البيرة وقطع رأسه وأرسله إلى قرطبة.

(١) يقول ابن الأثير: إنها أم ولد واسمها عشار ويقول ابن عذارى: إن أمه كانت تسمى بهار أو عشار ويكتب كندى اسم الأم Athara.

(٢) كذا في كندى ويقول رومى: إنه ولد سنة ٢٣٨ ويقول ابن عذارى: إنه ولد في نصف ربيع الآخر سنة ٢٢٩ ويخطئ رومى كندى في أن الولادة كانت سنة ٢٥٠ مع أن الذى قاله كندى سنة ٢٣٠ كما ذكرناه.

(٣) قال ابن خلدون: كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيش ومائة ألف للنفقة والنائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفرا فأنفقوا الوفرا في تلك السنين...

ويؤخذ من ابن خلدون وابن عذارى ودوزى ما يخالف ذلك فلم يجئ فيها غزو طليطلة في مبدأ حكم عبد الله بل جاء فيها غزوة (بلى) وأن ولدى عبد الله هما محمد والمطرف (لا المظفر) وأن الأول ذهب مغاضبا من قرطبة إلى ابن حفصون فاسترضاه والده فعاد إلى قرطبة وحبس في القصر حتى قتله أخوه وإن الذى قتل سوارا هو جعد وجيء بالجثة إلى مدينة البيرة فقطعت.

هذا بعض ما اختلفوا فيه وليبان ذلك مفصلاً نقول يستخلص من كندى ورومى ما يأتى:

بعد موت المنذر أمر أخوه عبد الله الذى كان يتولى حصار طليطلة قواده أن يستمروا على الحصار وتوجه إلى قرطبة ومعه كوكبة من الفرسان المخلصين له فبلغها فى الوقت الذى اجتمع فيه مجلس الشورى إثر ورود النبأ بموت أخيه المنذر لينظر فى الأمر، فحضر عبد الله المجلس فقام أعضاؤه لمنظره وأعلنوا إمارته وحلفوا له يمين الطاعة، فأول عمل بدأ به أن أمر بنقل جثة أخيه إلى قرطبة وإقامة الشعائر اللائقة بجنازته وكلف أخاه يعقوب باتمام ذلك.

كان عبد الله جميل الصورة أزرق العينين معتدل القامة فطنا ذا علم وشجاعة. فى أول يوم من حكمه أطلق سراح ابنى هاشم بن عبد العزيز وسراح معلمهما جابر بن غيث اللبلى وكان من مشاهير علماء ذلك العصر ورد إليهم أموالهم. جذبت هذه المكارم أهل قرطبة إلى محبته فلما ابنى هاشم كانا محبوبين كثيرا عندهم وفوق ذلك ولى الأمير عبد الله عمر بن هاشم ولاية جيان التى كانت مع أبيه وأقام أحمد بن هاشم رئيس حرسه - هذه المكارم وإن أرضت أهل قرطبة لكنها أغضبت أسرة الأمير ولا سيما ابنه محمد والى اشبيلية وقد أدى ذلك إلى ثورة شغلت الأمير عن الاستمرار فى قتال ابن حفصون وإلى أن ابنه محمدا وأخويه الأصمغ والقاسم والى شريش وشذونة شقوا عصا الطاعة فى جنوب الأندلس

وانضم إليهم ولاية وقواد آخرون وثاروا على والى جيان عمر بن هاشم الذى استولى على كرسى الولاية منذ أيام.

صار الأمير عبد الله مهذبا من ابنه من جهة ومن ابن حفصون من أخرى فكان واقعا بين نارين، فقسم قواه إلى قسمين أرسل قسما إلى اشبيلية تحت إمرة ابنه الطائع عبد الرحمن المظفر كى يرد أخاه عن غيّه وتوجه الأمير نفسه بالقسم الآخر إلى طليطلة، لكن فى هذه الأثناء جاءه نبأ ثورتين إحداهما من والى اشبونة والأخرى من قاضى ماردة فالأول قام على الولاية المحافظين على نهر دويرة فأمر الأمير عبد الله وزيره أبا عثمان عبيد الله بن أبى عبدة معلم ابنه المظفر أن يأخذ القوة البحرية المجهزة فى ولبة واكشونية^(١) وينقض بها على والى الثائر - والثانى سليمان بن أنس بن الباجة أثار أهل ماردة على واليها حتى طرده واستقل هو بولايتها فعرج الأمير (أثناء توجهه إلى حصار طليطلة) على ماردة ودخلها فجأة بجيوشه الجرارة، فتضرع إليه القاضى الثائر ملتسما العفو فعفا عنه لشبابه واستعداده وصفح عن شركائه أيضا، ثم عاد الأمير إلى متابعة سيره نحو طليطلة التى كانت فى يد ابن حفصون حتى فاجأه فى سهل على نهر التاجة فاقتل الفريقان وانتصر فرسان قرطبة وانهزم أعداؤهم وسقط كثير منهم فى النهر فغرقوا وحال دون القتال دخول الليل.

استمرت المعارك فى اسبانيا الوسطى ولكن بدون نتائج حاسمة للنزاع - حيث جاء الأمير عبد الله كتاب من ابنه المظفر ينبئه أن المفاوضات بينه وبين أخيه محمد لم تنجح وأنه تبيّنه قوى من الثائرين وأنه يخشى أن محمدا يجعل وجهته قرطبة وأن كورة جيان مشتعلة فيها نارا لهيجان من تعدى شركاء أخيه وأنه يرى أن يترك حصار طليطلة لقواده ويرجع سريعا إلى قرطبة - لهذا عاد الأمير إلى قرطبة لينظر

(١) فى نزعة المشتاق ولبة مدينة مطلة على جزيرة شلطيخ وقال ياقوت: اكشونية مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل اشبونة وهى غربى قرطبة وهى مدينة كثيرة الخيرات بربة بحرية يلقى بحرهما على ساحلها العنبر.

بنفسه فى إخضاع ابنه العاصى وقد آلمه ترك قتال ابن حفصون وأخذه فى محاربة ابنه ولكن لطف آلامه أن جاءه من أبى عثمان ما يبنى بانتصاره فى لوزيتانيا واخماده نار الثورة فيها وقتله والى اشبونة الشائر ومن تبعه من الولاة الآخرين.

فى تلك الآونة ارتبكت أحوال الأندلس ارتباكاً شديداً إذ أصبح ميدانا للمعارك ومنازعات القبائل الفاتحة وغيرها، فإن رؤساء الكور الأندلسية اتخذوا سريان الفتن والشقاق بين الأسرة المالكة وسيلة لثيل غرضهم وهو التفرّد بما فى أيديهم من المدن والأقاليم ولم يقفوا عند هذا الحد بل اعتدوا على الكور الخاصة بقرطبة ووجهوا عنايتهم إلى استئصال الدولة الأموية من أسبانيا.

فى ذلك الوقت كان غالب بن حفصون^(١) يعلم اضطراب المملكة وقيام القلاقل فى أنحاء الأندلس فقامت آماله فوجّه عبد الله بن أمية لينهب كورة جيان وهذا ضمّ إلى قوى سوار^(٢) ابن حمدون القيسى وكانت سبعة آلاف رجل واستولوا معا على مواقع من إقليم جيان ونهبوها ثم انضم إليهم أتباع يحيى بن صقالة أمير العرب وكذا انضم إليهم جيش حزب المولّدين وكان ستة آلاف رجل من العرب والنصارى استأجرهم رؤسائهم الأغنياء، وهذه الجيوش استولت على بعض القلاع وزحفت إلى الأمام فى البرارى التى فى جنوب النهر الكبير فسير الملك إليهم جعد بن عبد الغافر والى جيان^(٣) فحاربهم لكنه انهزم وخسر سبعة آلاف من رجاله ووقع هو وكثير من قواد جيشه أسرى فى أبدى الأعداء فقادوهم

(١) كذا يقول رومى: وأما كندى فيقول: هنا (حفصون بن أريوس).

(٢) كان سوار أحد رؤساء القبائل الأقوياء فى شرقى الأندلس وكان عدواً لدوداً للسورين فى قرطبة فإن الأمويين منهم اختصوا بالرياسة دون غيرهم وقد أنشأ أو كبر عدة مدن فى جنوب وغرب نهر شنيل مثل الحمراء وبياسة ووادى آش - والقلاع التى بناها هو والرؤساء الشائرون فى جنوب غرناطة كانت تسمى بـرجالة Bordjêla أى القصور المتحدة (لعلها بروج الله) وحرف الاسبانين هذه الكلمة وقالوا البجراس Alpujarras.

(٣) كذا فى كندى ورومى فلاحظه وقابله بما يأتى.

إلى برجالة، أى القلاع الجديدة لغرناطة فى غربى مدينة البيرة^(١) وقد قوى هذا النصر اطماع العصاة فانتشروا فى جميع الكور وأخذوا وشقة وجيان وريّة وارشدونة وإقليم البيرة إلى قلعة رباح وكانت هذه الواقعة فى نهاية سنة ٢٧٦ (إبريل سنة ٨٩٠).

لما بلغ الملك عبد الله خبر تلك الحوادث المحزنة أقسم أنه لا يعود إلى عاصمته إلا بعد أن يبيد هذه العصابات، فجمع جنود الأندلس وفرسان حرسه وسلم قيادة المشاة والرماة إلى عبد الرحمن ابن بدر وكان قائدا ضاريا بالحروب فى الجبال - وطىء الملك بجيشه أرض جيان فقابلته فئات من العصاة فبدد شملهم وانهزموا واقتفى آثارهم نحو الجنوب حتى أدرك سوارا عند سفح برجالة ومعه قومه العرب وأقوام من البيرة والحمراء وغرناطة فدارت رحى الحرب وجرح سوار وأسر وسيق أمام الملك، فأمر بقطع رأسه فقطع وأرسل إلى قرطبة وكان ذلك فى أوائل سنة ٢٧٧ (يونية أو يولية سنة ٨٩٠) وقد أكد ابن حيان أنه قتل فى هذه الواقعة المسماة بواقعة مدينة البيرة اثنا عشر ألفا منهم يحيى بن صقاله أمير العرب اليمانيين.

بعد قتل سوار بن حمدون أقام العصاة رئيسا عليهم سوريا فَنَسَرِيَا بِسْمِ سَعِيدِ ابْنِ جُودَى - كان على جانب عظيم من الشجاعة والجرأة لكن يعوزه الحزم - وثق بشجاعة أتباعه فالتقى بهم إلى سهول غرناطة ولوشة وقاتلوا جيش الملك فدحروا وولّوا الفرار وجرح رئيسهم وأسر وسملت عيناه بالحديد المحمى وقطع رأسه فى ثالث يوم^(٢) وأرسل إلى قرطبة.

(١) يقول رومى ربما كانت هذه المبادئ الحقيقة لمدينة غرناطة.

(٢) كذا فى كندى وفيه نظر فإن سعيد بن سليمان بن جودى سيانى ذكر قتله فى سنة ٢٨٤ فيحتمل أن قتله فى هذه الواقعة غير صحيح أو أن سعيدا هنا غير سعيد هناك ولذا قال رومى: إن الرئيس المختار هنا أو سعيد بن سليمان بن جودى الذى رثا سوارا وفى قوله نظر أيضا لأنه كيف يكون سعيد بن جودى أخا سعيد بن سليمان بن جودى؟ (يكون الأول عم الثانى لا أخاه).

بعد ذلك اجتمع الباقون من جيش العصاة فى البيرة وانتخبوا رئيسا عليهم محمد بن أضحى الفارسى صاحب حصن الحامة^(١)، لكنه كان أقل جزاءة من سابقه فالتجأ برجاله إلى جبال انتقيرة وغرناطة ورندة فاختبأ فيها متجنباً قتال جنود عبد الله - حيثئذ أشار الوالى عبد الرحمن بن بدر على الملك أن يترك هؤلاء قطاع الطرق ويعود إلى قرطبة عاصمة مملكته، فعاد إليها بعد أن ترك قوة اعتقدها كافية لكبح جماح الثوار^(٢)، بعد أن عاد عبد الله إلى قرطبة أرسل قوة عظيمة من الفرسان إلى ابنه المظفر كى يرد أخاه محمداً إلى الطاعة فبهذه القوة أمكن أن يتزع من أخيه مدينتى اشبيلية وقرمونة وأخذ يقتفى أثره حتى أدركه فى إقليم الشرف غرب اشبيلية وكان بينهما واقعة هائلة احتدم قتالها بين الفريقين، فقد كان فى فريق محمد شجعان شريس وأركش وشذونة وفى فريق المظفر شجعان قرطبة واستجدة وقرمونة واشبيلية لكن آل العراك إلى نصرة جيش قرطبة وقتل حصان محمد وأصابته بجروح مؤلمة منعه من أن ينهض فحمل إلى أخيه فأمر بالاعتناء به وتضميد جراحه وقد حلّ مثل ذلك بالقاسم أخى عبد الله فأخذ مغطى بالجروح وجيء به إلى ابن أخيه فاعتنى بشأنه وجيء بالمجروحين إلى اشبيلية وجبسا فى قلعة مات فيها محمد بعد أيام قلائل من جراحه ومن حزنه من أن يرى مقهوراً.

يزعم بعضهم أنه مات مسموماً ولذا كانوا يلقبونه بالمقتول لكن هذا غير الواقع فقد أكد الكاتيبون أنه ما مات إلا من جروحه فى ١٠ شوال سنة ٢٨٢ (٣ ديسمبر سنة ٨٩٥) وكان ابن ثمان وعشرين سنة^(٣) وترك ولداً عمره أربع سنين يسمى عبد الرحمن وكانوا يلقبونه بابن المقتول وقد جعل الله له شأنًا عظيمًا كما

سيجى ٥.

(١) فى هامش رومى مدينة الحمامات La ville des bains.

(٢) يقول ابن عذارى (ص ١٣٩ ج ٢) أن ابن أضحى تولى أمر العرب بجان البيرة مطيعاً للأمير عبد الله فحارب ابن حفصون فأسره هذا فقده العرب بمال جسيم.

(٣) كذا يقول كندى ويقول رومى: إنه كان ابن سبع وعشرين سنة.

عقب هذه الواقعة ولّى عبد الله ولاية في شريش واسطبة وشذونة في السنة
عينها أى سنة ٢٨٢ قام شقاق بين الوزير عبد الملك^(١) والوالى عمر بن هاشم أدى
إلى مبارزتهما وقتل الأول الثانى - بعد أيام قلائل اقتص المطرف بن الملك
محمد^(٢) لعمر بن هاشم فقتل عبد الملك على مسافة ميلين من اشبيلية وولّى
مكانه أحمد بن هاشم أخا عمر المقتول وولّى الملك عمل عبد الملك ابنه مروان -
فى رمضان هذه السنة قتل المطرف غيلة ليلا فى الطريق وكان ابن أربع وعشرين
سنة وكانت خصاله الحميدة تجعله فى منزلة عالية فوق أقرانه الشبان.

توجهت الظنون إلى أن القاتل مروان بن عبد الملك للعداوة المعروفة بينهما
فسيق إلى القضاء، ويظهر أنه قام ما يثبت التهمة عليه ولم يستطع أن يبرئ نفسه
فحكم عليه بالسجن فسجن إلى أن مات سنة ٢٨٤.

رجع إلى ما بعد واقعة البيرة:

بعد أن قتل سوار بن حمدون رثاه سعيد بن سليمان بن جودى بقصيدة منها ما
معناه:

(فى جبال البيرة تكسر سيف سوار السيف الذى ألبس نساء قرطبة ثياب الحداد
السيف الذى سقى الاعداء كثوس المنون).

وبعد ذلك انضم سعيد إلى غالب بن حفصون، فإن سعيدا هذا كان من حزب
المولدين وكان يقال: إنه جمع من صفات الأشراف عشر صفات: الكرم
والشجاعة والفراسة والعفو والشعر والفصاحة والقوة والمهارة فى الطعن بالرمح
والضرب بالسيف والرمى بالقوس.

لا يعلم السبب الذى أدى فى ذلك الوقت إلى وقوع خلاف بينه وبين ابن

(١) يقول كندى: إن عبد الملك كان وزيرا وقائدا وأن عمر كان واليا ويقول رومى: إن الأول كان
والى قرمونة والثانى والى جيان ويقولان أن الأول ابن عبد الله ويقول غيرهما إنه ابن أمية.

(٢) يقول كندى ورومى: إن المطرف كان ابن الملك محمد ويقول غيرهما أنه كان ابن الأمير عبد
الله وإنه هو الذى كان يخاصم محمدا لا «المظفر».

حفصون حتى إن الأول دعا الثاني إلى المبارزة فامتنع لكن سعيد فاجأه يوماً في الميدان فأوقعه عن قربوسه وكاد يقتله لولا أن أدركه أتباعه^(١) نشأ عن الخلاف بينهما أن عاد سعيد إلى طاعة الملك عبد الله فولاه كورة البيرة ولكن قتله اغتيالاً بعض أتباعه في شهر ذي القعدة سنة ٢٨٤هـ^(٢).

وفي سنة ٢٨٥ أجذبت الأرض فلم تنبت فنجم عن اجذابها مجاعة عمّت أسبانيا وأفريقية وأضررت بالناس ولا سيما الفقراء وأعقبها وباء فتك بالخلق فتكا ذريعاً حتى إنهم كانوا يدفنون جملة من جثث الموتى في قبر واحد ولا يستطيعون أن يحفروا حفراً كافية بقدر عدد الأموات وكانوا يدفنونهم بدون غسل وكان المشرفون على الموت يذهبون بأنفسهم إلى المقابر.

كانت تقع هذه الحوادث والسلم ضارب أطنايه بين أذفونش الثالث وعبد الله ولم يقطع روابط المودة بينهما إلا حادثة غريبة وهي أنه كان في حزب غالب بن حفصون أمير مولد ذو قرى من بنى أمية يسمى أحمد بن معاوية ويكنى بأبي القاسم أخذ من ابن حفصون السلاطة العليا على إقليم طليطلة وطلبيرة ووجه عزيمته إلى أن يأخذ من النصارى سمورة ويلجئهم إلى شمال نهر دويرة، فجمع نحو ستين ألفاً من المشاة والفرسان منهم بربر مستأجرون وهجم على مدن الحدود بدون تفرقة بين مدن النصارى ومدن المسلمين ونهبها وألجأ النصارى إلى مدينة سمورة فتحصنوا بها مستصرخين بنى دينهم فحاصروهم بها وأخبر قواد الحدود الملكين عبد الله واذفونش بإغارة هذا السائر، فجاء اذفونش بجيشه إلى برارى سمورة والتقى الجمعان واقتتل الفريقان نحو أربعة أيام، وفي اليوم الرابع ترك فرسان البربر ميدان القتال لكن مسلمي أسبانيا الشرقية وإقليم طليطلة ثبتوا حتى إن قائدهم أحمد قتل في المعركة فتفرقوا بدون نظام وقتل منهم النصارى

(١) رومى ص ٧٤ وما بعدها ج ٤.

(٢) كندى.

كثيرا وقطعوا رؤوسهم وعلقوها على أبواب سمّورة وكانت هذه الواقعة سنة ٢٨٨ (٩٠١).

قد حركت هذه الواقعة نفوس المسلمين ورغبوا أن يثاروا النصارى بإخوانهم وأشاروا على عبد الله بذلك ولكنه خالفهم وأرسل القائد عبيد الله الغمرى والى أشبونة إلى أذفونش ليجدد التحالف فنجح - هذا كله أغضب كثيرا من المسلمين من الملك عبد الله حتى إن خطباء الجوامع أسقطوا اسمه من خطبهم، وشاع ذلك فى اشبيلية بتحريض القاسم أخى عبد الله وخطبوا باسم الخليفة العباسى المعتضد بالله وكان القاسم يأمر الاشبيليين أن لا يدفعوا الزكاة إلى أخيه لأنه (كما يقول) مسلم ملحد.

لما بلغ الملك ذلك وحققه أمر بالقبض على القاسم وسجنه وقتل فى السجن مسموما سنة ٢٩٠ (٩٠٣) وأمر الملك بنفى كثير من العلماء بسبب ذلك.

كان ابن حفصون يسعى فى هدم دولة بنى أمية فى الاندلس وإقامة دولة يكون هو صاحب صولجانها - لهذا كان دائما يشعل نيران الثورات ويحدث القلاقل والاضطرابات فى حكومة الملك عبد الله - من ذلك أنه فى سنة ٢٩٣ كان يوجد متكررا فى بلى وفى قرطبة وبينهما عشرون ميلا لإحداث مؤامرة من أشياعه فى العاصمة كى يسقط الملك من عرشه وليهتئ النفوس لما دبّر حرك ألسنة كثيرين بدم عبد الله وقد ضبط شعر فيه هجوه وبُحث عن قائله حتى قبض عليه فظهر أنه سليمان بن الباجة الذى كان قاضى ماردة واغتصب ولايتها وعفا عنه الملك - لما مثل بين يديه استنكر منه مقابلة الإحسان بالإساءة فاضطرب وقبّل قدمى الملك وسأله العفو وأنبأه بأن الحامل له على الهجوم هو ابن حفصون المختبئ الآن فى قرطبة وأقضى للملك أسرار مؤامراته وأنه على وشك دق ناقوس الثورة - عندئذ حبس سليمان خشية أن يطلع شركاءه على جلبة الأمر - وبُحث عن ابن حفصون فى المدينة فلم ير له أثر فيها، فإنه كان قد تزيا بزى سائل وفرّ من قرطبة وقد قبض

على كثير من شيعته وعذبوا ليخبروا بأمره - لما هرب ابن حفصون من قرطبة توجه إلى كورة طليطلة حيث يقيم جيشه وأخذ يغير على إقليم قلعة رباح ولكن هزمه الوزير أبو عثمان عبيد الله الغمرى فى عدة مناوشات واستولى على عدة قلاع كان يحتلها جيشه - وفى سنة ٢٩٦ كان بينهما واقعة منتظمة قضى فيها أبو عثمان على فرسان غالب ومشاته والجاء إلى بعض حصون طليطلة حيث لم تقم له قائمة نحو ثلاث سنين.

فى هذه الاثناء سكّن المظفر اضطراب جنوب الاندلس فتوجهت عزيمته لأن يخضع طليطلة - لهذا الغرض التمس من والده أن يوليه حكومة ولاية ماردة بدلا من أبى عثمان فإنه قد بلغ من الكبر عتيا وينبغى له أن يصرف بقية عمره فى حياة هادئة فكره الملك أن يعزل هذا الشيخ الذى خدمه بإخلاص مرضاة لابنه لكن بلغ أبا عثمان فاستقال وجاء قرطبة فولاه الملك رئاسة حرسه وكان مؤلفا من جنود صقالبة ذوى شجاعة وإخلاص لملكهم.

لما أخذ المظفر بزمام ولاية ماردة وبقيادة الجيش أعدّ المعدات بحمية زائدة لقتال أشباع غالب بن حفصون فلم يجرءوا على أن يظهرُوا فى ميدان الوغى لأن المظفر كان شديد البأس محافظا على النظام الحرسى حتى كان يخشاه عسكره وعدوه وكان نصيب الأسرى لديه إما ضرب الرقاب بالسيوف وإما طعن الصدور بالرمح.

وفى صفر سنة ٢٩٩ (سبتمبر ٩١١) ماتت الملكة أم الملك عبد الله فيكاهما بكاء مرّاً لأنه كان يحبها حبا جمّاً واحتفل بجنائزتها احتفالا شائقا ودفنت فى قبرٍ فخيم مزين بالنقوش الجميلة بناه لها ابنها فى بساتين الرصافة - وقد أثر فيه حزنه عليها حتى إنه ما كان يفكر إلا فى اللحاق بها فبنى لنفسه قبرا بجانب قبرها، رأى نفسه سائرا فى طريق الموت فجمع الأمراء والوزراء والولاة وأوصى بولاية عهد المملكة لحفيده عبد الرحمن بن محمد لأنه رأى أن القلوب قد اجتمعت على

حبه وأن في ذلك حسما للنزاع بعد موته وقد أوصى ابنه المظفر بحماية ابن أخيه وتمضيده، فقبل وعمل بالوصاية^(١).

وفي غرة ربيع الأول سنة ٣٠٠ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢) مات الملك عبد الله بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة ونصف^(٢) شهر وعمره نحو سبعين^(٣) سنة. انتهى ما استخلصناه من كندى ورومى ويستخلص من غيرهما ما يأتي:

حوادث البيرة

إلبيرة^(٤) مدينة في الجنوب الشرقي من الأندلس عند جبال (نفادة) وقد نزل كورتها جند دمشق عقب الفتح الإسلامي، قيل: كانت إلبيرة هي المدينة قبل غرناطة فلما بنى الصنهاجي مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها ونهرها نهر شنيل وفي قلبها جبل شلير لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء^(٥) وقال ياقوت: إلبيرة كورة كبيرة بالأندلس ومدينة متصلة بأراضي كورة قبيرة بين القبلة والشرق من قرطبة بينهما تسعون ميلا وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار وفيها عدة مدن منها قسطلية وغرناطة^(٦).

ويؤخذ من دوزي ما تعريبه:

أن دين النصرانية كان له سلطان كبير على قلوب أهل إلبيرة، فإن تعاليم قسوس رومة انتشرت فيها أولا أثناء ما كانت مدن اسبانيا الأخرى تائهة في ظلمات عبادة الأوثان، وكان يكثر في إلبيرة عدد النصاري والكنائس ويقل عدد المسلمين وكان بها جامع كبير رمى أساسه بعد الفتح حنشل الصنعاني، أحد رفقاء موسى وأكمل

(١) من هذا يظهر أن المظفر غير المطرف الذي سبق قتله.

(٢) يقول ابن الأثير: كانت ولايته خمسا وعشرين سنة واحد عشر شهرا.

(٣) يقول كندى أنه كان ابن اثنتين وسبعين سنة وكأنه نسي قوله في المبدأ أنه ولد سنة ٢٣٠.

(٤) همزتها همزة قطع فإن «ال» في أولها ليست للتعريف فهي على وزن أخريظة أو كبريتة.

(٥) المقرئ.

(٦) يقول دوزي في أبحاثه (ص ٣٣ ج ١) مدينة البيرة كانت تسمى قديما قسطلية.

بناؤه فى عهد الأمير محمد وكذا كان يكثر فى البيرة الاسبانيون والمولدون ويكثر فى كورتها العرب فإنهم كانوا لا يميلون أن يحبسوا أنفسهم بين جدران المدينة ولا أن يغيروا مساكن قطن فيها أسلافهم عساكر دمشق، وأيضا لم يكن فى البيرة ما يستهوى نفوسهم إلى سكناها فإنها كانت مؤسسة على صخور مجذبة لا تنبت زهرة فى الصيف ولا تسقط عليها قطعة ثلج فى الشتاء - ومع هذا كانوا يجيئونها يوم الجمعة لتأدية الصلاة فى جامعها متباهين بخيولهم الجميلة المزينة بالسروج واللجم ذات القيمة وكان لا يفوتهم أن يحتقروا الاسبانيين ويزدروهم وكانوا يسمونهم (المدينة السافلة) وكانت طبقة الأشراف فى البيرة وكورتها من العرب.

فى مبدأ حكم عبد الله اشتبك الاسبانيون والعرب فى حرب مهلكة حتى اضطر هؤلاء إلى أن يتركوا ضياعهم ويلتجئوا إلى حصن منت شيقر Monte Xicar فى شمال غرناطة الشرقى ويخربوا ضواحيه وكان رئيسهم يحيى بن صقالة من قبيلة قيس فجاء الاسبانيون والمولدون تحت إمرة نابى وحصروهم وقتلوا كثيرا منهم واستولوا على الحصن فاضطر جيش العرب لضعفه إلى نزع السلاح وعقد اتفاق مع أعدائه ومع هذا بعد مضى عدة أيام فى المدينة هجم الاسبانيون على العرب فى ربيع سنة ٨٨٩ (أواخر ٢٧٥ أو أوائل ٢٧٦) وذبحوهم ورموا جثثهم فى بئر وقد فرح الاسبانيون بذلك فرحا عظيما حتى قال شاعرهم الأبلى^(١) ما معناه:

(قد كسرنا نصال أعدائنا وخفضنا كبرياءهم - كانوا يسموننا المدينة السافلة لكن قد هددنا قواهم وهل بعد زمن تنتظر رممهم التى ألقيناها فى البئر من يثار بها) وكان يحيى رئيس العرب من المقتولين.

عقب ذلك عمت الفوضى عرب الأقاليم وساد الخصام بين المعديين

(١) نسبة إلى أبلة وهى قرية من وادى آش واسمه عبد الرحمن بن أحمد.

واليمينين ففى إقليم البيرة اختلفوا أولا فيمن يكون رئيسا عليهم، ولكنهم لما رأوا الضرر فى الانشقاق اتفقوا أخيرا على اختيار سوار^(١) القيسى بدل يحيى بن صقالة فكان هذا حاسما للنزاع حتى قيل: «لو لم يرزق الله العرب سوارا لانقرضوا».

كان سوار شيخا أشيب قتل ابنه الأسبانيون فعقد نيته على أن يثار الأسبانيون بابنه وبالعرب المقتولين، فجمع ما أمكنه من العرب تحت رايته وتوجه بهم أولا إلى قلعة منت شيقر ليجعلها مركز أعماله الحربية واستولى عليها وقتل حاميتها وكانت ستة آلاف جندى وهاجم حصونا أخرى وأخذها، وقد جرّ هذا إلى قتل كثير من الأسبانيين حتى انقرضت سلالات منهم باجمعها ولم يكن لتركاتها وارث، فرز اسبانيو البيرة إلى والى إقليمها جعد^(٢) واستمدوا معونته واعدن إياه بالطاعة فأجاب سؤلهم وزحف على سوار بجنوده خاصة وبالاسبانيين فقاتلهم شيخ العرب بقدام ثابتة وكان القتال صعب المراس من الجانبين ولكن كانت العاقبة نصر العرب واقتفوا آثار أعدائهم الفارين إلى أبواب البيرة وقتلوا منهم سبعة آلاف وأخذوا رئيسهم جعدا أسيرا - فرح العرب بالنصر وبأنهم قربوا كثيرا من الضحايا قربانا إلى روح يحيى...

بعد أن انتصر سوار انتصارا مشهورا حالف عرب رية وحيان وقلعة رباح ثم عاد إلى نهب الأسبانيين والفتك بهم فلم يجدوا لهم سيلا إلى السلام إلا الالتجاء إلى السلطان والتماس حمايته فأجاب سؤلهم وخاطب سوارا فى أن يعود إلى طاعته ويترك الأسبانيين فى سلام وهو يقلده إدارة قسم واسع من الإقليم فأجاب سوار إلى ما دعاه إليه السلطان وصالح خصومه وأقسموا أيمان السلم ولكن لم يكن ذلك إلا سكونا كاذبا فإن النفوس ما زالت منطوية على ما انطوت عليه من

(١) استوطن هنيذة جده الرابع مرشانة Maracena من إقليم البلوط فى شمال غرناطة كذا فى هامش دوزى ج ٢ ص ٢١٤ ويقول ياقوت: مرشانة مدينة من عمال قرمونة بالأندلس.

(٢) سبق فى كلام كندى ورومى أن جعدا كان والى جيان.

الاضغان، لما لم يجد سوار بجواره من الأعداء من يحاربه هاجم حلفاء واتباع ابن حفصون وبلغ أسماع أهل البيرة أصوات آلام بنى جلدتهم من سطوات سوار وشدائده فحیی شعورهم الوطني وهبوا جميعا وتبعهم سكان كورتهم وأخذوا عدتهم وهاجموا العرب وضربوهم حتى ألجأوهم إلى الحمراء^(١) Alhambra بعد سبعة أيام رأوا الجيش الاسباني المؤلف من عشرين ألف رجل متأهباً للهجوم من الشرق واضعاً آلاته الحربية على أكمة، حيثذ رأى سوار أن فى بقاء عساكره الشجعان فى القلعة خطراً عليهم فخرج بهم إلى مقابلة العدو واشتبك القتال بين الفريقين وفى أثناء ذلك توجه بدون أن يراه العدو إلى الأكمة وانقض على حاميتها انقضاض الصاعقة فبدد شملها - لما رأى ذلك الاسبانىون الذين يقاتلون فى السهل ظنوا أن العرب جاءهم مدد فامتلات قلوبهم رعباً وانهمزوا إلى البيرة وقتل منهم اثنا عشر ألفاً وقيل سبعة آلاف وتسمى هذه الوقعة وقعة المدينة.

بعد هذه الوقعة المدمرة لم يبق للاسبانين عون يرجونه لشدتهم ويخضعون لرياسته إلا أحد أبناء جلدتهم عمر بن حفصون فاستنجدوا به فجاء البيرة ودخلها بجنده ونظم شئونها العسكرية وجمع تحت رايته حاميات الحصون المجاورة وأخذ فى المسير نحو سوار، ولكن هذا قد ضم إليه عرب جيان وربة فصار تحت امرته جيش عرمرم ملأه أملاً فى أن يقهر ابن حفصون وقد تحقق أمله، فإن ابن حفصون خرج وفقد جملة من خيرة عساكره واضطر إلى أن يتقهقر وقد غضب غضباً شديداً من هذه الصدمة وأخذ يلوم أهل البيرة على سوء سلوكهم أثناء المعركة وفرض عليهم خراجاً فادحاً يؤدونه فى مقابلة نفقات هذه الحرب التى لم تكن إلا لمنفعتهم ثم عاد إلى يشتر بعد أن أقام على البيرة حفص بن المر Moro ليدافع عنها.

بعد رحيل ابن حفصون استرسل سوار فى الهجوم فوقع فى كمين من أهل

(١) قال باقوت: الحمراء اسم مدينة لبلة بالاندلس وهى مدينة قديمة فيها آثار عجيبة.

إلبيرة فقتلوه ونقلوا جثته إلى المدينة فعَلَّتْ من النساء صبيحات الفرح حين رأين
مَنْ حرمهنّ من اخوتهنّ وأزواجهنّ وأولادهنّ مقتولا وليطفئنّ أوار الانتقام قطعت
الجثة قطعاً وابتلعنها^(١).

بعد سوار أمر العرب عليهم سعيد بن جودي سنة ٨٩٠ فدخل إلبيرة
وأخضعها، مدحه الأبلّى الشاعر بأبيات فأجازه عليها، فلما ذهب نبّه عربى سعيداً
إلى أن هذا الشاعر هو أكبر محرّض لقومه على العرب وهو القائل: «هل بعد زمن
تتظر رمهم التى ألقيناها فى البئر من يثار بها» فأمر الأمير قريبا ليحصى بن صقالة
أن يقتل الشاعر ويلقى جثته فى البئر ففعل ما أمر به فى الحال.

كان جد سعيد قاضى إلبيرة ثم ضابط قرطبة فى عهد الحكم الأول وكان مثال
الفروسية العربية وكان معاصروه ينسبون إليه عشر صفات لا يحوزها إلا سيد
فاضل (وقد سبق ذكرها).

حوادث أشبيلية:

أشبيلية مدينة عظيمة بالاندلس على ضفة النهر الكبير فى الجنوب الغربى
لقرطبة نزل كورتها جند حمص كما نزل كورة إلبيرة جند دمشق - ومن أقاليمها
إقليم الشرف وهو على جبل (قيل) إنه كريم التربة دائم الخضرة فرسخ فى فرسخ
طولا وعرضاً لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه (وقيل) إن ترابه أحمر، طوله
من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر
ميلا يشتمل على مائتين وعشرين قرية قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت وقال
ياقوت يطل على أشبيلية جبل الشرف وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر
الفواكه ومما فاقت به على غيرها من نواحي الاندلس زراعة القطن ويتصل عملها
بعمل لبلة وهى غربى قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا - وفى المقرئ «أن بأشبيلية

(١) سبق فى كندى ورومى أن سوارا أمر وسبق أمام الملك فأمر بقطع رأسه فقطع وأرسل إلى
قرطبة فى أوائل سنة ٢٧٧.

أسواقا قائمة وتجارات رابحة وأهلها ذوو أموال عظيمة وأكثر متاجرهم الزيت، وفي شرقي اشبيلية على مسافة سبعة فراسخ مدينة قرمونه.

ويؤخذ من دوزي أن اشبيلية كانت مركز علم وتمدن الرومان ومقر أسر الأشراف والأغنياء، لم يغير الفتح العربي شيئا من نظامها الاجتماعي فقد سكنها قليل من العرب الفاتحين وأغلبهم فضل سكنى أقاليمها وما زالت سلالات الرومان والقوط هي أكثر السكان عددا فيها، وكانوا ذوي ثروات واسعة لا اشتغالهم بالزراعة والتجارة والملاحة - كان كثير من السفن يردها ليحمل منها القطن والزيتون والتين من محصول أراضيها.

جحد أغلب الاشبيليين النصرانية وأسلموا وبنوا لهم جامعا كبيرا في عهد عبد الرحمن الثاني لكنهم لم يغيروا طباع عادات أسلافهم الاسبانيين وقد تخلق بأخلاقهم من خالطهم من العرب وساروا في طريق تمدنهم فلا كانوا ينزعون إلى محاربة قبيلة أو جنس فكان مولدوهم على العموم هادئين مسالمين للسلطان يعتبرونه السند الطبيعي للنظام، ومع هذا كانوا يخشون عرب الأقاليم لمحافظةهم على طباعهم الأصلية وأوامهم القديمة ونفورهم من غير بنى جنسهم وتمسكهم بأنساب أسلافهم الأقدمين وعدم إخلادهم إلى السكينة - لهذا كان هؤلاء العرب يترقبون الفرص أو دعوة من أشرافهم للفتك بالاشبيليين ونهب أموالهم، وكان الاشبيليون يتوقعون منهم ذلك فكانوا يحتاطون خشية أن يأخذوهم على غرة.

كان يوجد بين سلالات العرب الساكنين في إقليم اشبيلية سلالتان ترأسان السلالات الأخرى وهما سلالة بنى حجاج وسلالة بنى خلدون، فالسلالة الأولى وإن كانت عربية إلا أنها كانت من نسل غيطشة ملك القوط قبل رذريق فإن حفيده هذا الملك المسماة سارة Sara تزوجت عميرا Omair من قبيلة لخم اليمنية فولدت له أربعة أولاد كانوا أصولا لسلالات عظيمة منها سلالة بنى حجاج، وأما سلالة بنى خلدون فأصلها من حضرموت اليمن وأملأكها كانت في إقليم الشرف

وكان من هذين البيتين زُرَّاع وتَجَّار ومَلَّاحون وأجناد وكانوا يسكنون أولا قصورهم في الرساتيق ثم سكنوا المدينة وبنوا فيها القصور الشامخة. اهـ.

في مبدأ حكم الأمير عبد الله بعث ابنه محمدا على اشبيلية سنة ٢٧٦ فثار به رؤساؤها وهم أمية بن عبد الغافر (وكان جده أبو عبده عاملا عليها من قبل عبد الرحمن الداخل) وكريب من بنى خلدون وأخوه خالد وعبد الله من بنى حجاج وحصلوه في القصر واضطروه إلى العودة إلى قرطبة، فعاد في شهر جمادى الثانية من هذه السنة ثم استبدَّ أمية بولايتها ودس على عبد الله بن حجاج من قتله فقام أخوه إبراهيم مقامه وظاهر بنى خلدون على قتل أمية فقتلوه وكتبوا إلى الأمير إنهم ما قتلوه إلا لنبذ طاعته، فأرسل إليهم عمه هشام بن عبد الرحمن الثاني واليا على اشبيلية فحبسوه وقتلوا ابنه وتغلب كريب على الولاية^(١).

وفي سنة ٢٨٢^(٢) أرسل الأمير عبد الله جيشا إلى اشبيلية تحت إمرة ابنه المطرف ووزيره القائد عبد الملك بن أمية وكان هذا وزير محمد الأول وابنه المنذر وهو الذي حرَّضه على قتل وزيره هاشم بن عبد العزيز، وكان المطرف ييغض القائد لأنه كان يشير على أبيه أن لا يقلده ولاية العهد بعد قتله أخاه محمدا - فلما قرب الجيش من اشبيلية قبض المطرف على ابن أمية وقتله وقدم على قيادة العسكر أحمد بن هاشم وناشب أهل اشبيلية الحرب فانهمزوا وقتل كثيرا منهم، وقبض المطرف على خالد بن حجاج وإبراهيم بن خلدون وكبلهما بالحديد ثم سار إلى شذونة وكتب أمانا لأهلها فدانت له وقبض على واليها سليمان بن محمد بن عبد الملك وكبله بالحديد وضمه إلى ابن خلدون وابن حجاج وبعث بالثلاثة إلى قرطبة فسجنوا رهائن على أداء الخراج ففي السنة عينها أتت جباية اشبيلية

(١) انظر نوَّار اشبيلية في الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومقدمة دوزي لتاريخ ابن عذاري ص ٥٣ ولا يخفى ما في هذا من المغايرة لما سبق في تاريخ كندى وروى.

(٢) كذا في ابن عذاري وفي ابن خلدون ٢٨٣.

وشذونة وأطلق سراح المسجونين ولكن ترك ابن حجاج ابنه عبد الرحمن رهينة في قرطبة.

اقتسم ولاية اشبيلية إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون وبقياء كذلك أعواما وكان الثاني مستبداً عسوفاً فنفر منه الناس ومالوا إلى الأول لأنه كان رفيقاً بهم - انتهز ابن حجاج فرصة ميل الناس إليه ونفورهم من قرينه فدس إلى الأمير عبد الله يطلب الولاية ليشتد بكتابه على ابن خلدون فكتب له بذلك عهده فظهر للعمامة فثاروا جميعاً بكريب فقتلوه وأخاه خالد سنة ٢٧٦.

فاستقام لإبراهيم الأمر وحده في اشبيلية والكور الملاصقة لها وحصن مدينة قرمونة وجعلها مرتبطاً بخيله - ولما قوى سلطانه وعظم شأنه طلب من الأمير اطلاق ولده الرهين فلم يسعفه فنبذ الطاعة وظاهر ابن حفصون - ولم يزل إبراهيم يرسل من يشير على الأمير بإطلاق ولده حتى أجاب وأطلقه وأعظم الإحسان إليه فعاد إبراهيم إلى الطاعة.

قال حيان بن حلف: لما ملك إبراهيم اشبيلية وقرمونة وما والاها ارتفع ذكره وبعد صيته واتخذ لنفسه جندا ورتب لهم الارزاق فكمل في مصافه خمسمائة فارس وكان له قاض يقوم بالحكم وصاحب مدينة يقيم الحدود وجرى في ذلك كله مجرى السلطان وفي قرمونه كانت مرابط خيله وكان يكثر التردد بينها وبين اشبيلية ومن ذلك قول الشاعر أحمد بن عبد ربه في قصيدة طويلة يمدحه:

واشـبـيلـيـة الزهراء تزهر بوجهه

وقرمونة الغراء ذات الفضائل

إذ ما تجلّت تلك من نور وجهه

غدّت هذه للناس في زى عاطل

وإن حلّ هذى فهو يوحش هذه

فتهدى برسل نحوه ورسائل

وقد اختطفته المنون سنة ٢٨٨ وولى بعده ابنه عبد الرحمن إلى أن مات سنة ٣٠١ وكان أخوه محمد بن إبراهيم صاحب قرمونة فى حياة أبيه وبعد موته وكانت دولته بقرمونة أضخم من دولة أخيه باشبيلية وتوفى سنة ٣٠٢ (١).

مقتل ابنى عبد الله محمد والمطرف وغيرهما

قال ابن خلدون: قد أكثر المطرف من السعاية فى أخيه محمد عند أبيهما حتى إذا تمكنت سعائته وظهر سخطه على ابنه محمد لحق حينئذ ببلد ابن حفصون ثم استأمن ورجع وبالعالم المطرف فى السعاية إلى أن حبسه أبوه ببعض حُجَر القصر وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه المطرف على قصره فقتل أخاه فى محبسه مفتانا بذلك على أبيه، وحزن الأمير عبد الله على ابنه محمد وضمّ ابنه عبد الرحمن إلى قصره وهو ابن يوم قبرى مع ولده ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة سنة ٢٨٣ ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ففتك المطرف بالوزير لعداوة بينهما وسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله شر قتلة نأر فيها منه بأخيه محمد وبالوزير وعقد مكان الوزير لابنه (٢) مروان فترفع على الوزراء فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه هشام بن محمد ولفقت بذلك شهادات اعتمد القاضى حينئذ قبولها فتمت الحيلة وقتل مروان وهشام سنة ٢٨٤.

ويؤخذ من مقدمة دوزى لتاريخ ابن عذارى:

أن المطرف كان يحسد أخاه البكر محمدا على ولاية العهد لهذا كان يكثر السعاية فيه عند أبيهما فتأججت نار العداوة بين الأخوين حتى إن محمدا قابل يوما فارسا من فرسان أخيه فانقض عليه وقتله فخشى من قصاص أبيه فعول على الفرار فكسر أبواب السجن وفك أسر السجناء وكانوا من المولدين والنصارى وفرّ بهم إلى بيشتر عند ابن حفصون شيخ المولدين الذى كان يظهر الإسلام ويبطن

(١) انظر ابن عذارى ص ١٣٠ وما بعدها.

(٢) يقول ابن خلدون: لابنه «أمية» ويقول غيره: ابن ابنه (مروان) لا أمية والظاهر صحة الأخير.

النصرانية، ليجمع تحت رايته جميع العرب والبربر الناقمين ويكون مملكة نصرانية في الاندلس، فبذل الأمير ما في وسعه في أن يتزع ابنه من حزب المولدين فخاطبه أن يعود إلى قرطبة وهو يعفو ويصفح فعاد محمد لكن أخاه ما زال يسعى فيه لدى الأمير ويتهمه حقاً أو بهتاناً بأنه يفاوض ابن حفصون ويؤامره إلى أن حبسه وقتله أخوه في ١٣ شوال سنة ٢٧٧ (١٤ يناير سنة ٨٩١).

لما عاد المطرف إلى قرطبة قتله أبوه في ١٠ رمضان سنة ٢٨٢ (٢ نوفمبر سنة ٨٩٥) وكان ابن سبع وعشرين سنة كأخيه محمد حين قتله.

وعهد الأمير عبد الله بأعمال وزيره المقتول إلى ابنه مروان فتكبر على بطانة الأمير فاتهموه بالسعى في خلعه وتولية أخيه هشام الذي كان والي جيان وقائد ميمنة الجيش فعهد الأمير بتحقيق هذه التهمة إلى القاضي فخوفاً من أن يجيء دور اتهمه حكم بصحتها، وقد جرت في ذيلها أحمد بن هشام حفيد عبد الرحمن الثاني وغيره فأمر الأمير بتنفيذ حكم القاضي فنفذ على المتهمين يوم السبت ٢١ شوال سنة ٢٨٤ (ابن الأبار).

حوادث رية:

رية كورة كبيرة مخصصة بالاندلس قبلى قرطبة متصلة بالجزيرة الخضراء لها مدن وحصون ورستاق واسع^(١) كانت عاصمتها أرشدونة^(٢) ومن أعمالها مالقة^(٣) وبیشتر.

أما مالقة فهي مدينة قديمة عامرة على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية وبالنظر لوضعها المناسب كثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى فاقت أرشدونة وصارت هذه كرستاق لها^(٤).

(١) ياقوت.

(٢) أبحاث دوزى ج ١ ص ٣١٩.

(٣) يخطئ دوزى ابن خلدون في أن رية اسم مالقة القديم - راجع أبحاثه ج ١ ص ٣١٩.

(٤) ياقوت.

وأما يُّشتر فهي حصن منيع على قمة جبل شامخ على فرسخ من غربي انتقيرة
ازاء نهر^(١) بين الحصن وقرطبة ثلاثون فرسخا^(٢).

كان هذا الحصن ملاذ ابن حفصون من الدولة الأموية.

بعد موت المنذر وهو يحاصر يُّشتر ورجوع الأمير عبد الله إلى قرطبة (كما
ذكرناه آنفا) استفحل أمر ابن حفصون والثوار وتوالت عليه الغزوات والحصار
وكان ابن الأغلب صاحب أفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسيين بالاندلس فتناقل
على إجابته، فأمسك وأكثر الأجلاب على قرطبة وبنى حصن (بلاية) قريبا منها
وغزاه عبد الله حتى فتح هذا الحصن واستحج وقصده في حصنه فحاصره أياما
وانصرف عنه فاتبعه ابن حفصون فكرر عليه الأمير وهزمه واثخن فيه وافتتح البيرة
من أعماله ووالى الحصار عليه في كل سنة... سار إليه الوزير أحمد بن أبي عبدة
فحاصره فاستنجد بإبراهيم بن حجاج الثائر باشبيلية ولقياه فهزمهما وراجع ابن
حجاج الطاعة وعقد له الأمير عبد الله على أشبيلية.. ثم راجع ابن حفصون طاعة
بنى أمية عندما هيا الله للناصر ما هياه من استفحال الملك واستنزال الثوار واستقام
إلى أن هلك سنة ٣٠٦ لسبع وثلاثين من ثورته كذا يؤخذ من ابن خلدون وهو كلام
مجمل يفصله ما يأتي:

يؤخذ من ابن عذارى أن عبد الله لما ولى الخلافة رأى ابن حفصون أن يدخل
في طاعته فأرسل ابنه حفصا إلى قرطبة مع جماعة من أصحابه على أن يعقدوا مع
الأمير صلحا على أن يستقر ابن حفصون في يُّشتر على الطاعة، فقبل الأمير
وأصدر ابنه ورسله محفوفين بالكرامة والرعاية ووجه معهم عبد الوهاب بن عبد
الرءوف والبا على كورة رية ومشارك لابن حفصون، فمكثا شريكين في الأمر
والنهي إلى أن غلب ابن حفصون على عبد الوهاب وأخرجه من الكورة وتعدى

(١) أباحت دوزى.

(٢) ياقوت.

على أهل البلاد وسلب أموالهم حتى همّ الناس بالجلء من قراهم ولم يبق بالقنانية قرية إلا غشيتها الخيل وعمّتها الذلة والويل - وملك ابن حفصون استجة وارجذونة - فلما رأى الأمير ما أحاط بقرطبة أمر بإخراج السراق إلى فحص الربرض بشقندة فلما شدّت أطنابه ومدّت حباله وأسبابه بعث ابن حفصون خيلا لعلها تأخذ السراق السلطاني فخرج إليها الفرسان فردّوها ووصلوا إلى ابن حفصون فدفعوه من الجهة فأوى إلى حصن (بليّ) بقبرة فجمع له الأمير أهل قرطبة وسار إليه في نحو أربعة عشر ألفا وحشد ابن حفصون نحو ثلاثين ألفا فصدمه الأمير بمن معه فنثر عقده وفرّق جمعه فعملت السيوف في رقابهم حتى رويت الأرض من دمائهم ودخل الأمير عبد الله القلاع النائرة وملكها، ولما رجع ابن حفصون إلى بيشر حشد أعوانه وخرج بجمعه إلى البيرة فتغلب عليها وقبض على عاملها فأخرج إليه الأمير العسكر مع ابن أبي عبدة، فلما تدانى الفريقان هجمت خيل قرطبة على خيل العدو فبدّدت شمله وأثقل ابن حفصون بالجراح وآب إلى حصن بيشر.

وثار سوار بن حمدون بحصن منت شقند^(١) فقام إلى جعد عامل البيرة وهزم جمعه وأخذه أسيرا ثم أطلقه وسار سوار إلى غرناطة وأغار على حصون ابن حفصون فاجتمع أهل البيرة في نحو ثلاثة وعشرين ألفا فلقبهم سوار في عدد قليل فانهزموا وقتل منهم نحو عشرة آلاف وذلك في سنة ٢٧٦.

وكان جعد الشائر بالبيرة متفقاً مع ابن حفصون فأعمل جعد الحيلة في الغدر بسوار فأغار على جهته في نفر يسير وقد أكنن له كميناً فبرز إليه سوار واقتفى آثاره فوقع في الكمين وأحذقت به الخيل وقطع رأسه وانهزم عسكره وأرسل جعد رأس سوار إلى ابن حفصون، وثار سعيد بن جودي بالعرب وعارض ابن حفصون حتى ضايقه فعمد هذا الحيلة حتى أسره وأقام عنده شهوراً في بيشر حتى فدى بمال

(١) يؤخذ من غيره أنه حصن منت شيقر.

كثير فاطلقه من وثاقه فخالف على الأمير عبد الله إلى أن مكر به وقتل في دار عشيقته له يهودية.

وتولّى أمر العرب بجانب البيرة محمد بن أضحي فحارب ابن حفصون لكن هذا أسره حتى فداه العرب بمال جسيم وأطاع الأمير.

وثار سعيد بن مستننة بكورة باغة^(١) واقتعد حصونها فاستفحل أمره وشره وعم أذاه واصطفى من حصونها أربعة ذات حصانة ومنعة وفي سنة ٢٨٤ وما بعدها دخل ابن حفصون استجة الدخلة الثانية فأخرجه منها إبان ابن الأمير عبد الله وقائده ابن أبي عبدة.

وفي سنة ٢٨٦ أظهر ابن حفصون النصرانية وكان قبل ذلك يسرها فتبرأ منه خلق كثير ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد فتابعته عليه الغزوات بالصوائف والشواتي لا ينني القواد عنه في الحل والترحال، وفي ذلك قال ابن قلزم لابن أبي عبدة:

ففي كل صيف وفي كل مشنّى
غزاتان منك على كل حال
فتلك تبديد العدو وهذى
تفيد الإمام بها بيت مال

وفي سنة ٢٨٧ صلب رجلان من رجال ابن حفصون يسمّى أحدهما إسحاق قال الآخر حين رفع في الخشبة: غدرت بي يا إسحاق فضربت مثلاً.
وفي سنة ٢٨٨ قبضت رهائن ابن حفصون وتحولت الصائفة لشذونة وغيرها من الكور.

وفي سنة ٢٩٢ خرجت الصائفة إلى عمر بن حفصون وتحول العسكر إلى

(١) قال ياقوت: باغة مدينة بالاندلس من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها وفي قبلى قرطبة منحرفة عنها يسيراً وبينهما ٥٠ ميلاً.

حصونه فهتك بعضها وفيها كانت الوقعة العظيمة على ابن حفصون بوادي (بلون) من جيان وكان قد توالى إليه أهل الخلاف وخرج مغيرا على المسلمين فهزم وقتل كثير من رجاله.

وفى سنة ٢٩٣ كان خروج الصائفة إلى فهر بن أسد وهو بحصن تش من كورة جيان فافتتح الحصن وأخذ أسيرا وقدم به إلى قرطبة فأمر الإمام عبد الله بصلبه عند القصابين فى ربيع الآخر.

وفى سنة ٢٩٤ غزا أبان ابن الإمام عبد الله بالصائفة إلى الجزيرة وقاد الخيل أحمد بن أبى عبدة فحل بها يوم الجمعة لتسع بقين من رجب ثم تقدم إلى حصن لوزة يوم السبت لانسلاخ رجب، فحارب الحصن وحاصره وقتل جماعة ممن فيه ثم تقدم إلى حاضرة رية وفيها مشاور بن عبد الرحمن فأحرقت أرباض الحاضرة وحوصر من كان فيها، فدعا مشاور إلى السلم وبذل الرهائن فأجيب إلى ذلك ثم تقدم القائد إلى الساحل فجال فيه أجمع وخرج على حصن البيرة وقفل منصرفا إلى قرطبة فدخلها يوم السبت لليلتين خلتا من ذى القعدة.

وفى السنين التالية غزا أبان ابن الأمير عبد الله وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة ابن حفصون وأشياعه عدة غزوات كتب النصر فيها لهما والخذلان له.

وفصل ابن عذارى وقعة (بلى)^(١) فى موضع آخر نقلا عن (بهجة النفس) فقال ما مؤداه: فى سنة ٢٧٨ (٨٩١) ألب ابن حفصون على الأمير عبد الله ثلاثين ألفا من كور الأندلس وأقبلوا عند حصن بلى وضيقوا على إقليم قرطبة وأضرّوا به حتى أغاروا على أغنامه، فخرج إليهم عبد الله فى ١٨ ألفا وقتلهم حتى هزمهم وقتل كثيرا منهم وفتح حصن بلى فوجده مُترعا بالذخائر والعدد ثم قصد استجة فحارب

(١) يقول ياقوت: بلى ناحية بالاندلس من فحوص البلوط ابن خلدون: بلابة حصن بناء ابن حفصون قريبا من قرطبة ويقول ابن عذارى: بلای من عمل قبرة.

أهلها وفتك بهم فتكا ذريعا حتى رفعوا الأطفال على الأيدي فى الأسوار مستصرخين راغبين فى العفو فعفا عنهم.

وقال نويرة فى هذه الواقعة: لما تولى عبد الله ألب ابن حفصون وحشد كور الأندلس حتى لم يبق فيها إلا قرطبة وأقبل فيمن أطاعه من أهل الكور وخرج إليه الأمير عبد الله فى أربعة عشر ألفا من أهل قرطبة خاصة وأربعة آلاف من حشمه ومواليه، فبرز إليه ابن حفصون فى سفح الجبل ونازله فلم يكن إلا صدمة صادقة حتى أزالوهم عن مراكزهم، ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقى فيه فثلم فيه ثلثة أخرج منه أهله وما كان له، فلما انتهى ذلك إلى أهل عسكره ولّوا مدبرين لا يلوى أحد منهم على أحد فقتلوا قتلا ذريعا ودخل منهم جماعة فى عسكر الأمير فأمر بالتقاطهم وجلس لهم فى مظلة فقتل بين يديه ألف صبورا. ويستخلص من دوزى ما يأتى:

سار السلطان فى ربيع سنة ٨٨٩ (٢٧٥ و ٢٧٦) إلى قلعة يُّشتر فحاصروهم ثم عاد إلى قرطبة بعد أربعين يوما وكانت نتيجة هذه الغزوة عقيمة.

وعقب ذلك خرج ابن حفصون واستولى على بلاد وحصون منها استجة وبيانة والقلاع العظيمة التى فى جنوب النهر الكبير بالإجمال، كان أغلب الأندلس فى قبضة يده، حتى إن السلطان المغلوب على أمره لم يستطع أن ينصب واليا فى البيرة ولا فى جيان.

استكبر ابن حفصون من امتداد سلطته وحدثته نفسه أنه بعد استيلائه على قرطبة بصير حاكم الأندلس الأكبر، لكنه يخشى أن ينازعه العرب فى السلطان حينما يثول إليه فرأى أنه إذا جاءه تقليد بولاية الأندلس من خليفة بغداد لا يأبى العرب طاعته، فكتب ابن الأغلب والى أفريقيا فى ذلك وهاداه فبعث إليه والى بهدايا نفيسة وشجعه على مقصوده ووعد بالسعى لدى الخليفة فى مأربه - عندئذ طمع ابن حفصون أن يأخذ قرطبة ويرفع راية بنى العباس فاقترب منها وجعل

استنجة مركزه العام، وفيها كان يتردد من وقت إلى آخر إلى بلى ليحث على إتمام التحصينات التي كان أمر بإقامتها فيها حتى تصبح منيعة ويجلب إليها عساكره - بذلك أحرق بقرطبة خطر عظيم وهددها بلاء جسيم.

حاصر ابن حفصون قلاع قبرة التي كانت للسلطان واستولى اليأس على هذا لقله جنوده لكن فضل أن يموت في ساحة القتال موت الأشرف - فرح ابن حفصون وعجب من عزيمة السلطان على المقاومة وقال لابن مستنة: «من يخبرني أن السلطان تحرك للسير نحونا أعطيه خمسمائة دوقه Ducat»^(١)، بعد زمن قليل جاءه نبأ وهو في استنجة بأن خيمة السلطان العظيمة نقلت إلى سهل شقندة - لما سمع هذا النبأ عزم على أن يحرقها حتى يجعل السلطان عرضة لاستهزاء المستهزئين فأخذ معه بعض الكتائب وساروا إلى هذا السهل حتى بلغوه أول الليل وانقضوا على أحراس الخيمة، هؤلاء وإن كانوا قليلين لكنهم دافعوا عنها بشجاعة واستجدوا بصرخانهم عساكر ضاحية المدينة فانجدوهم على الفور - رأى ابن حفصون أن العقابة ستكون وبالا عليه فنكص ومن معه على أعقابهم واتبعهم عساكر السلطان وفتكوا بهم حتى لم يدخل حصن بلى مع ابن حفصون إلا فارس واحد - في صباح تلك الليل بكر أهل قرطبة وقابلوا عساكرهم وهم عائدون ومعهم خيل مكسوبة ورءوس مقطوعة ففرحوا بهذا النصر المبين.

في افريل سنة ٨٩١ (المحرم سنة ٢٧٨) أخذ السلطان وجنوده طريق حصن بلى وساروا حتى بلغوا يوم الخميس نهيرا يجري على مسافة نصف فرسخ من الحصن وكان عددهم أربعة عشر ألفا^(٢) منهم أربعة آلاف فقط عساكر منتظمة وكانت جنود ابن حفصون ثلاثين ألفا وكانت الواقعة في اليوم الثاني أي يوم الجمعة: في أول النهار أخذ ابن حفصون يرتب عساكره للمعركة عند سفح

(١) نقد ذهبي يختلف مقداره باختلاف البلاد.

(٢) تقدم أنهم ثمانية عشر ألفا.

الأكمة المقام عليها الحصن وأخذ جيش السلطان فى السير نحوه، وكان قائده العام عبد الملك بن أمية فلم يحسن قيادته إذ أمره بالتقهقر نحو جبل فى شمال القلعة وفى هذا الوضع تكون ظهور العساكر جهة العدو فهرع حيثذ قائد المقدمة عبيد الله بن أبى عبدة إلى السلطان وصاح: «إلى أين نساق يا أمير أنجعل ظهورنا نحو العدو فيظن أننا نخافه فينقض علينا ويقطعنا قطعاً» فلم يماره السلطان فى الحق بل سأله: «ماذا ينبغي أن نفعل» فأجابه القائد: «نتجه نحو الإمام ونهجم على العدو هجمات صادقات ويفعل الله ما يريد» فأمره السلطان أن يفعل ما بدا له فرجع مسرعاً إلى فرقته وأمرها بالانقضاض على العدو بصرامة فابتدى القتال واستمرت ناره إلى أن تقوى الجناح الأيسر من العساكر السلطانية على الجناح الأيمن من عسكر العدو العدو وهزمه وقطع رءوس كثير من رجاله وحملها إلى السلطان، فوعد كل عسكرى يقدم إليه رأساً بجزء حسن بعد هزيمة الجناح الأيمن هزيمة تامة انقضّ الجيش السلطانى كله على الجناح الأيسر وكان قائده ابن حفصون نفسه فبذل كل ما فى وسعه فى أن يثبت أقدام عساكره، فلم يفلح بل تركوا ميدان الوغى وولّوا الفاتكين بهم ظهورهم فأراً بعضهم إلى استجة والسيوف تعمل فى رقابهم وبعضهم إلى حصن بلى ومعهم زعيمهم ابن حفصون، وفى الليل ثلموا ثلثة فى حائط الحصن وفروا منها مسرعين.

فى أثناء الفرار كان ابن مستنة بجانب ابن حفصون فمأزحه قائلاً له: «لقد نذرت أن تعطى خمسمائة دوقه لمن ينبشك بمسير السلطان نحونا، الآن يجب عليك أن تفى بما نذرت، ليس من السهل أن تقهر الأمويين كما كنت نظن ماذا تفكر فى ذلك» أجابه ابن حفصون، وماء الغيظ يغلى فى صدره: «أنكر فى أن الدائرة ما دارت علينا إلا من جيبك وامشالك، أنتم لستم رجالاً» لما بلغ ابن حفصون أرشدونة أمر السكان أن يرحلوا إلى قلعة بيشترو واستمر فى سيره إليها، وأمر السلطان بقتل ألف أسير بالسيوف، ثم دخل حصن بلى فوجد فيه كميات

وافرات من النقود والذخائر وآلات الحرب وبعد أن أقام حامية فيه توجه إلى حصن استجة فحاصرها بعض أساييع إلى أن صعد النساء على الأسوار ورفعن أطفالهن على الأيدي مستغيثات لما غشيهن من الجوع، فعفا السلطان عن المحصورين جميعا وأخذ رهائتهم وولّى عليهم والياً ثم توجه إلى يَشْتَر ثم إلى البيرة وأخذ رهائن من أهلها وعاد بجيشه إلى قرطبة.

هذه الواقعة من الوقعات المعدودات ولولا انتصار السلطان فيها لسقطت دولة بني أمية في الاندلس - بهذا الانتصار رجع إلى السلطان مقامه الأول وعاد إلى طاعته بلى واستجة وارشدونة والبيرة وجيآن وانكسرت شوكة ابن حفصون وحصل انقلاب في الرأي العام، فرأى الناس أن السلام في طاعة السلطان وترك الفوضى، طلب ابن حفصون الصلح فأجابه السلطان إليه على شرط أن يقدم ابنه رهينة فغشّ وقدم ابناً لغيره فكشف غطاؤه ولامه السلطان على الغش فزعر إلى ديدنه وشنّ الغارة على ارشدونة والبيرة وجيآن سنة ٨٩٢ (٢٧٩)^(١).

وفي سنة ٨٩٣ غزا جيش السلطان تحت إمرة المطرف ضواحي يَشْتَر وحاصر البيرة وآمن أهلها من كل خوف فسلموا إليه ضابط ابن حفصون وعساكره، ومن ذلك الوقت عظم النفوذ السلطاني واستمرّ.

في ذلك الوقت انقسم عرب غرناطة إلى حزبين حزب سعيد بن جودي (يظهر أن المطرف نصبه على البيرة) وحزب محمد بن أضحي أمير الحامة وكان أحدهما يحقد على الآخر ويسعى في قتله.

تغيّظ من سعيد كثير من الرؤساء لتكبره وفجوره حتى إن أحدهم المسمى أبا عمر عثمان لما بلغه أن امرأته ضربت موعدا لسعيد في بيت يهودية عزم على أن

(١) لا يخلو هذا من نظر فإنه يبعد أن يقوم لابن حفصون قائمة بعد سنة من انكساره في وقعة بلى الانكسار الهائل.

يفسّل خجله في دم الفاجر، فترقب مجيئه في الميعاد وانقضّ عليه وقتله سنة ٨٩٧^(١)، بعد قتل سعيد انفرد ابن أضحى بالرياسة على العرب.

وفي سنة ٨٩٩ أظهر ابن حفصون النصرانية هو وذوو قرياه وكان يخفيها من قبل خداعا فانصرفت قلوب المسلمين عنه وناصبوه العداء. اهـ.

يؤخذ من ابن خلدون أنه في عهد الأمير عبد الله كان عبد الرحمن بن مروان مستقلا في بطليوس وسعدون السرساقي في قلنبرة ومحمد بن تاكيت في ماردة وكان بها جند من العرب وكتامة، فأعمل الحيلة في إخراجهم منها ونزلها هو وقومه مصمودة وعظمت الفتنة بينه وبين ابن مروان فحاربه هذا وهزمه واستلحم قومه فاستجاش بسعدون فلم يعنه فقصّ هذا من جناح ابن تاكيت وعلا كعب ابن مروان إلى أن هلك... وعقد الأمير عبد الله على بَطْلْيُونَسَ لأميرين من العرب فاضطربا وقتل أحدهما الآخر واستقل ببطليوس ونازل حصون البربر حتى طاعوا وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة ثم اصططحوا وأقاموا جميعا طاعة الأمير عبد الله ثم تحاربوا فاتصلت حروبهم إلى آخر دولته.

توفي الإمام عبد الله ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠^(٢) وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما ودفن في قصر قرطبة مع أجداده الأمراء، وكان له من البنين أحد عشر منهم محمد المقتول أبو عبد الرحمن الناصر ومن البنات ثلاث عشرة.

ذنابات:

الأولى: كان للأمير عبد الله حاجب^(٣) ووزراء وكتّاب وصاحب شرطة وقضاة فكان حاجبه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد حاجب أخيه المنذر من قبل ثم عزله وولى مكانه سعيد بن محمد بن السليم ثم عزله ولم يولّ الحجابة أحدا - ومن

(١) هذه العبارة تخالف ما قاله ابن عذارى في هذا الموضع.

(٢) قال ابن عذارى: إنه كان ابن اثنتين وسبعين سنة.

(٣) منصب الحاجب في ذلك الزمن الغابر كمنصب رئيس الوزراء في زماننا هذا ١٣٣١ للهجرة.

وزرائه براء بن مالك القرشي، وعباس بن عبد العزيز القرشي، وعبد الملك بن عبيد الله بن أمية، وعبيد الله بن محمد بن أبي عبدة، وأصبع بن عيسى بن فطيس ومن كتابه عبد الله بن محمد الرجالي - وكان صاحب شرطته موسى بن زياد ولما ولي القضاء خلفه يحيى بن زياد ثم مات وبقيت الشرطة بدون وال ستين ثم وليها قاسم بن الوليد الكلبي، كان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله فإذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته، وما كان يحاوله من حسم الفتن خاض معهم في الأخبار والعلوم - قد فتح بابا في القصر سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوما معلوما في الأسبوع ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا.

الثانية: وكان الإمام متفتتا في ضروب العلوم بصيرا بلغات العرب - اعتذر إليه يوما بعض مواليه فقال: إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبي عن باطل تنصلك ولو أقررت بذنبك واستغفرت لجرمك لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك، قال: قد اشتمل الذنب على وفاق الخطأ بي وإنما أنا بشر وما يقوم لي عذر فقال: سهلا عليك رويدا بك تقدمت لك خدمة وتأخرت لك توبة وما للذنب بينهما مدخل وقد وسعت الغفران» وأملى كتابا إلى بعض عماله: «أما بعد فلو كان نظرك فيما خصصناك به واهتباك به على حسب متوترك بالكتب واشتغالك بذلك على مهم أمرك لكنت من أحسن رجالنا عناء وأتمهم نظرا وأفضلهم حزما، فاقبل من الكتاب فيما لا وجه له ولا نفع فيه واصرف همك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه غناؤك إن شاء الله، وكان شاعرا مطبوعا له أشعار حسان فمن قوله يتغزل في صباه:

ويجي على شادن كحيل
في مشله يخلع العذار
كأنما وُجنتاه ورد
خيالطه النور والبهار

قَضَّيْبَ بَانَ إِذَا تَشْنَى
يَدِيرُ طَرْفًا بِهِ أَحْوَرَارِ
فَصَفَّوْ دَى عَلَيْهِ وَقَفَ
مَا أَطْرَدَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

ومن قوله:

يَا مَهْجَةَ الْمَشْتَقِ مَا أَوْجَعَكَ
وَيَا أَسِيرَ الْحَبِّ مَا أَخْضَعَكَ
وَيَا رَسُولَ الْعَيْنِ مِنْ لِحْظِهَا
بِالرَّدِّ وَالتَّبْلِغِ مَا أَسْرَعَكَ
تَذْهَبُ بِالسَّرِّ فَتَأْتِي بِهِ
فِي مَجْلَسٍ يَخْفَى عَلَى مَنْ مَعَكَ
(كَمْ حَاجَةً أَنْجَزْتَ إِبْرَاهِيمَ
تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَا أَطْوَعَكَ)^(١)

ومن قوله فى الزهد:

يَا مَنْ يَرَوَاعِيهِ الْآجِلُ
حَتَّى أَمَّ يَلْهِيكَ الْأَمَلُ
حَتَّى أَمَّ لَا تَخْشَى الرَّدَى
وَكَمَا أَنَّهُ بِكَ قَدْ نَزَلَ
اغْتَفَلْتَ عَنْ طَلَبِ النِّجَاةِ
وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلَ
هِيَ هَاتِ يَشْفُوكَ الْمَنَى
وَلَا يَدُومُ لَكَ الشُّغْلُ

(١) اقتصر ابن عذارى على الأبيات الثلاثة وزاد الرابع المقرئ.

وله أيضا في الزهد:

أرى الدنيا تصير إلى فناء
وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالإنابة غيّر وان
على شيء يصير إلى فناء
كأنك قد حملت على سرير
وغيب حسن وجهك في الثراء
فنافس في التقى واجنح إليه
لعلك ترضين رب السماء

الثالثة: قد صرح الفقيه أبو محمد بن حزم بدم هذا الأمير، وقال: إنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات وترك المنكرات، فإنه احتال على أخيه المنذر على إثارة له وواطأ عليه حجّامه بأن سم له المبضع الذي قصده به وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون، ثم قتل ولديه معا بالسيف واحداً بعد واحد قتل محمداً والد الناصر وقتل أخاه المطرف ثم قتل أخوين له معا، أيضاً قتل هشاماً منهما بالسيف والقاسم بالسم إلى غير ذلك. اهـ. من ابن عذارى.

٨- عبد الرحمن الناصر:

ابن محمد المقتول ابن الأمير عبد الله (من ٣٠٠ إلى ٣٥٠هـ):
قتل محمد ابن الأمير عبد الله في ريعان شبابه وترك ولداً حديث عهد بالوجود اسمه عبد الرحمن^(١) وقد سبق ذكر ذلك.
هذا الولد قد عني بتربيته وتعليمه في القصر جده^(٢) وكان يحبه ويؤثره على

(١) يقول كندی: إن أمه مسيحية تسمى مريم أو مارية وفي التواريخ العربية أن أمه أم ولد تسمى مزنة.
(٢) يقول كندی: قد أحسن مريوه تربيته منذ نعومة أظفاره وقد انتخبهم له جده فأقرءوه القرآن ولما بلغ الثامنة علموه السنة والنحو والشعر والأمثال وتاريخ حياة الملوك وسياسة الملك وعلوم أخرى اجتماعية - ثم علموه ركوب الخيل وفن الحرب عندما أخذ يخطو في الحادية عشرة.

بنيه حتى بلغ أشدّه فكان يرشحه لولاية الأمر بعده ويقيمه مقامه أحيانا في أيام الأعياد لتسليم الزوّار والجنود عليه، حتى وصّى أخيرا بولاية عهده له أمام الأمراء والوزراء وولاية الأقاليم فانجذبت قلوب أهل الدولة والرعيّة إليه وأحبته لجمال سجاياه الفطرية وكمال مزياه الكسبية، ولما وقد نفوسهم من قتل أبيه شابا.

فلما مات الأمير عبد الله أجلسوا حافده عبد الرحمن^(١) على كرسى الخلافة ولم ينازعه فيها أعمامه ولا أعمام أبيه بل كانوا أوّل من بايعه.

ووافق يوم توليته الملك يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢) وفي ذلك اليوم يقول أحمد بن عبد ربه من قصيدة:

بدا الهــــــــــــــــلال جــــــــــــــــديدا

والملك غض جــــــــــــــــديدا

يا نــــــــــــــــمة الله زيدي

إن كان فيك مــــــــــــــــزيد

إن كان للصــــــــــــــــوم فطر

فأنت للدهر عــــــــــــــــيد

وكان عمره يوم ولايته ينيف عن اثنين وعشرين سنة، ودام ملكه إلى يوم الأربعاء ٣ رمضان سنة ٣٥٠ (١٦ أكتوبر سنة ٩٦١)^(٢) فتكونت مدة حكمه نصف قرن ونصف سنة ونحو ثلاثة أيام.

(١) الحافد ابن الابن وكذا الحفيد.

(٢) قال رومي: (ص ٩٨ ج ٤) إن مدة حكمه ٤٩ سنة ويوم من ١٤ أكتوبر سنة ٩١٢ إلى ٢٥ أكتوبر سنة ٩٦١ وفي تقييداته أن المدة بالحساب الهجرى ٥٠ سنة و ٦ أشهر إلا ٣ أيام من خمسة ربيع سنة ٣٠٠ (٢٠ أكتوبر سنة ٩١٢) إلى ٧ رمضان سنة ٣٥٠ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١) اهـ. وفي كلامه نظر فإنه ذكر في أعلى صحيفته أن مبدأ تاريخه (١٤ أكتوبر سنة ٩١٢ لا ٢٠ أكتوبر من هذه السنة وعلى حسابه الهجرى تكون المدة خمسين سنة وستة أشهر زائدة ثلاث أيام لا ناقصة هذه الأيام فإنه بدأها باليوم الخامس من ربيع وختمها في السابع من رمضان - ومع هذا المبدأ والنهاية مغايران لما هو مذكور في التواريخ العربية الصحيحة. =

كان أسلافه الأمويون في أسبانيا يلقَّبون بالأمرء فقط كمن تولاهما قبلهم منذ الفتح ولم ينزعوا إلى انتحال ألقاب الخلفاء في الشرق مع أنهم كانوا ملوكاً متفردين بحكوماتهم وأعداء للعباسيين وكانوا يستعملون النقود الشرقية، فلما تولى عبد الرحمن الثالث تلقب بالخليفة الناصر أمير المؤمنين وضرب نقوداً جديدة كتب عليها اسمه وهذه الألقاب، قال أبو الفداء: «كان أبيض أشهل حسن الوجه وهو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الاندلس بألقاب الخلفاء وتسمى أمير المؤمنين وكان من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف، وبقي عبد الرحمن كذلك إلى أن مضى من إمارته سبع وعشرون سنة (كذا) فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق وظهور الخلفاء العلويين بأفريقية ومخاطبتهم بأمير المؤمنين أمر أن يلقب بالناصر لدين الله ويخطب له بأمير المؤمنين»^(١).

وقال ابن خلدون: «إنه أول من تسمى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق واستبدَّ موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاة سنة سبع وعشرين وثلاثمائة (كذا) فتقلب بألقاب الخلفاء».

مأخذ عبارى أبى الفداء وابن خلدون تاريخ ابن الأثير^(٢) وقد جاريه في أن سنة التلقب السابعة والعشرون بعد الثلاثمائة ونحا منحى عبارة ابن خلدون المقرئ لكنه خالفه في تاريخ هذه السنة كأنه يؤهمه، فقال: «إنه أول من تسمى منهم بالاندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبدَّ موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاة سنة سبع عشرة وثلاثمائة فتقلب بألقاب الخلافة» وفي تاريخ قتل المقتدر في كليهما نظر فإن

= وقد اعتمدنا في مقارنة التاريخ الهجرى بالتاريخ الميلادى على التقويمات الالهامية لمحمد مختار باشا المصرى غير أنه جعل مبدأ ربيع سنة ٣٠٠ يوم الجمعة والتواريخ العربية تثبت أنه يوم الخميس.

(١) انظر حوادث سنة ٣٥٠ من تاريخ أبى الفداء ص ١٠٨ ج ٢.

(٢) انظر حوادث سنة ٣٥٠ في الجزء الثامن.

المقتدر قتل في سنة عشرين وثلاثمائة كما يتبين ذلك من كلام ابن خلدون نفسه على بنى العباس^(١).

خطأ رومى أبا الفداء في سنة تلقب عبد الرحمن باللقاب الخلافة وأفاد أنه تلقب بهذه الألقاب منذ سنة ٣٠٢ وهاك تعريب ما أخذناه منه في هذا الموضوع^(٢).

«في سنة ٣٠٢ (٩١٤) أمر عبد الرحمن الثالث بتغيير سكة نقود الذهب والفضة وكان أسلافه يحافظون على صورة وقالب نقود خلفاء دمشق فكانت نقود اسبانيا لا تختلف عن نقود الشرق إلا في تعيين السنة والمحل اللذين ضربت فيهما سواء في ذلك دنائير الذهب ودراهم الفضة وفلوس النحاس، فلما جاء أمر أن يكتب على وجه منها اسمه وألقابه التي منها منذ سنة ٣٠٢ لقب الإمام المختص بالخلافة (كذا) وعلى الوجه الآخر (الشهادتان) الاعتراف بوحدانية الله وبرسالة نبيه محمد كما جرت العادة بذلك في الشرق من قديم من عهد معاوية وأن يكتب على حافة أحد الوجهين السنة والمحل اللذان ضربت فيهما... لم يسبق لأحد من أسلافه أن تلقب بأمير المؤمنين، فقد دلنا وصف مدينة ماردة بين الآثار على أن عبد الرحمن الثاني كان يلقب بالأمير فقط، فدعوى أبي الفداء بأن عبد الرحمن الثالث ما تلقب بأمير المؤمنين إلا في السنة الخامسة والعشرين (كذا) من حكمه باطلة بأكثر من دليل وبنصوص المؤرخين الثقات التي أوضحها نصّ (العبر Elabar)^(٣) وهو «لما علم عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس درجة المجد التي ارتقى إليها المعزّ الفاطمي (في أفريقية) وأنه تلقب بأمير المؤمنين ورأى من جهة أخرى انحطاط خلفاء بغداد رأى إمكان تسميته بأمير

(١) انظر ج ٣ ص ٣٩١.

(٢) ص ١٠٢ ج ٤.

(٣) لا يعلم الاسم العربي الذي يعنيه رومى بهذا اللفظ الافرنجى إلا أنه قال في تقييدهاته: «إنه مخطوط عربي من الاسكوريال Escorial ولعل اسمه (العبر) فانظر.

المؤمنين مثلهم ومن هذا الحين أخذ لقب الناصر أيضا إلى أن مات سنة ٣٥٠ للهجرة.

وقال ابن الشحنة في سنواته مع الصراحة:

«وتسمى عبد الرحمن بن محمد بالناصر لدين الله مع لقب أمير المؤمنين الذى أخذه فى السنة الثانية من خلافته فى الوقت الذى انحطت فيه دولة العباسيين فى الشرق من اعتداء (موالى) الترك عليها وأسلافه لم يلقبوا إلا بالأمراء» فقد صرح كلا المؤرخين بما دعا عبد الرحمن إلى التقلب باللقاب اسمى من ألقاب أسلافه وقد عزيا ذلك إلى أصلين ارتفاع سلالات (كذا) جديدة فى أفريقية وانخفاض العباسيين فى الشرق لاستبداد الجنود التركية بأموارهم من عهد المعتز بالله (كذا) يولون الخلفاء ويعزلونهم على حسب أهوائهم، فعبد الرحمن الثالث هو أول من وضع اسمه وألقابه على النقود المضروبة فى عهده، كان يقرأ على أحد وجهيها فى الوسط «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وفى الحافة باسم الله ضرب هذا الدرهم فى الاندلس فى سنة ٣٠١ (٩١٣) (كذا) وعلى الوجه الآخر فى الوسط «الإمام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين» وفى الحافة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (كذا).

وقد يرى على النقود العربية الأسبانية المضروبة فى ذلك العهد أسماء الحجاب وربما دلّ هذا على اتساع دائرة نفوذهم، ذكر ابن حيان أنه كان يضرب من دراهم الفضة بقدر ما يضرب من دنانير الذهب باسمه واسم حاجبه وكان يخطب باسم هذا فى جوامع أسبانيا، ويرى من نقود المنصور فيما يأتى أن اسم الحاجب كان يوضع عادة تحت (شهادة) وحدانية الله... إلخ.

انتهى ما عربناه من كلام رومى ولا يخلو من مغامر.

١- فإن لقب (الإمام) ليس مختصاً بالخلفاء فإن أصحاب المذاهب الأربعة

يلقبون بالأئمة: الإمام مالك والإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل ويقولون أيضا الإمام الغزالي والإمام الرازي وإمام المحققين وإمام المصلين اللهم إلا أن يخصص بمن له السلطان الديني والديوي على المسلمين.

٢- وأن أبا الفداء لم يذكر سنة خمس وعشرين كما عزاها إليه رومي.
٣- وأول كلامه لا يطابق آخره ففي الأول عيّن سنة ٣٠٢ (٩١٤) وفي الآخر أفاد أن النقود مكتوب عليها سنة ٣٠١ (٩١٣).

٤- ونصّ (العبر Elabar) لا يقوم دليلا لرومي فإن (المعزّ) الفاطمي لم يرتق إلى الخلافة في أفريقية إلا منذ سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.
٥- وكان الظاهر أن يقول: (ارتفاع الفاطميين) بدل قوله: (ارتفاع سلالات جديدة).

٦- والمعزّ بالله الذي زاد اسمه على النصين اللذين جاء بهما خليفة عباسي تولى سنة ٢٥٢ وشغب موالى الترك كان قبل هذا التاريخ أيضا.
٧- وعبارته أولا تفيد أن (الشهادتين) الاعتراف بواحدانية الله وبرسالة نبيه محمد تكتبان في وجه واحد وعبارته أخيرا تفيد غير ذلك.

وقال ابن عذاري: «هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو الناصر ثم تسمى منهم من كان بعده من خلفائهم بإمرة المؤمنين وأثر اللقب السلطاني، وذلك حين هاجت الخلافة العباسية وضعفت وظهرت الدولة التركية والديلمية فصارت إمرة المؤمنين لائحة بمنصبه وكلمة باقية في عقبه فاستهل الخطيب في جامع قرطبة أحمد بن بقيّ بن مخلد يذكر هذا الاسم المخلّد يوم الجمعة الأول من سنة ٣١٦» وذكر في حوادث سنة ٣١٦ أن الناصر رأى أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه بأمير المؤمنين فعهد إلى أحمد بن بقيّ صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة له يوم الجمعة مستهل

(كذا) ذى الحجة بلقب أمير المؤمنين ونفذت الكتب إلى العمال بمثل ذلك في يوم الخميس لليلتين خلتا (كذا) من ذى الحجة سنة ٣١٦ وهاك نسخة الرسالة النافذة في ذلك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فإننا أحقُّ من استوفى حقّه وأجدرُّ من استكمل حفظه وليس من كرامة الله ما ألْبسه للذی فضلنا به وأظهر أثرنا فيه ورفع سلطانتنا إليه ويسرّ على أيدينا دركه وسهّل بدولتنا مرامه وللذی أشاد فی الآفاق من ذكرنا وعلوّ أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا وأعان من انحرافهم إلینا واستبشارهم بدولتنا والحمد لله ولیّ الأنعام بما أنعم به وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا ورودها علينا بذلك إذ كلّ مدعو بهذا الاسم متحلّ له ودخيل فيه ومتّسم بما لا يستحقّه وعلمنا أن التمدّی على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله والله المستعان وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا (كذا) من ذى الحجة سنة ٣١٦. اهـ^(١).

وذكر في حوادث هذه السنة أيضا أن الناصر أمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة لضرب الدينار والدراهم وولى خطتها أحمد بن موسى بن جدير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان وأقام الضرب من هذا التاريخ، وكانت مثاقيله ودراهمه عيارا محضاً من خالص الذهب والفضة، فكلام ابن عذارى صريح في أن عبد الرحمن تلقب بأمير المؤمنين وأمر بضرب النقود في سنة ٣١٦ والظاهر أن هذا هو الصحيح المعوّل عليه، ويؤيده ما قاله دوزي: من أن عبد الرحمن أمر بأن

(١) انظر ابن عذارى (ص ٢١٢ ج ٢) ووفق بين قوله «يوم الجمعة مستهل ذى الحجة» وقوله «يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة» والظاهر أن قلّبه عكس التاريخين فوضع أحدهما موضع الآخر.

يلقب باللقاب (الخليفة وأمير المؤمنين والناصر لدين الله) وأن يخطب له على المنابر بتلك الألقاب منذ يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩^(١).

استولى عبد الرحمن الثالث على عرش الإمارة وأسبانيا قد ثار ثائرها وفار فائرها ونبذت كورها طاعة قرطبة وتفرد الولاة بولاياتهم وقطعوا أواخي التبع لبنى أمية فأطفأ نيران الثائرين وكبح جماح المخالفين حتى تابوا إلى الطاعة واستقامت له البلاد، لكن أقاليم الشمال لم تدخل كلها في دائرة سلطانه بل بقيت جليقة في أيدي الجلالقة.

غزواته الداخلة

فتح استجة: في جمادى الأولى سنة ٣٠٠ (ديسمبر سنة ٩١٢) أغزى الناصر حاجبه بدر بن أحمد مدينة استجة فهدم سورها وفتحها وولى عمالتها حمدون بن بسيل.

فتح جيان والبيرة: وفي هذه السنة أراد عبد الرحمن أن يجنى ثمار النصر بنفسه ويقاسم جنوده تكاليف الغزو في ساحات الوغى لينال معهم الفخر والمجد فقاد جيشاً جرّاراً إلى جيان في ٧ رمضان (١٧ إبريل سنة ٩١٣) ففرح الجنود بإمرة ملكهم الشاب العظيم وانتعشت أرواحهم بالحماسة، ولما وصل الملك إلى كورة جيان علم أن ابن حفصون اتفق مع الحزب الثائر في ارشذونة ففصل قسماً من جيشه وأمره بالتوجه إليها سريعا ليحول دون مأرب ابن حفصون فتم ذلك وخاب أمل الثائرين وحاصر السلطان حصن (المتلون) يوم الأحد فاذعن له بالطاعة أمير الحصن سعيد بن هذيل يوم الثلاثاء، وعقب فتح هذا الحصن الحصين توالى فتح ثمانية حصون أخرى بدون ريث ولا توقف منها (شمتان) و (متيشة) و (الشارة) وأمرؤها عبيد الله بن أمية بن الشمالية وإسحاق بن إبراهيم وعبد العزيز بن عبد الله على، وقد أذعن أمراء هذه الحصون كلها إلى طاعة السلطان واستأمنوه فأمنهم

(١) انظر دوزى ج ٢ ص ٤٩.

وبعث بهم ونسائهم وأولادهم تحميهم كوكبة من الفرسان إلى قرطبة وأقام في الحصون عمالاً يثق بهم ثم انتقل إلى كورة البيرة وفعل بحصونها كما فعل بأمثالها من قبل، غير أن حصن فنيانة (Fināna) توقف لأن من به من أشياخ ابن حفصون أقنعوا السكان بأن المدينة منيعة، ومع هذا لم تطل مدة التوقف فإنهم لما رأوا الجنود يحرقون أرباضها خابروا السلطان وقبلوا أن يسلّموا إليه شيعة ابن حفصون كما طلب ثم توغل عبد الرحمن في السبل الوعرة من جبال (نفادة) فأخضع أمراء حصونها - حين ذاك علم أن ابن حفصون يهدد مدينة البيرة فبعث إليها مددا يساعدها على دفع إغارته عليها، فلما علم حاميتها بقرب وصول المدد إليهم خرجوا ودفعوا العدو بالقرب من غرناطة حتى ألجأوه إلى الهرب وأسروا حفيده عمر بن أيوب.

في أثناء ذلك كان عبد الرحمن يحاصر حصن (شُبَيْلس)^(١) وقد التجأ إليه من فرّوا من الحصون الأخرى وكان من أعظم حصون ابن حفصون منعة وأصعبها مراما ودام الحصار خمسة عشر يوما في نهايتها رضح أهل الحصن لطاعة السلطان وأنزلوا إليه شيعة ابن حفصون فضرب رقابهم وأقام في الحصن من يدير عمله ثم سار في طريق البيرة ففتح مدينة (شلوبينية)^(٢) وقصد حصن (استين) وحصن (بنة فراطة) وكانا أعزّ مراما من وكر العقاب يفرع منهما دائما سكان البيرة وغرناطة فاحدقت جيوشه بها وحاربوهما عشرين يوما حتى استولوا عليهما.

تظهرت حيثئذ كورتا جيان والبيرة وما والاها من الاشقياء المفسدين وسرت في ربوعهما روح السلام وقد تسنى للسلطان ذلك في نحو ثلاثة أشهر فقتل راجعا إلى قرطبة ودخل قصرها يوم عيد الأضحى (١٨ يولية سنة ٩١٣).

فتح اشبيلية: بعد موت عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج صاحب اشبيلية في

(١) قال ياقوت شبيلس حصن حصين بالاندلس من أعمال البيرة قريب من برجة.

(٢) قال ياقوت بفتح أوله... حصن بالاندلس من أعمال كورة البيرة

المحرم سنة ٣٠١ (٩١٣) أقام أهلها أحمد بن مسلمة من سلالة بنى حجاج خلفا له فبعث إليها الناصر جيشا تحت قيادة الوزير أحمد بن جدير فحاربها وأوقع بأهلها، عندئذ جاء قرطبة محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة وعرض نفسه على الخليفة لمحاربة أهل اشيلية فبعثه لذلك مع قاسم بن الوليد الكلبي فحاصرها شهورا. لما رأى ابن مسلمة وأشراف اشيلية أن المقاومة تطول ولا تجدى نفعا خابروا بدرا الحاجب وكان قد حضر المعسكر ليساعد الجيش المحاصر فوعدهم بأن حكومة قرطبة تحفظ للاشبيليين ما كان لهم من العادات والخصائص فى عهد بنى حجاج، حيثئذ فتحو أبواب المدينة يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٣٠١ (٢٠ ديسمبر سنة ٩١٣) فدخلها بدر وهدم أسوارها وأصلح شئون أهلها وأقام سعيد بن المنذر عاملا عليها^(١).

عاد محمد بن حجاج إلى قرمونة مغاضبا لأن أمر اشيلية لم يؤل إليه وكان يترقبه فأرسل إليه الناصر قاسما صديقه الحميم يستقدمه إلى قرطبة فاقنعه بشرط أن يخلفه عامله حبيب بن سودة فى قرمونة ورجع إلى الخليفة (فى إبريل سنة ٩١٤) فقلّده الوزارة.

وأما أحمد بن مسلمة فقد ولى الشرطة العليا فى قرطبة.

فتح قلهرة: فى يوم الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة سنة ٣٠١ فتح أهل (الثغر) مدينة (قلهرة) وكانت بأيدي المشركين^(٢).

فتح رية: بعد فتح كورتى جيان والبيرة غزا الناصر كورة رية فافتتح حصونها واستأمنه أهلها فأمّنهم ولم يقف أمامه إلا حصن (طرش)^(٣) Talx وكان فيه ابن حفصون نفسه - ما كان يتوقع أن يفوز عبد الرحمن سريعا فى هذه الكورة كفوزه فى الكورتين السابقتين لأن ابن حفصون نشر فيها لواء العصيان ونفخ فى أرجائها

(٢) ابن عذارى.

(١) ابن عذارى ودوزى.

(٣) قال ياقوت «طرش» بفتح أوله وتشديد ثانبه وضمه ناحية بالاندلس تشتمل على ولاية وقرى.

روح النصرانية، حتى كاد ظل الإسلام يتقلص من ربوعها لكن سهل فوز السلطان ما شهدته فيه نصارى اسبانيا من معاملة رعاياه بالحسنى والعدل سواء في ذلك المسلمون والنصارى وأنه كان يراعى شروط البلاد المفتوحة ولا ينقضها وأنه كان يخفف المغارم التي طالما أثقلت كواهل الأهلين.

في هذا الحين قام أسطوله بأمر جلل وهو استيلاؤه على سفن ابن حفصون التي كانت تنقل إليه الأقوات من أفريقية، في أثناء عودة السلطان إلى عاصمته مرّ على (الجزيرة) ثم على إقليمى شذونة وموزور^(١) Moron ثم وصل إلى قرمونة في اليوم الثامن والعشرين من يونية سنة ٩١٤ وكان فيها حبيب القائم مقام محمد وقد رفع لواء الثورة، أمن تلقاء نفسه كان العصيان أم بايعاز من أميره؟ ترجحت تهمة الشق الثانى عند السلطان فعزل محمدا من مرتبة الوزارة وأمر بزجّه فى السجن، حاصر المدينة عشرين يوما فى نهايتها استأمن حبيب وفتحت المدينة أبوابها أما محمد بن حجاج فاطلق سراحه لكنه لم يتمتع بالحرية طويلا بل مات فى ابريل سنة ٩١٥ م وبموته انقضت دولة بنى حجاج بعد أن لعبت دورا عظيما فى تاريخ اسبانيا^(٢).

لزيادة البيان فى غزوة الناصر السابقة نأتى بما ذكره ابن عذارى فيها مع تصرف قال:

(غزاة أمير المؤمنين إلى كورة رية والجزيرة وقرمونة) فى ثامن شوال هذه السنة (٣٠١) فظل غازيا فوجّه حاجبه بدرا إلى حصن (بلدة) فالفى أهله على غرة فقتل منهم وسبى وأسر وتوجه الناصر نفسه بجيوشه إلى حصن (طرش) وحاصره أياما يغاديههم الحرب ويماسيهم ويقطع ثمارهم ويحطم معابشهم ويقتل من تظاهر منهم وأبقى الحصار وتنقل إلى حصون رية ومعاقل ابن حفصون يتبعها معقلا

(١) بزاي معجمة بعد الواو الأولى وراء مهملّة بعد الواو الثانية، انظر الهامش الآتى - الاسم الافرنجى مأخوذ عن دوزى.

(٢) دوزى ص ٣٣٨ ج ٢.

معتقلا ويوقع بأهلها المشركين وقائع عظيمة حتى ذهب كثير منهم وبعث برءوسهم إلى قرطبة وألفى لابن حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العدو فأحرقها وأسرع من كان بتلك الجهة من أهل (شانر) وفج (وسيم) و (قلبيرة) و (القصر) وما انتظم بها من أحواز (الجزيرة) إلى الدخول في الطاعة والاعتصام بها من الهلكة فقبلهم وأمنهم وسكن أحوالهم، وتنقل منها إلى حاضرة الجزيرة^(١) ثم إلى كورة شذونة ثم إلى كورة مورور^(٢) ثم أوفى على مدينة قرمونة فاحتلها يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة، وكان حبيب قد أظهر الخلاف فيها فحوصر عشرين يوما حتى استأمن فأومن وأخرج بأهله وأثقاله إلى قرطبة وقفل الخليفة إليها فدخلها يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ٣٠١.

وفي هذه الغزاة بعث في قاسم بن وليد الكلبي صاحب الشرطة وكان قد خالف بقرطبة فسجن وسجن معه محمد بن إبراهيم بن حجاج وعزل ابن مسلمة عن الشرطة العليا ووليها عباس بن أحمد بن أبي عبده. اهـ.

في سنة ٩١٥ (٣٠٣) أجديت الأرض وأعقب الجذب مجاعة هائلة فوباء حتى إن سكان قرطبة كانوا يموتون بالألوف وكَلَّت سواعدهم عن دفن موتاهم وقد قام السلطان وأهل دولته ولا سيما حاجبه بدر بكل ما في وسعهم لتخفيف ويلات الفاقة بكثرة الصدقات على ذوى المتربة - ولم يمكن أن يكون في هذه السنة غزو بل إن الناصر ضبط أطراف البلاد وتحفظ برعاياه من عادية أهل الخلاف سكان الجبال إذ كان يدفعهم الجوع إلى شن الغارات على البلاد الموالية للخلافة.

وفي آخر سنة ٣٠٦ للهجرة^(٣) (مايو سنة ٩١٩ للميلاد) قضى نعبه عمر بن

(١) يريد الجزيرة الخضراء فإن أعمالها تتصل بأعمال شذونة كما في ياقوت.

(٢) براءين بينهما واو كذا في ابن الأثير وابن عذارى ولكن رأيت في ياقوت ما نصه «موزور» اسم المفعول من الوزر اسم لكورة بالاندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة وهي عن قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الزيتون والفواكه بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا.

(٣) كذا يؤخذ من ابن خلدون وروى كما سيأتي وفي ابن عذارى أنه هلك سنة ٣٠٥ وفي دوزي ٩١٧.

حفصون بعد أن صرف هو ووالده حفصون نحو نصف قرن في إثارة الثورات وشن الغارات على الأمويين حتى كاد يتلّ عرش ملكهم من اسبانيا ولذا فرحوا بهبوط انوائه - بموت عمر بن حفصون لم تنقطع الحروب في إقليم رية بل مكثت عشر سنين أيضاً.

ففي ذي الحجة سنة ٣٠٦ غزا الناصر مدينة (بلدة) فأحاطت بها العساكر فانضم من كان فيها من المسلمين إليهم واعتذروا بأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمنهم الناصر وقاتل النصاري المخالفين حتى ظفر بهم وملك المدينة.

ثم انتقل إلى حصون رية فتقرّأها معقلاً معقلاً يفتح ما مرّ به ومنها ثم نزل على حصن يُّشتر فحاصره حتى سأله جعفر بن عمر بن حفصون الصلح وقدم إليه رهائن على طاعته وعلى أداء خراج سنوي فأجابته الناصر إلى ذلك وقفل إلى قرطبة فدخلها في المحرم سنة ٣٠٧.

وفي سنة ٣٠٧ احتلّ جنود السلطان بحصن طرُش وكان به عبد الرحمن بن عمر بن حفصون فأسلمه إليه بدون قتال وتوجّه إلى قرطبة فأنزل وأكرم وكان غير داخل في الحروب والفتن مدخل أبيه وأخوته، بل كان مولعاً بالكتب ونسخها لحسن خطه.

يؤخذ من دوزي أن جعفرًا اقترف خطأ عظيماً كان طالعه عليه نحسًا: اعتقد أن والده أخطأ في إظهار نصرانيته ونصرانية أسرته لأنه بذلك أبعد قلوب المسلمين عنه، هذا لا ريب فيه لكن الأمر وقع ولا مردّ له وكان يجب أن يركن بنو عمر إلى جنودهم النصاريّ دون المسلمين فإن هؤلاء وقد انكشف الغطاء لهم عن بواطن أولئك لا يضافونهم، وفيما وقع عند حصار مدينة (بلدة) شاهدٌ مقنّع ومع هذا كان جعفر يعتقد أن في الإمكان استرضاء المسلمين عنه برجوعه إلى دينهم فأظهر الإسلام ولم يحسب حساباً لما يحيط به، فكانت العاقبة وبالاً عليه فإن جنوده النصاريّ غضبوا عليه واعتقدوا فيه الالحد فأمروا به وقتلوه سنة ٩٢٠م وأعلنوا

إمارة أخيه سليمان في يُّبشتر فبادر بالعودة إليها (وكان في جند السلطان) لكن كانت إمارته شؤماً، فقد ساد فيها الفساد وظهر فيها العصيان وطرده الثائرون من المدينة وأطلقوا سراح من سجنهم ونهبوا قصره، لكن بعد يسير من الزمن علم أشياعه أنه دخل المدينة خفية فانضموا إليه وتغلبوا على أخصامه وانتقموا منهم شر انتقام ومع هذا لم يغش زمناً طويلاً بل قتله جنود السلطان أثناء مناوشة في ٦ فبراير سنة ٩٢٧ وخلفه أخوه حفص، لكن دقت ساعة نحسه وجاءه جيش السلطان ورحصر يُّبشتر من جميع الجهات وقطع معاشها حتى ألجأه بعد ستة أشهر أن يسلم المدينة في يناير سنة ٩٢٨ (في ذي القعدة سنة ٣١٥) فاحتلها الجنود وحملوه واسرته إلى قرطبة.

ناقت نفس السلطان إلى رؤية هذا الحصن المنيع الذي صدّ هجمات أربعة ملوك في مدة خمسين سنة فتوجه إليه بنفسه بعد شهرين من افتتاحه فرأه جائماً كالعقاب على طود شامخ ذا قلاع حصينة وأبراج تناطح السحب فأيقن أن ليس لهذا الحصن نظير في الأرض بأسرها وسجد لله شكراً على أن ملكه إياه. لم يخذش وجه فخار الناصر إلا ضعف عزيمته أمام إلحاف فقهاء اتبعوه وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حفصون وابنه جعفر من قبورهما فأذن فأزعجوا الاشلاء من نومها الأبدى وبعثوا بها إلى قرطبة فصلبت^(١).

ثم استولى على المواقع التي كانت في أيدي الحفصونيين وأعدم أفراداً منهم وأبقى على آخرين وبعث بمن يخشى شرهم إلى قرطبة. وبذلك استقامت له بلاد رية.

لم يكن الغزو قاصراً في السنين السالفة على جبال رية بل كان يجاوزها إلى عدة جهات أخرى ففي سنة ٩٢١م استنزل الناصر ذراى ابن مستنة من حصونهم في جبال باغة Priego وأخضع بربر بنى المهلب في كورة البيرة وفي سنة ٩٢٢م

حصار حصن منت رويى، وكان من أمنع معاقل بنى حفصون متوسطا بين جيان
والبيرة مشيدا على جبل شامخ يعز على من رامه وطالما ألقى الرعب فى قلب
الحكومة وكان سكانه يغيرون على القرى المجاورة لهم وينهبونها ويسفكون دماء
أبناء السبيل ويسلبون أموالهم ولم يفتحها السلطان إلا بعد أربع سنين من حصاره.

وفى سنة ٩٢٤ اضططر عصاة كورة بَلَنْسِيَّة إلى الطاعة وبعد ستين أغزى الناصر
قائده عبد الحميد بن بسيل بنى ذى النون فانتصر عليهم.

رأى السلطان أن لا خوف حيثئذ من جهة الجنوب فوجه كل قواه إلى عصاة
كورة أخرى فظفر بهم - ففى سنة ٩٢٨ أغزى قائده أحمد بن إسحاق إلى كورة
تدمير فاخضع عصاتها - وفى السنة التالية انتظمت باجة Béja فى سلك الطاعة بعد
أن قاومت خمسة عشر يوما ثم وجه السلطان جيوشه إلى خلف بن بكر أمير
أكشونية فأطاع والتزم بأداء الجزية فى كل سنة.

وفى سنة ٩٣٠ خضعت مدينة بطليوس بعد أن حاصرها جنود السلطان سنة
كاملة وكان يحكم فيها أمير من سلالة ابن مروان الجليقى.

ليكون عبد الرحمن وارثا ملك أسلافه لم يبق عليه إلا إخضاع مدينة طليطلة
فبدأ بإرسال وفد من الفقهاء إلى أهلها ينههم إلى أنه ليس من الحكمة أن يتمادوا
فى غيهم ويصروا على عصيان السلطان، وقد دخلت جميع بلاد اسبانيا فى الجنوب
والشرق والغرب فى دائرة طاعته فلم ينجح هذا الوفد فى مسعاه فأرسل الناصر فى
شهر مايو سنة ٩٣٠ وزيره سعيد بن المنذر إلى طليطلة فحاصرها - وفى شهر يونية
سار السلطان بنفسه يقود جيشا كثيفا إلى هذه المدينة ولما قرب من حصن مورة
أمر صاحبه أن يخليه فلم يسعه إلا أن بادر بتركه فأقام فيه عبد الرحمن حامية ثم
حوّل معسكره إلى جبل جرنكش بالقرب من طليطلة وأخذت عساكره تحطم
الزروع والأشجار وتحرق القرى التى فى الضاحية وتهاجم الطليطليين بشدة
عظيمة ثم عاد السلطان إلى قرطبة بعد أن أمر ببناء مدينة على هذا الجبل، فأقيمت

وسميت بمدينة الفتح، فعلم الطليطليون من بنائها أن الحصار يدوم فاستنجدوا بملك ليون ولكن جيشه صدته جنود السلطان - حينئذ أدركهم اليأس واشتدت بهم المجاعة فاضطروا إلى فتح أبواب المدينة بعد حصار ستين فعاد السلطان إليها ودخلها في أوائل أغسطس سنة ٩٣٢ وفرح السلطان بهذا الفتح كفرحه بفتح مدينة بيشتر وشكر الله تعالى على ذلك.

ولزيادة البيان نعيد ذكر بعض الحوادث السالفة مأخوذة عن ابن عذارى مع تصرف فنقول:

في سنة ٣١٤ (٩٢٦م) أغزى الناصر قواده بالصوائف ولم يغز بنفسه في هذا العام لمحل كان فيه وقحط شديد فأخرج عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الذي كان به بنو ذى النون فأوقع بهم إذ كانوا مرقوا عن الطاعة فقتل بعضهم وافتتح مدينة سُرته^(١) فدرت جبايتها واستقامت، ثم قفل عن الثغر وقد استقامتا أحواله فأخرجه الناصر إلى مدينة بيشتر ليحاصر سليمان بن حفصون في جملة القواد المحاصرين له فعارض سليمان بعض المغيرين فتبادرت إليه الخيل من جهة عبد الحميد فصرع سليمان عن فرسه فاحتزوا رأسه وقطعوا يديه ورجليه يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة وبعثوا بأشلاته إلى قرطبة فرفعت في خشبة عالية على باب السدة.

وفيها هلك العليج شانجة صاحب پنبلونة وفيها كان القحط شديدا والمحل عاما واستسقى بالناس أحمد بن بقیّ ونفذت الكتب إلى الكور في الاستسقاء فنزل الغيث.

وفي سنة ٣١٥ (٩٢٧) غزا الناصر إلى مدينة بيشتر لمحاربة حفص بن عمر ابن حفصون فنزل عليها بجيوشه وحاصرها وأقام على حصارها بعض القواد ثم تنقل عنها إلى مدن وحصون أخرى فافتتحها، منها مدينة مالقة ثم عاد إلى بيشتر

(١) بضم فكسر فتشديد أو بضم فسكون ففتح مدينة بالاندلس متصلة الأعمال بأعمال شنت برية وهي شرقى قرطبة منحرفة نحو الجوف بينها وبين طليطلة عشرون فرسخا - انظر ياقوت.

فشدد الحصار عليها بالبنيان حولها وأقام عليها قوادا يضبطون طرقها ويعترضون من يدخلها ومن يخرج منها لا يدعوا للحفصونيين مرتقفا ولا معاشا، ثم عاد إلى قرطبة فدخلها يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة وقد استكمل في غزاته هذه خمسة وستين يوما.

لما اشتد الحصار على حفص بن عمر بن حفصون بمدينة يشتر وأحيط بالبنيان عليه من كل جانب كتب إلى الناصر يستأمنه على أن يخرج من الجبل فأمنه وجاء الوزير أحمد بن محمد بن جدير به وبآله وحاشيته إلى قرطبة فدخلها في مستهل ذى الحجة وعفا عنه أمير المؤمنين وجعله من جملة حشمه ودخل جنود السلطان مدينة يشتر لسبع بقين من ذى القعدة وضبطها سعيد بن المنذر وأحكم شئونها.

وفي سنة ٣١٦ (٩٢٨) كانت زيارة الناصر وولّى عهده الحكم إلى مدينة يشتر ففصل من قرطبة يوم الثلاثاء للنصف من المحرم مارا بطريق استجة ثم أشونة، حتى احتل يشتر يوم الأحد لعشر بقين من هذا الشهر، فلما دخلها وجال في أقطارها وعابن من حصانتها وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها ما أبقن معه إلا نظير لها في الأرض حصانة ومنعة، أكثر من حمد الله على ما افتتح - وأمر بنيش جيفتي عمر بن حفصون وابنه فكشفت قبورهما وألفيا مدفونين على ظهورهما فأيقن من شهد ذلك من الفقهاء الغازين معه وغيرهم بأنهما هلكا على دين النصرانية، فاستخرجهما من لحودهما وأتى بأعظمهما إلى قرطبة ورفعت في جذوع عالية إلى جنب الملحد سلیمان بن عمر وصاروا عظة للناظرين، وقلد الناصر أمور مدينة يشتر سعيد بن المنذر واستنزل سكان حصون أخرى من أجبلهم وخرّبها ولم يبق للنصرانية بتلك الجهة حصن ولا معقل وعادت كورة رية ليس فيها جبل مضبوط ولا عدوّ محذور وأبعد إلى قرطبة من تخشى منه الفتنة ليكون الناس أمة واحدة ورعية ساكنة - وقدم عبد الحميد بن بسيل إلى كورة شذونة لهدم حصونها وتبسيط

أهلها وجمعهم إلى مدينة قلّسانة^(١) قاعدة الكورة - ثم قفل فدخل مَنية الناعورة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣١٦ وقد استتم في سفرته هذه ستة وعشرين يوما.

وفي سنة ٣١٧ (٩٢٩) احتبس الغيث وظهر المحلّ وغلّت الأسعار واستسقى بجامع قرطبة يوم الجمعة لليلة بقيت من المحرم، وفيها غزا الناصر إلى مدينة بطليوس فقطع ثمارها وقتل كثيرا من أهلها وأحرق ما أخلوه من ديارهم خارج سورهم وحاصرهم عشرين يوما، ثم أبقي عليهم أحمد بن إسحاق وفريقا من الجند - ثم انتقل إلى ماردة فأصلح أحوالها وولاهها محمد بن إسحاق - ثم عاد إلى بطليوس ونزلت عساكره عليها من جهة أخرى وأضرّوها بتشديد الحصار عليها ثم انتقل إلى باجة وحاربها ونصب عليها المجانيق وقتل كثيرا من أهلها وانحطت بعض أبراجها فاستأمن صاحبها عبد الرحمن بن مالك أمير المؤمنين فأمنه وأخرجه وأهله إلى قرطبة ودخلها وولاهها عبد الله بن عمر بن مسلمة - ثم انتقل إلى اكشونية بقرب الساحل الغربي فأطاع صاحبها خلف بن بكر فأقره الناصر وفرض عليه من الجباية ما التزم إirاده له في كل عام وعهد إليه بحسن السيرة والرفق بالرعية وألا يقبل نازعاً ولا يكتنف هاربا فالتزم جميع ما أمر به - وقفل الناصر ودخل قرطبة يوم الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من رجب.

وفي هذا العام (٣١٧) افتتحت مدينة شاطبة من بلنسية.

وفي سنة ٣١٨ (٩٣٠) افتتحت مدينة بطليوس واستنزل صاحبها ابن مروان الجليقي وأهله إلى قرطبة.

وفيها بعث الناصر وفدا من الفقهاء ذوى الثقة إلى الطليطليين يدعوهم إلى الطاعة والدخول فيما دخلت فيه الجماعة فلاذوا بمعاذير المخادعة وجابوا الناصر بما لم يصغ إليه فبعث إليهم الوزير سعيد بن المنذر في جيش عرمرم فحاصر

(١) بفتح فسكون ناحية بالآندلس من أعمال شذونة - انظر ياقوت.

طليطلة ثم فصل إليها الناصر نفسه فى جيوش كثيفة يوم الخميس ثانى جمادى الأولى واستولى فى طريقه على حصن مورة، ثم احتل محلة جرنكش بقرب طليطلة ثم نزل محلة المقبرة على باب المدينة فشدد الحصار على أهلها وضايقهم مدة سبعة وثلاثين يوماً قطع فيها ثمارهم وخرّب قراهم وحطم زروعهم، ثم أمر سعيد بن المنذر ببناء مدينة فى جبل جرنكش سماها بالفتح وأمر بنقل الاسواق إليها ثم أقام محمد بن سعيد على باب القنطرة فى فريق من الجيش وعهد إليهما بالمبالغة فى محاربة القوم - ثم قفل الناصر عن مدينة طليطلة ودخل قرطبة يوم الاثنين لأربع خلون من رجب.

وفى سنة ٣١٩ (٩٣١) بعث بالخيّل إلى القواد المحاصرين طليطلة وأمدّهم بالسلاح وأمرهم بالجد والعزم فى نكاية المحصورين وفيها (٣١٩) بلغ المحاصرين عزم الطليطليين على الخروج لانتهاز فرصة فى ثغور المسلمين فنفر إليهم الوزير أحمد بن محمد بن جدير من قرطبة فى جملة من الجنود، فلما بلغهم خروجه سكنوا.

وفى سنة ٣٢٠ (٩٣٢) فتح أهل طليطلة أبوابها للناصر فإن الحصار لما طال واشتدت وطأته عليهم استنجدوا بنصارى الشمال فلم يغنو عنهم شيئاً ولم يكشفوا عنهم ضراً بل هزمهم القواد المحاصرون، فلما ينس الطليطليون من أن ينصرهم أحد استأمنوا أمير المؤمنين فسار إليهم يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من رجب حتى نزل محلة جرنكش فتلّقاه صاحبها ثعلبة مستقيلاً من زلته فعفا عنه ثم أمن أهل طليطلة وأخرجوا إلى المعسكر وابتاعوا المعاش التى طالما أجهدهم عدمها ثم ركب الناصر إلى المدينة ودخلها وجال فى أقطارها فرأى من حصانتها ومنعتها ما دعاه إلى شكر الله تعالى كثيراً على فتحها، ثم أمر بإقامة بناء محكم ليكون مستقراً للقواد الملازمين فيها وأقام على البنيان قائده درى بن عبد الرحمن وملاها رجالاً وسلاحاً وتردد فى ربوعها ثمانية أيام يصلح شئونها ويسوس أمورها

حتى حلت بالمدينة الطمانينة وفتح أهلوها الحوانيت وانتشروا فى الاسواق آمنين
والحمد لله ثم قتل الناصر فدخل قصر قرطبة يوم السبت لعشر بقين من شعبان.
وفيهما (٣٢٠) مات الحاجب موسى بن محمد بن جدير للنصف من شهر
صفر.

بروى رومى وكندى تاريخ عبد الرحمن الثالث فى العشرين سنة السالفة
بلسان آخر فيؤخذ منهما ما يأتى:

كانت أسبانيا لأول إمارة عبد الرحمن بن محمد تتنازعها قوى مختلفة، فأبناء
حفصون تغلبوا فى أسبانيا الشرقية على الأرض التى يرونها نهر ابرة المتوسط على
الجانبين وبعض رؤساء القبائل فى الجنوب نبذوا طاعة الإمارة الأموية وأهل
طليطلة ما كانوا لها خاضعين وأولاد أذفتش الثالث كانوا فى الشمال يقتسمون
حكومة أبيهم فقسموها إلى ثلاث ممالك فأخذ منهم غرسة الأرض التى بين نهر
دويرة واستوريا والبرارى القوطية المسماة قمبوس Campos وجعل عاصمتها ليون
وأردن تملك على جليقة وفرويلة على استوريا فأول عمل عنى به عبد الرحمن أن
هدأ أسبانيا المضطربة فدعا المسلمين لجهاد أبناء حفصون المخالفين فى طليطلة
واسبانيا الشرقية، فاجتمع تحت راياته جيش كثير العدد والعُدَد يبلغ أربعين ألف
رجل فقاده عمه المظفر حتى دخل إقليم طليطلة واستولى على قلاع كانت بأيدي
الحفصونيين ولم يجرؤ ابن حفصون على المقاومة بل التجأ هو ورجاله إلى اسبانيا
الشرقية تاركاً لابنه جعفر الدفاع عن المدينة العظيمة التى اتخذها فى قلب اسبانيا
مجبناً وعضداً لحزب.

عندئذ رأى الأمير أن محاصرتها تطول لوفرة مؤنها المدخرة وامكان ثباتها
زماً طويلاً ففضل أن يتركها ويقتفى آثار أعدائه فلما أدركهم رتب المظفر فرسانه
فتولى إمرة المقدمة وأعطى القلب للأمير ابن أخيه والميمنة للوالى عبد الرحمن

ابن زيد والميسرة إلى جهور بن عبد الله والمؤخرة والعساكر الاحتياطية لعبيد الله ابن الغمري.

كانت جنود ابن حفصون أكثر عددًا يقودها شجعان أسبانيا الشرقية وجبال تدمير والبيرة لكنها كانت أقل سلاحًا وخيالًا، تقابل الجيشان في سهل متسع يمتد بين طليطلة وجبال قونكة Cuenca وأخذت الطلائع تتناوش ثم التحم الفريقان مع صرخات أفزعت القلوب وصيحات أبواق ارتعدت منها الفرائص ودارت رحى الحرب طويلا إلى أن رجح جيش الأمير واختل نظام جيش ابن حفصون وتبدد شمله تاركًا في ميدان القتال سبعة آلاف بين قتيل وجريح ملتجئًا إلى حصنه قونكة، وخسر جيش قرطبة نحو ثلاثة آلاف رجل، أمر الأمير أن يعتنى بالجرحى من الفريقين ثم عاد إلى قرطبة يحيط به الحرس تاركًا عمه المظفر يداوم الحرب مع الحفصونيين، هذه أول واقعة شهدتها الأمير.

أخضع المظفر في غزوته هذه إقليم طليطلة من السفوح الشرقية لجبال الشارات إلى إقليم تدمير ما عدا مدينة طليطلة وكثيرا من مدن اسبانيا الشرقية فإنها لم ترض إلا بإمارة غالب بن عمر بن حفصون.

وقعت هذه الحوادث في الستين الأوليين من حكم عبد الرحمن الثالث.

في أثناء ما كان المظفر يحارب الحفصونيين في الشرق على شواطئ نهر ابره كان عبد الرحمن يقود جيشًا مؤلفًا من فرسان قرطبة ومن أحراسه إلى الجنوب نحو جبال البحر ليخضع العرب المخالفين المستأثرين بأفياء^(١) الحكومة وثمرات البلاد وهم الذين عرفناهم فيما سبق يتحصنون في جبال البيرة وشمستان ورندة ويزدرون بالأمراء السالفين ويوالون اغاراتهم على أراضي الموالين لحكومة بني أمية.

نجح الأمير في غزاته هذه وفتح البلاد بشهرته وسياسته ذات اللين والمجاملة

(١) الأفياء جمع فيء ويراد به الخراج.

وكان يفعل بذاته ما يفعله جيش بسلاحه فقد كان يأتيه كثير من رؤساء القبائل من تلقاء أنفسهم طائعين ملتزمين رضاه سائليه سلاحا يقسمون أنهم يستعملونه بصدق في الذود عن بلادهم وحفظها خاضعة لسلطانه فكان يرحب بهم ويجذب قلوبهم بخطبه البليغة إلى درجة أنهم كانوا لا يردون أن يتركوا معسكره ويودون أن يقاسموه تكاليف الحرب وأخطارها.

قد أثر هذا المسلك الحسن في تهدئة البلاد المضطربة أكثر مما كانت تفعله قوة السلاح حتى إن المحاربين لحفصون الساكنين في هذه الاصقاع مدوا أيدي الطاعة لعبد الرحمن فتقبلهم بما فطرت عليه نفسه من الحسنى ناسياً عصيانهم وما جرّوه على البلاد من المصائب وخصص لكل منهم عملاً يليق به فانقلبوا يرتقون الفتوق التي اتسعت من جرّاء الحروب الأهلية وشقاق القبائل.

وكان من الرؤساء ذوى الشأن الذين أتوا طائعين في هذه الغزاة الوالى أحمد ابن محمد بن أضحي الهمداني الذي كان قائد العصاة في جبال البيرة فتقبله الأمير قبولاً حسناً وقلّده قيادة الحامة وسنراه قريباً يعود إلى الثورة.

ومنهم عبيد الله بن أمية وكان صاحب قزلونة ومن أتباع حفصون فلما جاء مطيعاً وهو من الاشراف قلّده الأمير ولاية جيان.

بعد أن زار الأمير بلاد البيرة كلها بدون أن يجد مقاومة من أى جانب وبعد أن أخضع رؤساء العصاة الأقوياء وبعد أن فتح ما ينيف عن مائتى مدينة عاد إلى قرطبة وأعاد من صحبه من الرؤساء والقواد إلى مراكزهم وكان دخوله فيها يوم عيد وسرور عام وقد استغرقت غزاته هذه سنة (٣٠٣ - ٩١٥)

لم يذكر المؤرخون حروباً بين المسلمين والنصارى في السنين الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث ويظهر أن السلم الذي كان بين عبد الله واذنش الثالث استمر مدة غربية كلها أى لغاية يناير سنة ٩١٤ على الأقل.

جاء عبد الرحمن الثالث بأعمال جليلة في أول حكمه فنظّم شؤون الجوامع

والخطابة فيها وضرب نقوداً جديدة ووضع عليها اسمه والقباه ونسخ القرآن بيده وشرحه وفسره للناس وأمر بإنشاء جوامع فى قرطبة وغيرها من مدائن الأندلس وبإصلاح القديم منها وإنشاء نافورات ماء من المرمر الجميل فى جوامع قرطبة واشبيلية يحيط بهذه النافورات بُوْحٌ يغرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرها وأمر بإصلاح قنطرة النهر الكبير العظيمة المؤدية إلى (مسقينة Mesquita).

وخلق بالذكر وجدير بثقة الأمير من اختاره لإدارة هذه الأعمال وهو نصّار أبو عثمان فانه أهل لكل اجلال لا سيما فى هندسة الابنية وتصريف المياه وصيانة الطرق والقناطر.

فى أثناء ما كان عبد الرحمن يقوم بهذه الأعمال فى قرطبة كان عمّه المظفر يعيش فى الخيام فى أسبانيا الشرقية متعقباً ابن حفصون فى هذا الحين جاء الأمير كتاب من عمّه يخبره بأنه غلب العصاة فى كل جهة وأنهم التجشوا إلى الجبال ولا يجرون على دخول القرى إلاّ خلسة ومع هذا يدعوهم إلى الحضور لانتماء أخضاعهم وتوطيد دعائم الراحة والأمن فى البلاد وأنه ينبغى لأجل ذلك أن يجمع الخيل والرجل من كورة تدمير ويطارد بهم العصاة ويقسو عليهم ويدعّ معهم سياسة اللين والرحمة جانباً فهم لا يدركونها وربما عدّوها ضعفاً.

من أجل هذا الكتاب كتب الأمير إلى قواد بلاد تدمير وبلنسية الطائمين أن يأخذوا أهبة الحرب فى أول فصل الربيع لغزو البلاد التى ما زالت فى قبضة العصاة ثم توجه إلى كورة تدمير فقبول مع تهليلات الفرح والسرور من سكان المدائن مرسية ومأريولة ولورقة وكنتدة^(١) Kenteda وزار المدن إلش ودانية وشاطبة ونوكه^(٢) Nules وطرطوشة وكان يُقَابَلُ فى كل مكان بعلامات الابتهاج. واقضى شواطئ نهر ابرة إلى أن صول إلى القنت Elcanith ووقف فيها زمناً

(١) كنتدة بلدة بالأندلس كانت بها وقعة مشهورة بين المسلمين والفرنج سنة ٥١٤.

(٢) قال ياقوت نوله بكسر أوله وفتح ثانيه حصن من أعمال مرسية بالأندلس.

يستقبل رؤساء القبائل الذين أتوا إليه طائعين وكانت قضت عليهم الأحوال بالاندماج فى حزب أبناء حفصون ثم رحل عنها فى جيش كثيف حتى وصل فى وقت قريب أمام مدينة سرقسطة.

ولغالب بن حفصون فيها أشياع كثيرون ولكن أغلب سكانها شهبوا أميالهم إلى الإمام عبد الرحمن الناصر وفتحوا أبواب المدينة وقدموا أنفسهم لرحمة الخليفة فلقبهم بما جيل عليه من الرأفة وشمل جميع السكان بعفوه حتى الحفصونيين ولم يستثن إلا أبناء حفصون أنفسهم فإن العفو عنهم يقتضى روابط وثيقة.

وفى اليوم التالى دخل عبد الرحمن سرقسطة وكان دخوله يوم عيد عند الأهلىن وأقام فى قصرها أياما اخلادا إلى الراحة مسرورا من وضعها ومزارعها الجميلة.

وقتئذ أرسل إليه ابن حفصون قائدين يخبرانه فى الصلح فقابلهما الأمير فى معسكره على شواطئ نهر إبرة غير محتفل بهما فعرض عليه أكبرهما بأدب أن الأمير حفصون يرغب أن يعيش بسلام مع الأمير عبد الرحمن وأنه يأسف على الدماء المسفوكة فى هذه الحروب وأنه فى مقابل ذلك يتعهد بالدفاع عن حدود هذه الجهة ويساعد الأمير بجنوده عند الحاجة وأنه يقدم برهانا على اخلاصه أن يسلم طليطلة وهو سقار Huescar وجميع الحصون التى فى قبضته.

فأجلبها الأمير بتؤدة أنه يالم من أن يرى فردا من رعيته شاقا عصا الطاعة يجرؤ على أن يعرض على ملكه أمير المؤمنين شروطا للصلح ويسلك مسلك أمير: ارجعا وقولا له إن لم يأت طائعا فى ظرف شهر لا أقبله بعده أبدا. رجع الرسولان يجران ذيل الخيئة.

بعد أن وطد الأمير دعائم الحكومة فى سرقسطة وأقام عمه المظفر فيها كى

يوالى الحرب على الحدود عاد إلى قرطبة زائراً في طريقه قسماً كبيراً من اسبانيا الداخلة.

لما حلّ ركابه في قرطبة قابلته الأمة بتنهيلات الفرح والسرور لكن كدّر صفوهم أن جاءت أنباء تفيد بأن عصاة جبال رندة قاموا بحركات جديدة تحت قيادة ابن أضحى الهمداني^(١) وأن أكثر من مائة مدينة دخلت في طاعته وسبب ذلك أن وزيراً دخل إقليم رندة ومعه فئة من المساكر وأجبر الأهليين على دفع المتأخر عليهم من غلال الزكاة^(٢) فكبر هذا الأمر على عظماء العرب والمولدين فثاروا وقتلوا أغلب الفئة واتسعت دائرة الثورة واجتمع شيوخ هذا الإقليم واختاروا ابن أضحى رئيساً عليهم ولقبوه بالذمر^(٣).

غضب عبد الرحمن من خيانة الذمر وأشياعه وليعاقبهم ويدفع غائلتهم عن المدائن الموالية له والمضطهدة منهم سار في جيش مؤلف من فرسان قرطبة وجنود استجة وغيرها فأجلى العصاة عن المدن التي احتلوها ودفعهم إلى الجبال ثم دخل جيان يوم الخميس رابع عشر شعبان سنة ٣٠٦ (١٩ يناير ٩١٩) ليستريح من مطاردة العصاة وليعهد إلى واليها باخضاعهم ثم عاد إلى قرطبة ومعه شاعر يسمى أغلب بن شعيب.

ما استقر قراره بقرطبة حتى جاءه نبأ من عمه المظفر يخبره بفوزه على الحفصونيين وبموت غالب بن حفصون في حصن من إقليم وشقة في آخر سنة ٣٠٦ (مايو سنة ٩١٩).

وقد خلفه ولدان سليمان وجعفر فحمد الله عبد الرحمن على موت هذا الطاغية الباذر بذور الشقاق بين المسلمين.

(١) سبق هذا جاء الأمير طائفاً فقلده ولاية الحامة.

(٢) يعني خراج الأرض.

(٣) يقول رومي Somor فمرئناه بالذمر ككتف أي الشجاع فحقق.

فى الوقت عينه حل وباء باسبانيا والمغرب خرب البلاد وأهلك العباد وعكف الناس على المساجد يتضرعون إلى الله أن يدفع عنهم سيل هذا البلاء الجارف. وقد مات فيه إسماعيل بن بُشَيْر Boshair إمام جامع قرطبة الكبير وكان مشهورا موقرا فدفن فى مشهد حافل.

ومع هذه الداهية الدهماء هبت زوايع شديدة مكثت أياما حتى اجتثت اشجارا وقوّضت بيوتنا، مع انتياب هذه الكوارث ما زالت المعارك تتعاقب بين والى جيان لب بن عبيد الله والذمر والى الحامة وقائد عصاة جبال إلبيرة حتى استنجد لب بوالى قرمونة إسحاق بن إبراهيم بن صقر العقيلي لكن لم تجد مساعدته نفعا بل قهرهما الذمر وكاد ينقض على جيان.

حينئذ جاء إسحاق قرطبة وبلغ الأمير أنباء هذه المعارك المحزنة فجمع عساكره وقادهم بنفسه إلى جيان فما وسع العصاة إلا أن يتركوا أرضها وابتجئوا إلى جبالهم.

وأدرك الذمر وأصحابه المخلصون له حصن الحامة فحصره الخليفة فيه وكانت حوائطه ثخينة جدا ومحصنة بالابراج فأمر الأمير جنوده أن يثلّموا فيها ثلثة بالمعاول والنار ففعلوا ودخلوا المدينة وقتلوا رجالها ووجدوا بين جثث القتلى الذمّر مغطى بالجروح يكابد سكرات الموت فأحضروه إلى عبد الرحمن فأمر بقطع رأسه وارساله إلى قرطبة وكان ذلك فى أول سنة ٣١١ أو آخر سنة ٣١٠ أى فى فصل الربيع من سنة ٨٢٦^(١) للميلاد فى ابريل أو مايو.

ثم توجه الأمير من الحامة إلى غرناطة ووقف فيها أياما إذ راقه جمال موقعها على نهر (الشنيل) فى واد خصيب ذى بساتين بهيجة وأمر أن يبنى فيها مسجد جامع ونصب أبا حسن على بن عمر المروانى قاضيا لها.

(١) كذا فى روى (ص ١٣٠ ج ٤) وهو سهو فإن سنة ٣١١ تنحصر فى سنة ٩٢٣ وسنة ٩٢٤ كما فى التقويمات.

بعد موت الذَّمِر قطع سكان برجالة وجبال (نفادة) كل أمل في المقاومة فأتوا خاضعين بين يدي الخليفة معترفين بسلطانه وعلو شأنه.

بعد أن سكّن عبد الرحمن اضطراب جنوب اسبانيا حول انظاره إلى فتح طليطلة وقد مكثت زمنا طويلا في أيدي أبناء حفصون.

رأى أن منعتها تحول دون الهجوم عليها وفتحها عنوة فعمد إلى وسيلة أخرى وهى التضييق عليها بالحصار الحازم وقطع معاشها حتى تضطرها المَخْمَصَة إلى التسليم فأمر عبد الله بن يعلى Laly^(١) وإلى سُرْتَة Zurita بأن يقود جيوش طليطلة وقلعة رباح إلى طليطلة ويتلف مزارعها ويحاصرهما بشدة فأخذ هذا يجول فى ضواحيها وجيوشه تقطع الزروع والنخيل والأعشاب وتمنع الطليطليين من جنى ثمراتهم واستمر ذلك سنتين.

حتى إن جعفر بن حفصون الذى كان يدافع بشخصه عن المدينة رأى أنه لا يمكنه المحافظة عليها بدون مئونة لكن كبر عليه أن يرى مضطرا إلى تسليم نفسه إلى أعدائه فجمع ما يستطيع من النقود وعهد بالدفاع عن المدينة إلى أحد قوّاده وخرج منها وقد أخذت طلّائع الصباح تهزم جيوش الليل مع نخبة من جيشه وبعض أخصّائه متجنباً لقاء أعدائه لضعف قوّته.

وذلك أنه فى السنة الثالثة من الحصار أمر الخليفة ولاية ماردة وبلنسية أن يرسلوا أمدادا إلى عبد الله فاجتمع جيوش كثيفة حول طليطلة وحلّ معسكر كثير العدد فى جهة الجوف أو الشمال وهو الجانب الوحيد الذى يمكن منه أن تهاجم المدينة فإن مياه النّاجة لا تحيط به.

وأما الجهة الذى يجرى فيها النهر فكان يظهر للمحاصرين أنها منيعة فإن الجبل التى هى عليه مرتفع غير مطروق.

(١) كذا فى رومى «ص ١٣٢ ج ٤» ويقول فى موضع آخر «ص ٢٠٠ ج ٤» عبيد الله بن أحمد بن يعلى Yali ويذكر ابن عذارى «ص ٢٣٥ ج ٢» أن من قوّاد الناصر عبد الله بن أحمد بن يعلى.

حينئذ رأى عبد الرحمن أن حان الوقت المناسب ليحاصر المدينة بنفسه فتوجه مع حرسه ونخبة من أشراف قرطبة إلى معسكر طليطلة فأثر حضوره في نشاط المحاصرين وتشديد الحصار ولما لاحظ أنهم استولوا على الجزء الأعظم من مبنيات قديمة (ربما كانت قوطبة) قائمة بين المعسكر والمدينة أمر بهدمها.

صارت طليطلة حينئذ مضغوطة عليها بشدة من الجهة التي يمكن أن تؤخذ ومحددًا بها بهمة زائدة على طول الجانب الذي يرويه نهر التاجة حتى صارت كل مقاومة مستحيلة لما رأيت المدينة أنها محاطة بجيوش من نخبة اسبانيا الجنوبية وأن المجاعة حلت بها افكرت في أن تسلم.

وفكر ابن حفصون في إيجاد طريقة يتخلص بها من المدينة التي أهدقت بها الجيوش السلطانية وضيق دائرة الحصار عليها فجمع كبراء المدينة للتشاور في الأمر.

فكان من رأى عقلائهم أن يتركوا أنفسهم إلى رحمة الخليفة، وليحسنوا الاعتذار عن مقاومتهم العنيفة الطويلة رأوا من المناسب أن يسهلوا صباح يوم الهروب على ثلاثة أو أربعة آلاف من الشجعان المدافعين عن طليطلة وأن يفتحوا في الحال الأبواب لعبد الرحمن.

استحسن جعفر هذا الرأي وأخبر به رفقاءه وشجعهم على اتباعه بدون مهلة منذ فجر اليوم الثاني.

لاح الفجر والنوم راخ سدوله على المعسكر لكن بعض الخيل انتبهت من ضوضاء سير في الأرض وقد قرب الصباح فصهلت في مدخل الخيام وقد خرج بغلة ألفا فارس وفتحوا لأنفسهم ممرا في خلال معسكر العدو وكان كل فارس يردف وراءه راجلا وقد كاد ينجو نحو أربعة آلاف رجل في خلال هرج ومرج إلا أن أفرادا منهم أمسكوا.

وقد حمل عساكر قرطبة كلهم السلاح غير أن الخليفة لما أدرك أن جعفرا

وجنوده هربوا من طليطلة منع جنوده من أن يقتفوا آثارهم وقوى أمله في الدخول حالا إلى المدينة، وقد تحقق هذا الأمل في اليوم عينه فقد حضر إليه رسل من أهل المدينة يلتمسون عفوه ويعتذرون فعفا عنهم وعذرهم لاقامتهم في المدينة وخروج ابن حفصون وجنده منها واستأنوه على أرواحهم وأموالهم فأمنهم.

وفتحوا له أبواب المدينة فدخلها في موكب حافل فقبول من الأهليين بتهليلات الفرح والسرور من كل جانب وقد وافق دخوله المدينة سنة ٣١٥هـ^(١) بعد أن مضى عليها ما ينيف عن ٤٢ سنة وهى خارجة عن حكم الأمويين.

وقد عهد بحكومتها إلى عبد الله أول محاصريها ورجع منصورا إلى قرطبة في نهاية هذه السنة ٣١٥هـ.

حروبه الخارجة:

استطاع عبد الرحمن الثالث أن يطفى نيران الثورات المشتعلة في أنحاء الأندلس في نحو إحدى وعشرين سنة وكان خاتمة ذلك فتح طليطلة في سنة ٣٢٠هـ كما قصصنا ذلك آنفا.

لم يكن يزعزع أركان دولته هذه الثورات وحدها بل كان يهدد كيانه أيضا قوتان مجاورتان لها وهما مملكة (ليون) القديمة في شمال اسبانيا ودولة الفاطميين الحديثة في أفريقية^(٢) فكان بينهما وبين دولة الأمويين حروب.

ففى أول ولاية عبد الرحمن الثالث لم يكن فى عزيمته غزو الليونيين (الجلالقة) ومع هذا بدءوا الأندلسيين بالعدوان فلما ملكهم (أردن) الثانى عاث بجيوشه سنة ٩٩٤م (٣٠٢هـ) فى أرض ماردة يحرق ويقتل حتى استولى على حصن (الحش) ^(١) وضرب رقاب حاميته واستعبد نساءهم وأولادهم ففرغ أهل

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ فتح الناصر طليطلة فمنهم من يذكر أن فتحها كان فى سنة ٣١٥ كما فى روى وابن الأثير وأبى الفداء ومنهم من يذكر الفتح فى سنة ٣٢٠ كما فى دوزى وابن عذارى فابحث وحقق.

(٢) انظر الذنابة الأولى الآتية.

بَطْلْيُونَس من ذلك فجمعوا هدايا نفيسة وقدموها إليه فقبلها وانصرف منصوراً مثقلاً بالغنائم واجتاز نهر التاجة ونهر دويرة وعاد إلى (ليون) وبنى كنيسة للعدراء شكراً على فوزه.

فأراد عبد الرحمن أن يتقم من أردن لأهل ماردة وإن لم يدخلوا في طاعته ليجذب قلوبهم إليه فاغزى إلى أرض ليون في يوليو سنة ٩١٦ (٣٠٤) جيشاً تحت قيادة الوزير ابن أبي عبدة فوطئها ونكى في الاعداء وغنم وسبى وعاد سالماً.

ثم أغزاه إليها ثانية في السنة التالية لأن سكان التخوم شكوا من احراق الليونيين قَرَى طلبيرة على نهر التاجة وأمره أن يحاصر قلعته العظيمة (سَنَتِ اشْتِينِ San Estevan)^(٢) ويسمونها قاشتر مورش.

فقد ابن أبي عبدة جيشاً كثيفاً قسم من عساكره بربر جلبهم السلطان من طنجة فشدد الجيش الحصار على هذه القلعة حتى كادت حاميتها تخضع وتسلم لولا أن أنجدها أردن فجاء وهاجم بخيله ورجله ابن أبي عبدة.

وكان في جيشه ممن لا يعتمد على شجاعتهم ولا ولائهم سوى البربر كثير من أهل الشجر ذوى النفاق فصاحوا وأظهروا الهزيمة وتبعهم غيرهم وأخلوا بنظام الجيش لكن ثبت القائد ومن كانوا على شاكلته من الأبطال ودافعوا وآثروا الموت في حومة الوغى على عار الفرار فقتلوا جميعاً، وقال بعض المؤرخين إن الباقين من جيش المسلمين انحسروا وخرجوا بدوابهم وأثقالهم إلى أرضهم سالمين^(٣).

لم تقطع هذه الكارثة حبل الأمل من عبد الرحمن بل أخذ يتأهب لاعادة الكرة على الليونيين في السنة التالية لكن صرفه عن ذلك وقوع الخلاف في انحاء

(١) كذا الاسم في تاريخ بن خلدون ويقول دوزى قلعة Alanje.

(٢) الاسم العربي من ابن عذارى ص ١٨٦ ج ٢ والافرنجى من دوزى ص ٣٤ ج ٣ ويقول ياقوت سَنَتِ اشْتَانِي كورة من الأندلس.

(٣) انظر دوزى ص ٣٥ ج ٣ وابن عذارى ص ١٧٨ ج ٢.

الاندلس وما هو حاصل في أفريقية من اغارة الفاطميين على بلاد المغرب فخشي
 إن تم لهم فتحها أن يولّوا وجهتهم نحو أسبانيا فظفّق يمدّ يد المساعدة إلى امراء
 هذه البلاد حتى يكون المغرب مجنّ مملكته دون المغيرين فإنه لما تغلب عبيد الله
 المهدي على أفريقية كتب إلى سعيد بن صالح^(١) أمير نكور^(٢) بالمغرب يدعوه
 إلى طاعته وفي أسفل الكتاب أبيات منها:

فإن تستقيموا استقم لصلاحكم
 وإن تعدلوا عني أقتلكم قَتَلَا
 وأعلو بسيفي قسأهرا لسيوفكم
 وأدخلها عفوا واملؤها عدلا
 فرفض سعيد وكتب شاعره في الذيل:
 كذبت وبیت الله لا تعرف العدلا
 ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
 وما أنت إلا كافر ومنافق
 تميل مع الجهال في السنة المثلّی
 وهمتنا العلیا لدين محمد
 وقد جعل الرحمن همتك السفلی

فاحفظ هذا الجواب عبيد الله فكتب إلى عامله في تيهرت المسمى مصالة بن
 حبوس يأمره بمحاربته فنهض في ذي الحجة سنة ٣٠٤ ونزل على مسافة يوم من
 مدينة نكور فخرج إليه سعيد فحاربه ثلاثة أيام بدون أن يظهر أحدهما على الآخر

(١) من سلالة عربية ملكت نكور وأرضها منذر من الفتح وبينها وبين دولة بنى أمية في الاندلس
 مودة وتراسل.

(٢) مدينة بالمغرب الأقصى تبعد عن البحر بخمسة أميال بناها سعيد بن إدريس وهي الآن مدينة
 المزمة أو قريب منها كذا يؤخذ من ابن عذارى ص ١٧٩ و ١٨٣ ج ١ ولم أر كليهما في
 معجم ياقوت.

لكن خان سعيداً أحد قوَّاده^(١) فرجح عليه مصالحة وغلبه وقتله واجتزأ رأسه ودخل مدينة نكور سنة ٣٠٥ وانتهبها وقتل رجالها وسبى النساء والذرارى ونجا بنو سعيد لأنهم فروا منها وركبوا البحر إلى الأندلس فنزلوا مالقة فأمر الناصر بالاحتفال بهم وإكرام مثوَّاهم وأفاض عليهم سحائب نعمة وخيَّره بين المقام فى مالقة والنزول فى قرطبة فاختاروا الأولى ليكونوا على مقربة من مجرى الحوادث فى وطنهم.

وعاد مصالحة إلى تاهرت بعد أن أقام فى نكور ستة أشهر واستخلف عليها قائداً كتابياً اسمه ذلول وهذا انقضى من حوله أغلب عسكره وعلم بنو سعيد بالأمر وكانوا ثلاثة أدريس والمعتصم وصالحا فامتطى كلُّ منهم نَجَجَ البحر فى سفينة فى ليلة واحدة قاصداً نكور بعد أن اتفقوا على أن من يصل منهم قبل أخوِّه فله الإمارة فسبق إلى الشاطئ أصغرهم وهو صالح بن سعيد فلاقاه الأهليون بحماسة شديدة وأعلنوا إمارته وذهبوا به إلى نكور وقتلوا ذلولاً وجنده وأعلن الأمير صالح سيادة الخليفة الناصر على بلاده وكتب إليه يشكر له على جميله وينبئه بالنصر فأمدّه الخليفة بالأسلحة والخيام والرايات.

ألهمت حوادث نكور عبد الرحمن عن أن يقتص من الليونيين لقتلهم قائده الشجاع ابن أبى عبدة وأبطاله وهزَّمهم جيشه لكن نصارى الشمال جاءوا بما نبَّهه إلى ادراك ثأره.

ففى فصل الربيع من سنة ٩١٨ للميلاد (٣٠٥ للهجرة) خرج اردن ابن أذفونش صاحب ليون وشانجة بن غرسية صاحب بنبلونة فى جموع كثيفة إلى مدينة ناجرة^(٢) بالثغر الاقصى وعاثت الجموع فى ذلك الثغر وأفسدت الزروع ثم تنقلت إلى تطيلة وبلغت نهر كالمس وجواثر مسقيرة ووادى طرسونة^(٣) وعبر

(١) انظر ابن عذارى ص ١٨٢ ج ١.

(٢) قال ياقوت ناجرة بكسر الجيم مدينة فى شرقى الأندلس من أعمال تطيلة وهى الآن بيد الإفرنج.

(٣) قال ياقوت بفتح أوله وثانيه مدينة بالأندلس من أعمال تطيلة.

شانجة نهر ابرة وقاتل حصن بكتيرة وقهر أهل الربض وأحرق المسجد الجامع فأحفظ ذلك كله عبد الرحمن الناصر وحركه لحربهم.

ففى سنة ٣٠٦ اغزى حاجبه بدر بن أحمد إليهم وهى غزاة مطونية ففصل فى جموع كثيرة يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم ودخل أرض ليون وواضع الليونيين القتال مرتين بالقرب من موضع يسمّى (مطونية) وظهر عليهم وقتل كثيرا من حمااتهم وأبطالهم وجنودهم وألجأ المنهزمين منهم إلى الاعتصام بالجبال وتم الفتح لخمس خلون من ربيع الأول وورد الكتاب بذلك على أمير المؤمنين يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر فشكر الله على ذلك وقرئ كتاب الفتح فى الجوامع وكتب به إلى الاطراف^(١).

بهذا الفوز محا عبد الرحمن عار ما لحق بجيشه فى العام الماضى من القتل والهزيمة لكنه رأى أن هذا القصاص لم يكف لردع الليونيين ورام فوق ذلك لن ينال شرف النصر بنفسه.

ففى سنة ٣٠٨ (٩٢٠) غزاهم غزاة (مؤش Muez) ففصل إليهم يوم السبت ثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم وفى اليوم الرابع من فصوله نزل بمخاضة الفتح وورد عليه كتاب من قبل عامل مدينة الفرج يذكر فيه أن أهل جليقية أغاروا على ما ألفوه فى بسيطهم من الدواب والسوام وأنهم كانوا بحصن القليعة طامعين فى التغلب عليه فهب إليهم أهل المدينة بفارسهم وراجلهم وواضعوهم القتال حتى قهروهم وقتلوا وأسروا كثيرا منهم فتقاء الناصر بالكتاب ونهض بعساكره حتى نزل مدينة الفرج فنظر لأهلها وعزل بنى سالم عنهم واستعمل على المدينة صهره ابن غزلان واستقضى عليهم محمد بن مسور الفقيه فصلحت أحوالهم.

ثم نهض الناصر فى جيوش تغص بها السبل ويضيق بها الفضاء حتى احتل بشغر مدينة سالم فورد عليه كتاب من عالج حصن وخشمه يعبه ويمنيه إذا صرف

(١) دوزى وابن عذارى ص ١٧٩، ١٨٠ ج ٢.

جيوشه عنه ووجهها إلى جهة أخرى فأرى الناصر أنه أعار كتابه أذنا واعية وأظهر التوجه إلى الثغر الأقصى نحو ابرة وقدمت المقدمة نحوه لكنه في الحال حوّل جيوشه إلى اليسار وسار مسرعا حتى احتل بواي دويرة.

وباتت العساكر عليه ثم أخرج في الصباح الوزير سعيد بن المنذر في جرائد الخيل وسرعان الفرسان إلى حصن وخشمة فغشوه على حين غفلة من أهله واصابوا نعيمهم وسوأهم ودوابهم مهملة فاكتسحوها وانصرفوا إلى المعسكر سالمين غانمين.

وفي صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر اندفعت الخيل في أكمل تعبئة إلى هذا الحصن ففر عنه أهله وأخْلَوْهُ ولاذوا بالغياض والصخور فدخله عساكر الناصر وغنموا ما فيه ثم رحلوا عنه إلى حصن قاشتر مورش وهي شنت اشتين^(١) بيضة النصارى وقاعدتهم.

فلما رأوا المسلمين أخلوا الحصن وفروا عنه فدخله المسلمون وغنموا ما فيه وخربوا حصن القبيلة المجاور له.

ثم ارتحل أمير المؤمنين إلى مدينة قلونية وكانت من أمهات مدنها فآلفوها خالية قد شرد عنها أهلها فغنم المسلمون ما أصابوه فيها وخربوا ديارها وكنائسها.

ثم ارتحل الناصر عنها إلى ثغر تطيلة ملييا نداء مسلميها إذ كان العليج شانجة قد ضابقهم فقطع السلطان المفاز الأعظم مسائرا لواء دويرة حتى احتل حوز تطيلة ثم قدم الخيل مع محمد بن لب عاملها إلى حصن قلّقرة^(٢) وكان فيه شانجة فأخلاه وضبطه المسلمون.

ثم نهض الناصر إلى حصن قلّقرة وكان شانجة قد اتخذه معقلا فأخلاه وغنمه المسلمون ثم التقى جيش الناصر وجمع شانجة على حصن أرنيط^(٣) فاقتلوا

(١) كذا في ابن عذارى والذي في ياقوت شنت اشتاني كورة من الأندلس.

(٢) كذا اسم الحصن في ابن عذارى ويقول دوزي Carcar قرقر أو كركر فحرر.

(٣) بضم فسكون مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة مطلة على أرض العدو... ياقوت.

فانهزم الجمع حتى توارى فى الجبال تاركاً كثيراً من القتلى والجرحى ويات المسلمون ظاهرين على عدوهم منبسطين فى قراهم ومزارعهم.

ثم ورد الخبر على الناصر باجتماع العلجين اردن وشانجة تعاضدهما طامعين فى اعتراض المقدمة أو انتهاز فرصة فى الساقة فأمر عبد الرحمن بتعبئة العساكر وضبط الأطراف وأوغل بهم فى بلادهم وواضع رجاله وأبطال الشجر وحماته اعداءهم القتال حتى هزمهم وشتوا شملهم وأخذوا يقتفون آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام ولجأ عند الهزيمة أزيد من ألف عالج إلى حصن مؤيش ورجوا التمتع فيه فأمر الناصر بتقديم المظل وخيام العسكر إلى الحصن فأحبط به من جميع جهاته حتى تغلبوا عليه واستخرجوا جميع العلوج منه وضربوا رقابهم بين يدى الناصر وأصابوا من الأمتعة والحلى المتقنة والآنية والثمرات والأنعام والخيول ما لا يكاد يحصى كثرة.

ثم انتقل الناصر إلى حصون المسلمين ينظر فى مصالحتهم فكلما ألقى بقربها معقلاً للمشركين هدمه وأحرق بسيطه حتى اتصل الحريق فى بلادهم عشرة أميال مربعة واجتمع عند الجنود من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عنه حملة ولم يجدوا لها ثمناً تباع به حتى كانوا يبيعون ستة أقفزة من القمح بدرهم فلا يوجد من يشتريها.

وقفل الناصر يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ربيع الأول حتى انتهى إلى مدينة انيسة^(١) فأقام بها يوماً ووصل رجال الثغر فكساهم وحملهم وأذن لهم فى الرجوع إلى مواطنهم ودخل قصر قرطبة يوم الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وقد استكمل فى غزاته هذه تسعين يوماً^(٢).

كان يظن بعد ما حالف النصر المبين عبد الرحمن فى غزوة (مؤيش) أن

(١) كذا الاسم فى ابن عذارى بنون فناء فناء ويقول دوزى Atienza ولم أجد لكليهما مرجعاً فحرر.

(٢) ابن عذارى.

نصارى الشمال يسكنون زمنا طويلا عن شن الغارات على ثغور المسلمين لكن بعد سنتين هبَّ (أردن) وملك ناجرة وأغار (شانجة) على بقيرة واستولى عليها وقتل من كان فيها من الاشراف ووجوه الرجال كبنى ذى اللب وبنى ذى النون فجرح هذا الخطب قلوب مسلمى أسبانيا وأثار أشجانهم فهب سلطانهم ليشفى نفوسهم بادراك ثارات المقتولين.

ففى سنة ٩٢٤ (٣١٢) غزا عبد الرحمن النفايين ففصل من قرطبة فى ابريل (المحرم) ووصل نفارة (أرض بنبلونة) فى ١٠ يوليو (٤ ربيع الآخر) فافزع اسمه أهلها حتى إنهم كانوا يفرّون من حصونهم عند قرية منها فمرّ على حصون كركر Carcar (قَلْقَرَة) وپرلته Peralta (بيطرة آله) وفلس Falces (فالجش) وكركستلو Carcastillo (قَرْقَسْتال) وجنوده يدمرون ويحرقون كل ما مروا به ثم توغل فى داخل البلاد متجها نحو عاصمتها.

وقد حاول شانجة مرّات أن يوقفه فى المضايق فخاب وخسر فى كل مرة. بلغ عبد الرحمن بنبلونة ولم يعقه عائق فأخلاها أهلها فخرّب عساكوه جملة بيوت منها وكنيستها التى كان يحج إليها كثير من النصارى فى كل عام وكذا خرّبوا كنيسة أخرى على جبل قريب منها أنفق شانجة على بنائها نفقات طائلة وقد اجتهد فى الذود عنها فلم يفلح وجاءته أمداد من قسطنطينة هجم بها على المسلمين وقد أخذوا فى القفول فصدّوه وباء بالخسران وعادوا مظفرين ولم يخسروا فى هذه الغزاة إلا قليلا ويسمونها غزوة بنبلونة.

عربنا ما ذكرناه فى هذه الغزاة من تاريخ دوزى مع تصرف ومأخذه فيها تاريخ ابن عذارى وقد أسهب فى هذا الموضوع بما لا يخلو عن زيادة أفادة وتبيان فلذا رأينا أن نأتى بما قال بعد تشذيبه وهو:

فى سنة ٣١١ حاصر أهل بنونة حصن بقيرة وكان فيه عبد الله بن محمد بن

لب ومعه مطرف بن موسى بن ذى النون ومحمد ابن عمه وكثير من وجوه الرجال فتغلب العليج شانجة عليهم جميعا فأسرهم ثم قتلهم.

وفى سنة ٣١٢ غزا الناصر إلى دار الحرب الغزوة المعروفة بغزوة بنبلونة إذ أحفظه ما دار على بنى لب وبنى ذى النون بحصن ببقيرة^(١) ففصل من قرطبة يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم فاحتل أول خروجه بمحلة (بالش) ثم أم كورتى تدمير وبلنسية واستصلح أحوال أهلها... ثم نهض فى عساكر كثيرة العدد حتى دخل نغر تطيلة وتلقاه عمال الشجر فى جنود عظيمة وعدة كاملة فدخل بلاد المشركين فحل حصن (قلقرة) Carcar وكان العليج شانجة قد أخلاه فأمر بهدمه واحراق ما فيه.

ثم تنقل إلى موضع (بيطرة آله)^(٢) وكان حوله حصون أخلاها أهلها وتركوها فى بسيطها أمتعتهم وأطعمتهم إذ عوجلوا عن نقلها ولجأ علوج منهم إلى ثلاثة غيران فى شفير جرف على النهر فلم يزل العسكر يتسورون عليهم من أعاليها حتى افتتحوها وقتلوا العلوج وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة وهدموا حصون تلك الجهة.

ثم دأب الناصر بتنقل إلى حصون شتى وجيوشه يحرقون ويخربون ويتتهبون الأطعمة وكان أخيرها حصن قرقستال على وادى ارغون ثم أوغلوا فى بلدهم ليتوصلوا إلى موضع قرارهم ونكايتهم فى عقر دارهم فتقدموا من فج المركوبر فى أتم تعبته فدخلوا مواضع غير مسلوكة حتى نزلوا بقرية بشكونسة فهدموا مبانيها

(١) قال ياقوت (ببقيرة) بالفتح ثم بالكسر مدينة فى شرقى الأندلس معدودة فى أعمال تطيلة - وببقيرة أيضاً من أعمال رية.

(٢) قال ياقوت ببطرة بالفتح اسم لثلاثة مواضع بالأندلس... ببطرة شلج حصن منيع من أعمال أشقة و (بيطرة لش) حصن آخر من أعمال ماردة (وبيطرة) بلدة وحصن من أعمال سرقسطة - ولعل هذا الأخير المراد بحصن ببطرة آله.

وأحرقوا ما كان فيها فجمع العليج شانجة جموعه واستمدّ بينى جنسه فامدّوه ورجا بمن اجتمعوا إليه أن يكافح جيوش قرطبة ولكن خاب أمله.

فإن جيوش الناصر لما توسطوا بين وادى هيغة هبطت خيل شانجة من الاجبل فعبر العساكر إليها النهر وواضعوها القتال حتى هزموها إلى مرتقى وعر وجبل منقطع فتقحموا عليها وقتلوا جملة منها وأصابوا الغنائم والسوام وضروب النعم وانصرفوا ولم يصب منهم غير يعقوب بن أبى خالد التوبرى ونفر يسير.

ثم ارتحل الناصر إلى محلة لنيرة ثم إلى محلة لغين والجيوش لا تمر بموضع إلا اصطلمته وتعلقت زروعه وهدمت قراه وحصونه إلى أن بلغ مدينة بنهلونة فوجدها خالية فدخلها وأمر بهدم بنيانها ثم انتقل إلى صخرة قيس فأحرقوا كنيستها ولم يقو العليج على حمايتها بل ولّى مهزوما وصرع من كان عنه محاميا.

ثم تنقل الناصر إلى محلة أسارية وكان فى ممره إليها فجّ هرقله ضيق المسلك وعر المجاز فرام النصارى انتهاز فرصة فى المسلمين فأمر الناصر بالتعبئة والاحتراس وجاوزت عساكره ذلك المضيق لكن أعداءهم اعترضوا الساقه متسمنين لأعلى جبل فنهضت الخيل اليهم وقتلت طائفة منهم وهزمتهم فانقشعوا مدبرين ثم نزل المسلمون محلة اسارية ثم ارتحلوا من موضع إلى موضع يقتلون ويخربون إلى أن وصلوا شنت اشتين موضع العليج شانجة ومكان طمانيته يوم الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر فجمع جموعه واستجاش بمدود أته من ألبة والقلاع فناشبههم المسلمون الحرب والتحم بينهم القتال فانهزم جموع شانجة إلى أعلى جبلهم وتفرقوا.

ثم انتقل الناصر يريد قلّهرة فتظاهر العليج بجموعه ثانية فتبادر إليه الفرسان فانهزم وقتل له رجال وعقرت له خيل وبلغ الناصر حصن قلّهرة^(١) فالفاه خاليا

(١) مدينة من أعمال تطيلة فى شرقى الأندلس.

فأمر بهدمه ثم تنقل إلى حصن بلثيرة من حصون المسلمين فعهده بادّخار الأطعمة عندهم وتفريق الأموال فيهم ثم احتل بمدينة تطيلة ثم رحل عنها قافلاً ومر بينى ذى النون.

وكان يحيى بن موسى قد توقف عن الجهاد ودارت عليه مَعَرَّة الجيش حتى أذعن واعترف للناصر بذنبه فعفا عنه.

ثم دخل قرطبة يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الأولى وقد استمر في غزاته هذه أربعة أشهر. اهـ.

قد أضعفت هذه الغزاة مَلِك نَفَارَةَ وحوطَّت من شأنه وقصَّت من جناحه فلا يَخْشَى سلطان قرطبة من جهته بأساً وكذا لا يخاف جهة ليون فإن ملكها أَرْدُن مات قبل الشروع في غزوة بنبلونة وخلفه أخوه (فُرُويلة) فلم يحكم إلا سنة لم يقاتل فيها المسلمين إلا أنه أمدَّ شانجة ملك نَفَارَةَ في هذه الغزاة.

وبعد موته سنة ٩٢٥ تنازع مملكة ليون ابنا أَرْدُن: شانجة وأذْفُنش فغلبَ الثاني لأن صهره ملك نَفَارَةَ ظاهره على أمره ومع هذا لم ييأس الأول فإنه عند تنويع أذْفُنش في (شنت ياقب^(١)) وثب على ليون وتملَّك عليها لكن عاد أذْفُنش وانتزعها منه بمساعدة النصارى في سنة ٩٢٨ ففرَّ شانجة ابن اردن وتملَّك على جليقة القصوى إلى أن مات سنة ٩٢٩.

وفي سنة ٩٣١ ماتت امرأة أذْفُنش فحزن عليها وتنازل عن الملك لأخيه (رامير) وترهب في دير (سَهَجُون Sahagun) لكنه رأى حياة الرهبانية لا تلائمه فترك الدير وخرج على أخيه وملك (سَمَنْكَس Simancas) فعادَ القسوس نزوعه عن الرهبانية عاراً كبيراً عليهم وهددوه بعذاب جهنم فعاد إلى لبس المسح لكنه انتهر فرصة غيبة أخيه ليساعد طليطلة^(٢) وخرج ثانية وملك ليون فرجع إليه رامير سريعاً

(١) ويقال ياقوت.

(٢) كذا يؤخذ من دوزى، وفي ابن خلدون أن أذْفُنش كان غازياً في سمورة.

وحاصره بها ودخلها عنوة سنة ٩٣٢ (٣٢٠) فحبسه وثلاثة أبناء عمه (فُرُويلة) لأنهم كان لهم ضلع معه فى الفتنة وسمل عيونهم جميعاً انتقاء منازعتهم إياه فى الملك.

ترك عبد الرحمن نصارى الشمال يقتلون كما شاءت أهواؤهم وفى غضون حروبهم الطويلة أحمد نيران الثورات المتأججة فى بلاده ومدّ أنظاره إلى بلاد المغرب والشيعية يفتتحونها ويضطرون أهلها إلى الأخذ بمذهبهم ويخدعون الناس بأنهم من سلالة فاطمة وأن فيهم الإمامة على المسلمين وبالألقاب سامية انتحلوها لأنفسهم كالألقاب الخلفاء العباسيين.

وقد استصرخه بعض أمراء المغرب من جور هؤلاء الفاطميين المغيرين على بلادهم فاغاث المستصرخين وأمدّهم بالذخائر والعُدَد والأموال واتخذهم دعاة له فى المغرب فاستمالوا البربر إليه باسم (أمير المؤمنين الناصر لدين الله) فإنه لما رأى نفسه أحرى بالألقاب الخلافة لقوة سلطانه وضعف سلطان العباسيين فى ذلك الحين وقد انتحلها من لم يبلغوا شأوه أمر أن يلقب بهذه الألقاب.

ويؤخذ من دوزى ما معربه بتصرف أن أسلاف عبد الرحمن فى أسبانيا كانوا يكتفون بـلقب (أمير) أو (سلطان) أو (ابن الخلائف) معتقدين أن لقب (الخليفة) مختص بمن تدخل المدينتان المقدستان مكة والمدينة فى دائرة ملكه وقد تركوهما للعباسيين أما الآن وقد تقلص ظل مُلك هؤلاء ولم يبق لهم إلا بغداد وأرضها فليس ثمَّ ما يمنع الأمويين من التلقب بالألقاب ترفع أقدارهم فى أعين رعاياهم ولا سيما الأفاقة.

ومن أجل ذلك أمر عبد الرحمن أن يلقب بـ (الخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله) وأن يخطب له على المنابر بهذه الألقاب منذ يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ (ثانى ذى الحجة سنة ٣١٦).

ففى سنة ٣١٩ افتتح الناصر مدينة سبتة على بحر الزقاق (مجاز جبل طارق)

وخطب له فيها باسم أمير المؤمنين - وكتب إليه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يرغب في الدخول في طاعته وأن يدعو إليه أهل العدو ويستعين به على محاربة الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي فأجابه إلى ما رغب وأمدّه بالخلع والأموال فظهر أمر موسى من ذلك الحين وتجمع له كثير من قبائل البربر وتغلب على مدينة جُراوة وأخرج عنها الحسن.

وكتب إلى الناصر محمد بن خزر أمير مَغراوة (قبيلة من زناتة) يرغب في موالاته ويستنجده على الفاطميين فتقبله وأمدّه فظهر ابن خزر عليهم وقتل بيده قائدهم مصالة عامل تاهرت وطردهم من المغرب الأوسط. (أقاليم الجزائر الآن) وأعلن فيه ولاية خليفة الأندلس.

قال ابن خلدون «ولما فشّت دعوة الناصر في المغرب الأقصى بعث عبيد الله المهدي قائده حميد بن يصل عامل تاهرت فزحف في العساكر إلى المغرب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وكتب موسى بن أبي العافية إلى الناصر يستنجده فأخرج إليه قاسم بن طملس في العساكر ومعه الأسطول فوصل إلى سبتة وبلغه بأن موسى بن أبي العافية هزم عساكر حميد فأقصر ورجع».

وفي سنة ٣٢١ وصل الخبر إلى قرطبة بولاية أبي المنصور بن المعتز مدينة سجلماسة وهو غلام ابن ثلاث عشرة فمكث في ولايته شهرين وقام عليه ابن عمه محمد بن الفتح وأخرجه منها وتملكها وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضرب الدنانير الشاكزية.

وفي سنة ٣٢٢ وصل الخبر إلى قرطبة بوفاة أمير أفريقية عبيد الله الشيعي المقلب بالمهدي وتقديم ولده أبي القاسم الملقب بالقائم بأمر الله.

ويؤخذ من دوزي أن رامير ملك ليون بدّد شمل جيش من المسلمين كان يحاصر وخشمة^(١) Osma سنة ٩٣٣ فأثار هذا حمية عبد الرحمن سنة ٩٣٤ إلى أن

(١) كذا الاسم العربي في ابن خلدون وابن عذاري والاسم الفرنجي في دوزي ويقرب لفظه من (خشمة) بدون واو.

يتنقم ويجعل سهول وخشمة تشهد له بالنصر كما شهدت على جيشه بالخذلان فغزاها ورام أن يستنزل رامير من قلعتها إلى ميادين القتال فاستعصم بها.

فترك الناصر فئة تُحْدِقُ بها وسار نحو الشمال فعاثت جيوشه ولا سيما الأفارقة في بلاد أعدائهم وخربوا (بُرْغُش^(٢) Purgos) قاعدة قشتالة وكثيرا من الحصون لكن في أثناء هذه الغزاة امتنع محمد بن هاشم وإلى سرقسطة من أن يضم قوته إلى قُوى الناصر ورفع لواء العصيان فإنه كان حالف رامير ملك ليون على مناوأة الخليفة ودخل في محالفتها غرسية بن شانجة ملك نفارة وكانت تكفله أمه طوطة لصغره - بهذا تم تحالف ممالك الشمال على عبد الرحمن.

عصى محمدا بعض قُواده واعتصموا بمعاقلهم حتى يسلموها لسلطان قرطبة لكن جاء رامير في جيوشه وانتزعها منهم وسلمها إلى حليفه.

سكت دوزي عما كان من أمر عبد الرحمن في آخر هذه الغزاة وقد قال ابن خلدون في هذا الموضع أن الناصر غزا في سنة ٣٢٢ إلى وخشمة واستدعى محمد بن هاشم من سرقسطة فامتنع فرجع إليه وافتتح حصونه وأخذ أخاه يحيى من حصن روطة ثم رحل إلى بنبلونة فجاءته طوطة (أرملة شانجة) بطاعتها فعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل إلى (ألبّة) ويسأطها فدوّخها وخرّب حصونها ثم اقتحم جليقة وملكها يومئذ (ردمير) فخام عن اللقاء ودخل وخشمة فنازله الناصر فيها وهدم (بُرْغُش) وكثيرا من معاقلهم وهزمهم مرارا ورجع. اهـ.

وفي سنة ٣٢٥ غزا الناصر قلعة أيوب فحاصرها وقتل قائدها مطرفا التجيبي ومن كان معه من نصارى (ألبّة) المبعوثين من قبل رامير ثم افتتح المدينة وثلاثين حصنا - ثم وجّه جيوشه إلى سرقسطة وحاصرها وقاتل صاحبها ابن هاشم حتى سلم المدينة وأطاع فعفا عنه الناصر - ثم غزا بنبلونة فإن ملكتها طوطة انتسقت فأنزل بها النكبات حتى أطاعت واعترفت بسيادته على بلادها.

(١) كذا الاسم العربى فى كتاب نزهة المشتاق والاسم الافرنجى فى دوزى.

الآن قد أطاعت أقاليم اسبانيا كلها خليفة قرطبة ما عدا مملكة ليون (بنو إسحاق)^(١) أن الذي كان يحاصر سرقسطة من قبل الناصر أمير أموى وهو أحمد ابن إسحاق قائد فرسانه وقد قلده الخليفة ولاية الثغر الأعلى لكن هذا القائد لم يقنع بل دفعته أضغاث أحلامه إلى طلب ما فوق ذلك.

كان أكبر أسرة بنى إسحاق وكانت ذات قرى بعيدة جدا من عبد الرحمن وقد حَيَّتْ أول أمرها فى اشبيلية حياة فقر وخمول زمنا طويلا وصاهرت إلى من دونها ولم ينكر الخليفة عليها نسبها استحياء بل قرب أفرادها إلى وغمرهم بإحسانه ومع هذا ما كانوا راضين عن مناصبهم السامية فى الدولة فإن أطماعهم ما كانت تقف عند حد.

كتب أحمد وهو يحاصر سرقسطة إلى الخليفة يطلب منه أن يقلده ولاية العهد فأثار كتابه غضب الناصر من موضوعه ومن زمنه غير المناسب ومن دلالة على التراخى والتساهل فى الحصار فكتب إليه جوابا يعيره بسوء ماضيه ويمنّ عليه بحسن حاضره وعزله.

عقب ذلك أخذ أحمد ينصب شباك الكيد والائتمار للناصر حتى حاول أن يتزع منه اسبانيا ويلقى بزمامها إلى الفاطميين وكاتبهم فى هذا الشأن فاطلع الناصر على سرّه فعده شيعيا وقتله.

من أجل أخيه رفع أمية بن إسحاق لواء العصيان فى شتيرين (سنة ٣٢٧)^(٢) لكنه خرج ذات يوم من المدينة فانتهاز ضابط فرصة خروجه وأقام فيها حكومة

(١) دخل إسحاق المتتهى نسه إلى عبد الملك بن مروان الأندلس أول الدولة وسكن اشبيلية أيام بنى حجاج ثم رحل إلى قرطبة واستوزره الناصر واستوزر بنه من بعده ففتحوا الفتوحات وكفوا المهمات وعلت مقادير فى الدولة ثم كثرت فيهم السعيات وصاروا فى مجال الظنون فسطا بهم الناصر وغربهم فى التواحي وكان منهم أحمد وأميه.

(٢) فى ابن الأثير وأبى الفداء أن عصيان أمية بن إسحاق كان سنة ٣٢٧، وفى ابن خلدون سنة ٣٢٥.

الخليفة فالتجأ أمية إلى (رامير) ملك ليون ودلّه على مواضع الوهن فى مملكة الناصر^(١).

كان من وراء ذلك أن غزا الناصر رامير فى سنة ٣٢٧ فى نحو مائة ألف من الجنود فنزل على مدينة (سمورة) وكانت ذات سبعة أسوار محكمة البنيان وبين الاسوار خنادق ومياه وافتتح منها سورين وعبروا خندقا هناك لكن ارتد أهل المدينة عليهم فقتلوا وأغرقوا منهم نحو خمسين ألفا وانهزم الباقون وكانت هذه الواقعة بعد ثلاثة أيام من كسوف الشمس الذى حدث فى شوال هذه السنة.

والذى منع ردمير من طلب المنهزمين أمية بن إسحاق ولولا ذلك لأتى عليهم جميعا - ثم تخلص أمية من ردمير واستأمن عبد الرحمن فآمنه وقبله أحسن قبول^(٢) وأسر فى هذه الواقعة محمد بن هاشم التجبى وحاول الناصر إطلاقه فأطلق بعد ستين وثلاثة أشهر وقعد الناصر بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردّد البعوث والصوائف^(٣) ويسمون هذه الغزوة بغزوة الخندق.

ويؤخذ من دوزى أن السبب فى فشل جيش الناصر فى هذه الغزاة وهو مائة ألف أنه ولى قيادته العامة سلافيا^(٤) (صَقْلِيّا) من مواليه يسمى (نجدة) فأسخط ذلك قواده العظام من العرب وأقسموا «أن الخليفة سيجهز على شرفه القديم بهزيمة مخجلة».

وقد كان ما توقعوه فإنهم ألقوا حبل الحرب على غاريها وتجنبوا القتال حتى قتل القائد العام وغطّت اشلأ القتلى وجه الأرض وتمزق شمل الجيش شذّر مَدَر وكاد يقتل أو يؤسر الخليفة نفسه لولا أن أنقذته يد المقدور ولم ينج معه من حرسه إلا تسعة وأربعون فارسا وقد أثّرت هذه الكارثة فى نفسه حتى إنه بعدها صار لا يصاحب جيوشه إلى ميادين القتال.

(٢) المسمودى وغيره.

(٤) انظر الذنابة الثانية.

(١) دوزى.

(٣) ابن خلدون.

لم يذكر دوزى فى هذه الغزاة مدينة (سمورة) ولا أسوارها ولا خنادقها ولم يسمها غزوة الخندق كغيره من المؤرخين إلا أنه قال ما مؤداه فى سنة ٩٣٩ أخذ جيش قرطبة طريق سمنكس (Simancas) فجاء لمقابلته جيش رامير وطوطة وفى ٥ أغسطس دارت رحى الحرب حتى هزم الليونيون القرطبيين إلى مقربة من مدينة (الحنقة Alhandaga) فى جنوب (سلمنقة) على شواطئ (تُرماس Tormès) وهناك جمع المهزومون شتاتهم وواجهوا عدوهم لكن دارت عليهم الدائرة. اهـ.

فغزوة (الخندق) فى كلام المؤرخين هى غزوة مدينة (الحنقة)^(١) عند دوزى وبين الخندق والمدينة بون بعيد لم يتكلم ابن عذارى عن هذه الغزوة الشهيرة، وقد شرحها رومى^(٢) ناقلا عن كندى فقال ما مؤداه فى سنة ٣٢٦ (من نوفمبر سنة ٩٣٧ إلى أكتوبر سنة ٩٣٨) أمر الخليفة بحشد جنود الأندلس على حدود جليقة فأخذ القواد يجمعون جنودهم من جميع الجهات وخطباء الجمع يحضون الناس على الجهاد وتتابع ورود العساكر من كل جانب تخفق فوق رؤوسهم الأعلام حتى اكتظت الطرق بهم وبآلات الحرب والبغال المحملة بالمؤن والذخائر - واحتشدوا فى ضواحي مدينة سلمنقة حتى صارت ضفاف نهر تُرماس وبراريها معسكرا عاما واسع الأرجاء - وفى أوائل سنة ٣٢٧ تم احتشاد الرايات وأعلن الولاية الجهاد ولم يبق إلا حضور الخليفة ليفتح باب الغزو.

قام عبد الرحمن من قرطبة ومعه حرسه ونخبة فرسان الأندلس وقام فى الوقت عينه من ماردة عمه المظفر يقود فئة من الفرسان.

وفى صفر (ديسمبر سنة ٩٣٨) حضر الخليفة فى موكبه الحافل معسكر سلمنقة وتعهّد هو وعمه معسكرات الأقاليم المخيمة فى الضواحي ورتب الجنود وأعدّاهم للغزوة التى رامها وكانوا ينيفون عن مائة ألف مدججين بالسلاح فقسّماهم إلى ثلاث فرق:

(٢) ص ١٦٤ وما بعدها ج ٤.

(١) لم أجد الحنقة فى المعجمات فحرر.

الأولى أخذ بزمامها المظفر والثانية قادها والى بطليوس عبيد الله بن أحمد بن يعلى والثالثة كانت تحرك هذا الجيش العرمرم واجتاز نهر دويرة بدون أن يلقي مقاومة وانساب فى أرض العدو كالسيل الجارف مخرباً القلاع التى كان يمر بها ومنها رباط ووخشمة وشنت اشتيين إلى أن حاصر مدينة سمورة وامتدت خيامه على طول نهر دويرة.

كانت المدينة حصينة يكتنفها سبعة أسوار متينة البنيان من صنع الملوك السالفين يتخللها خنادق عريضة عميقة مملوءة بالماء وكانت حاميتها من شجعان الجلالقة فقاومت هجمات جنود عبد الله بن الغمرى والى بلنسية وكانوا ذوى شجاعة فائقة وكانت سيوف كلا الفريقين تدمى الفريق الآخر فى معارك عنيفة. فى هذه الأثناء جمع ردمير ملك الجلالقة جيشاً كثيفاً كان فيه أمية بن إسحاق الذى كان والى شتيرين والسبب الأول فى هذه الحرب الشعواء يقود فئة من فرسان المسلمين اقتفت أثره فى خيانة البلاد.

واحتشد مع ردمير فى برغش (غرسية) ملك نفارة أو البشكنس وأمه (طوطة) و (فردند) كُوت قشتالة متحدين على أن يقاتلوا الجيش المحاصر سمورة.

علم المظفر بسيرهم ومقصدهم فتقدم بفرقته نحوهم وكان عددها أربعين ألفاً وتبعها فرقة الخليفة وكانت مثلها فى العدد وفيها نخبة فرسان قرطبة - واستمر على حصار سمورة عبد الله بن الغمرى والى بلنسية ومعهما عشرون ألف جندى.

فتقابلت طلائع الجيشين على شواطئ نهر يصب فى دويرة (La Pisuerga) وجرت بينهما مناوشة خفيفة والتجأ كلاهما نحو معسكره.

وفى اليوم الثانى حدث كسوف هائل حجب نور الشمس بظلمة مشوبة بصفرة فملاً قلوب شبان الجيش فرغاً ورعباً فإنهم لم يروا مثله فى حياتهم ولم يكن أعداؤهم أقل تأثراً بهذه الحادثة.

مرّ يومان ولم تبد حركة من الجانبين لكن ما لاح فجر اليوم التالى إلا وقد بدت الضوضاء فى المعسكرين استعدادا لأخذ العساكر أوضاعهم فى السهل وامتلأ الهواء بأصوات الأبواق وصيحات الجيشين وارتجفت الأرض من وقع الأقدام وصفّ القوّاد جنودهم وامتطى المظفر فرسا قويا سريع العدو واخترق صفوف جنوده باثنا فى أرواحهم الحميّة والإقدام على القتال وقاد بنفسه المقدمة والقلب وسلم قيادة الجناحين لوالى طليطلة وبطليوس.

وأما الخليفة فقد نصب سرادقانه وخيامه على ربوة مشرفة على ميدان القتال وحوله جنود الاحتياط.

حمل أحد الجيشين على الآخر وقد ارتفعت الشمس وهجم المظفر فى فرقة من الفرسان مدجّجة بالسيوف الهندية والرماح والأقواس لكنها ما كانت مسربة بالدروع على جهة الوسط التى كان يقود زمامها ملك لبون نفسه لكن ثبت النصارى فى مواقعهم وقاوموا هجمات فرسان المسلمين مقاومة عجيبة.

وكان رامير فى مقدمة فرسانه المسربلين بالحديد يتوغل فى الميدان ويفتك بكل من شخص أمامه - وكان بجانبه أمية بن إسحاق الفارّ من وطنه وشرذمة على شاكلته من فرسان المسلمين يقاتلون إخوانهم فى الدين ويضربونهم برماحهم وسيوفهم الهندية كأنهم الدّ أعدائهم.

انثنى المسلمون من هجمات رامير وجنوده وأميّة وشرذمته ولما رأى الخليفة اختلالا فى الجناح الأيمن وتزحزح قلب الجيش عن مكانه للعدوّ هجم تحفّ به فرسان قرطبة وأخراسه الصقالبة مدجّجين بطوال السيوف ومتوقين بتروس طويلة على جناح جيش العدو وضغطوا عليه بشدة فانكسر الجناح لكن حمل هذا الجيش بأجمعه على هذه الجهة.

وحمى وطيس القتال حتى تجندل على الأرض بالقرب من الخليفة فرسان شجعان أصيبوا بطعنات بعد أن جاءوا بالعجائب فى هذه الحرب الزبون ومع هذا

كان يظهر رجحان كفة المسلمين فإن النصارى أخلوا ميدان الحرب وانصرفوا لأنهم كانوا دائما فى القتال أمام جيش قوى يسير فيه الخليفة مستطيًا جوادا أبيض مرتديا بُردًا طويلًا على رأسه تاج الخلافة خفيف العُدَّة ممسكا بيده مصحفًا مفتوحًا على السرج مسمعا الآيات التى تبعث فى المقاتلين روح الشجاعة.

لكن بينما هو محاط بأحراسه الأبطال يحى شخصه فيهم أمل الفوز إذ أرخى الليل سدوله فحال دون القتال وبقي النصر غير محقق لفريق دون آخر وقد عزاه كلاهما إلى جهته.

بقى المسلمون فى ميدان الحرب وهو مغطى باشلاء القتلى والجرحى ونصبوا خيامهم فيه مع السرعة وقضوا ليلتهم فيها باثنتين بين الأموات مترقبين مع الضجر طلوع الشمس ليعيدوا كرة القتال.

ومع هذا كانت خسائر المسلمين أعظم من خسائر النصارى ولو كان هؤلاء أعداؤا القتال فى اليوم التالى لكان النصر بلا ريب حليفهم - كذا يصرح العرب أنفسهم بذلك قائلين إن السبب فى نجاة جيش المسلمين إشارة ابن إسحاق على رامير فى الليل بأنه لا يعود إلى قتال أعدائه خشية خداعهم ولأنهم أكثر عددا من جنوده فاعتقد صحة ذلك ورجع وحرمه الله من الفوز والقدرة على مساعدة المحصورين فى سمورة.

لما رأت جيوش عبد الرحمن أن الأعداء رحلوا وأن لا فائدة من اقتفاء آثارهم تركوا فصائل من الفرسان على شواطئ النهر ورجعوا إلى معسكر سمورة وقد هجم المحاصرون على أسوارها المحصنة بالقلاع هجمات عنيفة ولكن المحصورين دافعوا عنها دفاع الأبطال حتى إن الهاجمين ما كانوا يخطون إلى الأمام إلا باراقة دماء كثير من شجعانهم.

قوى عزائمهم حضور الخليفة وعمه المظفر فثلّموا وهدموا سورين ثم

تقدموا إلى حظيرة مستديرة يقطع وسطها خندق واسع عميق مملوء بالماء فأصابهم وابل من نبال الحامية وهبّ عليهم إعصار من سهامها فهلك منهم ألف مؤلفة.

فجاء جنود الغرب وجنود طليطلة وألقوا جثث إخوانهم في الخندق حتى كونوا شبه قنطرة مروا عليها - حيث لم تستطع الحامية أن تدافع فتسلق الجنود الاسوار وكسروا أبواب الحديد المزدوجة وفتكوا بالرجال وأبقوا على النساء والأطفال وصارت أعلام النصر تخفق فوق قلاع سمورة كلها في شوال سنة ٣٢٧. عاد عبد الرحمن إلى ماردة ومنح القواد الذين امتازوا في هذه الغزاة أسلحة وخيلا ثم رجع إلى قرطبة فقول من أهلها بالحفاوة.

هذه غزوة الخندق الشهيرة وكان شرها مستطيرا على الغالب والمغلوب. ما رواه كندى في هذه الغزاة صريح في أن عبد الرحمن انتصر فيها وملك سمورة وهذا لا يطابق ما رواه المسعودى ودوزى وقد ناقش هذا الموضوع رومى ثم قال أخيرا ما معناه:

كل هذا يحمل على اعتقاد أنه عقب العودة إلى معسكر سمورة من واقعة سمنكس التى كان النصر فيها غير محقق شدّد الخليفة والمظفر الحصار على المدينة فعاد رامير وحاصر المعسكر فصار المسلمون فى هذا الموضع غاليين ومغلوبين فاستولى بعضهم على سمورة ورفعوا عليها أعلامهم ولكن اشتروا ذلك بثمن غال وهو خسارتهم الفادحة التى نوء عنها المسعودى..

وأخذ بعضهم تحت امرة الخليفة والمظفر يقاتلون محافظين على النظام راجعين القهقرى إلى سلمنقة.

وبناءً على هذه النتيجة وأظن أنها قريبة من الحقيقة يكون هناك محلّ لنصيحة ابن إسحاق لرامير ولعودته إلى عبد الرحمن التى ذكرها المؤرخون جميعا... ولما علم رامير بتقهقر الخليفة إلى جنوب نهر دويرة ظهر أمام سمورة ولم يلاق

صعوبة في الاستيلاء عليها ومن هنا يتبين أنها لم تمكث في أيدي العرب إلا بضعة أيام وقد وقع أغلب المدافعين عنها في قبضة يد العدو. اهـ.

في السنة التالية غزوة الخندق نزعت ولاية قشتالة إلى الانفصال من مملكة ليون وجاهرت بالعصيان فأعلن رامير أنه لحسم الخلاف بالحسن سيعقد مجلسا يكون له القول الفصل في الأمر ودعا إلى المجلس رؤساء قشتالة الأربعة فجاءوا فأمر بالقبض عليهم وحبسهم فعَدَّ القشتاليون هذا العمل خيانة وأقاموا الكونت فرَدْنَدَ جونسلز رئيسا عليهم ليتقم من الليونيين فشهر الحرب على ملك ليون لكن كان من المقدور أن انتصر رامير على خصمه ففاجأه وألقاه في سجن ليون فتعلقت قلوب القشتاليين به حتى صنعوا له تمثالا وعبدوه ولما ضجروا من طول سجنه عزموا عزما أكيدا على تخليصه بالقوة من السجن فاجتمعوا جميعا شبانا وشيوخا وأقسموا أن لا يعودا إلى قشتالة بدون سيدهم وأن كل من يتخلف يعدّ خائنا فتركوا برغش وأرباضها خالية ليس فيها غير النساء والأطفال وساروا رافعين تمثال وراية فردند - من اقترابهم خشى الملك فعدل عن رأيه وأطلق لهم زعيمهم على شروط ملائمة وقد أقسم هذا يمين الطاعة ولتوثيق عرى الصداقة زوج ابنته براءة أردن بن رامير^(١).

قال رومي إن الكونت فردند والكونت ددقوس شهرا الحرب على الملك رامير لاسباب غير معلومة وبعد أن جمعا جيشا فاجأهما الملك وحبسهما ولم يطلقهما إلا بعد أن أقسما أن لا يعودا إلى محاربته.

استتب السلام بين رامير وفردند واقرن ابن الأول المسمى أردن الثالث بابنة الثاني المسماة براءة Urraca^(٢).

(١) دوزي.

(٢) بحث رومي في الاسم الافرنجى ورده إلى الاسم العربى وقال إن معناه اللماعة أو ذات الألوان أو المشوبة بالياض والسواد وأن العرب تطلق هذا اللفظ على ما كان أبيض أسود وعلى العين والعنز والبط والغراب وأنه ما زال اللفظ الافرنجى يطلق على الأخير في اللغة الاسبانية - فانظر وحرر.

كان تنازع نصارى الشمال من الأسباب التى أدت إلى توالى نصرات المسلمين عليهم.

ففى سنة ٣٢٩ أغزى الناصر قائده أحمد بن يعلى إلى أرض ليون فعاث فيها وقتل وأسر وسبى وأرسل إلى قرطبة مائتى عالج اسراء^(١).

يروى رومى عن كندى هنا أن الوالى عبد الله القرشى جمع جيوشه واجتاز بها حدود جليقة فقابلته جيوشها فى مكان صعب يكتنفه نهر دويرة من جانب وجبل عال وصخور منحوتة من جانب آخر وصار القتال لا مناص منه ولم يبق أمل للمسلمين فى السلامة إلا بالفوز فدارت رحى الحرب فكان النصر حليفهم وملكوا قلعة (سان استيفان دوغرْمَز)^(٢) واحمر وجه ماء النهر من دماء الأعداء والله يعلم عدد قتلاهم وكانت هذه الواقعة سنة ٣٢٩ (من ٥ أكتوبر سنة ٩٤٠ إلى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٤١) وقد ذكرها القرشى هذا فى شعر له قالوا إن معناه (من جهة يكتنفنا دويرة ومن أخرى جبل شامخ ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالنصر ولا أمل إلا فى الشجاعة، سالت دماء المشركين فأخجلت مياه دويرة).

وفى سنة ٣٣٢ أغزى الناصر قائده أحمد بن إلياس إلى أرض ليون فدخلها وغنم وأحرق جملة من حصونها ورجع.

يقول رومى ما معناه «إمّا لأن ردмир لم يلاق نجاحا فى ذلك الزمان وإما لأنه ملّ الحروب أرسل فى سنة ٩٤٤ (٣٣٢) رسلا إلى قرطبة ليتكلموا فى الصلح فقابلهم عبد الرحمن بالحفاوة.

وعقدت هدنة بين الامتين مدة خمس سنين وأرسل الخليفة وزيره أحمد بن سعيد (شهيد) إلى ليون ليبلغ سلامه إلى الملك فعاد الوزير مسرورا - ومع ذلك جرى فى خلال هذه الهدنة قليل من الحوادث من جهة العرب».

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) هى شنت اشتين التى تقدم ذكرها.

وفي سنة ٣٣٥ أعاد الناصر بناء مدينة سالم وقواها في الثغر الأوسط الشرقي مواجهة لمدينة قشتيلة فكانت رداءاً للعرب وشجاً في حلق القشتيليين.

وفي سنة ٩٤٩ (٣٣٧) انقطعت الهدنة بين ليون وقرطبة فاعتدى ردمير على طليبة، يروى من جهة أنه قتل اثني عشر ألفاً وأسر سبعة آلاف وعاد منصوراً، ويروى من أخرى أن عبد الرحمن أعلن الجهاد في هذه الصائفة وجمع الرايات من الأقاليم ودعا من أفريقية وإلى فاس محمد بن الخير البفّرني الزناتي فجاء في جيش من البربر - وعهد الخليفة بقيادة الجيش العام إلى حاجبه أحمد بن شهيد فدخل أرض النصارى وطردهم من ستمنة Setmanica ودفعهم إلى الجبال وغنم غنائم واسعة - وقد أعلت شأنه هذه الغزاة وأمدت صيته وأناله من الخليفة كل رعاية.

أعقب ذلك رومي بأنه يظهر أن هذه الصائفة جاءت بعد حملة رامير على طليبة في أثناء ما كان هذا الملك تخامره سكرات الموت.

وفي سنة ٣٣٩ أخرج الناصر قائده أحمد بن يعلى إلى أرض ليون فافتتح ثلاثة حصون منها وسبى نحو ألف سبية وانصرف.

وفيها مات رامير ملك ليون وخلفه ابنه أرذن ونازعه أخوه شانجة وقيل غرسية وكان من وراء نزاعهما أن ظهر المسلمون عليهم في السنين التالية حتى إنهم في سنة ٣٤٤ قتلوا نحو عشرة آلاف منهم وأرسلوا إلى قرطبة رءوس خمسة آلاف فعلقت على سور قرطبة.

وفيها أرسل اردن سفيرا إلى قرطبة ليسأل عبد الرحمن الصلح فصغا إليه.

وفي السنة التالية (٣٤٥) أرسل إلى ليون سفير بن محمد بن حسين وابن شبروط اليهودي ليتفقا هما وأرذن على شروط الصلح فتساهل ووضعوا أساسها وعاد السفيران إلى قرطبة ليوقع عليها الخليفة فأمضاها بعد أن ارتضاها ابنه الحكم.

يقول دوزي ما معناه أن رامير تزوج امرأتين إحداهما جليقة ولدت له أردن والأخرى (برآقة) أخت غرسية ملك نفارة ولدت له شانجة - فبعد موت رامير طلب أردن كرسى الملك لنفسه لأنه البكر وطلبه شانجة أيضاً لأنه من بيت الملك في نفارة واستمال إلى حزبه فردند زعيم قشتيلة وزوج خالته فإن أم شانجة وامرأة فردند أختان أمهما طوطة فهذه من جهة حماة فردند ومن أخرى جدة شانجة - وكيف مال فردند إلى شانجة ومال عن صهره أردن لأن الظروف قضت عليه بذلك فدعا رجاله إلى حمل السلاح وسار معه شانجة وجيش من النفاريين إلى مدينة ليون لنزع تاج الملك من أردن.

في أثناء ما كان الفريقان يقتلان تحت أسوار ليون كان قواد الناصر ينتصرون في جميع مواقع التخوم وترد الرسائل تترى إلى قرطبة مبشرة بالفتوحات ومعها جملة أجراس وصلبان ورءوس مجتزة وقد بلغ عدد ما ورد من هذه الرءوس في سنة ٩٥٥ خمسة آلاف رأس ومع هذا قد انتصر فردند بالقرب من (سان استيفان) ونهب أردن اثبونة بعد أن دفع أخاه وأخضع الجلالقة الشائرين ولكن كان الجزاء ضئيلاً فلم يعدل ما ناله المسلمون من النصارى - خشية من تجدد الاغارات رغب أردن في الصلح فأرسل رسولا إلى قرطبة يطلبه في سنة ٩٥٥ فصفا إليه عبد الرحمن وأرسل في السنة التالية إلى ليون محمد بن حسين وهَسْدَاي بن شبروط اليهودي المدير العام للجمارك - فلم تطل المفاوضات فإن أردن تساهل في قبول مطالب الرسولين (يظهر أنه وعد بتسليم بعض الحصون أو هدمها على الأقل) وأقرّوا جميعاً دعائم المعاهدة وعاد الرسولان إلى قرطبة ليقرّأها الخليفة أيضاً فرآها شريفة ومفيدة ولكنها غير كافية وليس في أجله متسع لتنفيذها فإنه كان قد بلغ نحو السبعين وأنها تختص بزمان ابنه الحكم فألقاها إليه ليقطع فيها أمراً فوافق عليها فأمضاها الخليفة - وبعد قليل من الزمن أمضى معاهدة أخرى مع فردند فلم يبق عدو للمسلمين في أسبانيا سوى النفاريين. اهـ. معرباً.

فى آخر سنة ٣٤٥ مات أردن الثالث ملك ليون فخلفه شانجة المعروف بالسمن لسمن أصاب جسمه فأعياه وبعد سنة من حكمه ائتمر به الأشراف وخلعوه لاستبداده وولوا عليهم أردن بن أذقش فهرب شانجة إلى بنبلونة حاضرة نفارة وشكا أمره إلى جدته الملكة طوطة وابنها الملك غرسية ثم سار فى وفد إلى قرطبة سنة ٣٤٧ مظهراً أنه يرغب فى التداوى عند أطباء العرب الماهرين فى الطب فى ذلك الحين - لكن دلك على أن غرضه كان سياسياً أيضاً خروجه فى جيش من المسلمين سنة ٣٤٨ للاغارة على مملكة ليون وقد تم استرجاعها إليه فى سنة ٣٤٩ - هذا القدر المجمل من تاريخ شانجة السمن هو الذى يمكن الحكم بصحته - ولزيادة البيان نعرّب ما قاله دوزى وما قاله رومى فى هذا الموضوع مع تصرف.

فيؤخذ من دوزى أنه لما مات أردن الثالث فى مارس سنة ٩٥٧ خلفه على مملكة ليون من كان ينازعه فيها وهو أخوه شانجة^(١) فلم يقبل معاهدة الصلح التى كانت أبرمت بين أردن وعبد الرحمن وكان من شروطها التزام الأول بهدم الحصون القريبة من ثغور المسلمين فأمر الناصر قائده الشهم أحمد بن يعلى والى طليطلة أن يغزو ملك ليون الجديد فغزاه وانتصر عليه انتصاراً مشهوراً فى يوليو هذه السنة، فسرّ هذا النصر الخليفة وقوى عزيمته على غزو عدوه الآخر فى أفريقية فكانت ولاية شانجة شوما على البلاد وأيضاً على نفسه لأنه اجتهد فى كسر شوكة الأشراف ومحو نفوذهم واستبدّ بالحكم المطلق فكرهوه وفوق ذلك استفحل به مرض السمن حتى كان لا يستطيع ركوب الخيل ولا يمشى إلا متكئاً على آخر فكان الشعب يهزأ به ويعده اضحوكة فاتخذ (فردنند) كونت قشتالة سخط الليونيين على ملكهم ذريعة لخلعه فأتمر هو والجيش به فخلعوه فى فصل الربيع

(١) كذا فى دوزى - وفى ابن خلدون وابن عذارى أن الذى كان ينازع اردن بن ردمير هو أخوه غرسية.

من سنة ٩٥٨ واختاروا من بيت الملك أردن بن أذفونش الرابع ملكا عليهم وزوجه (فردند) ابنته (برآقة) أرملة أردن الثالث.

التجأ شانجة إلى بنبلونة وشكا ما أصابه إلى جدته طوطة التي كانت تحكم نفارة باسم ابنها غرسية مع أنه كان قد بلغ سن الحكم بنفسه منذ زمن بعيد فامتعضت من الليونيين والقشتيليين وأقسمت لتستردن إلى حفيدها ملكه مهما كلفها ذلك من الصعاب.

لكن ليس الأمر سهلا لأن نفارة وحدها لا تقوى على مهاجمة ليون وقشتيلة معا ولأن شانجة ليس له في مملكته القديمة من راغب - فلم تر طوطة أمامها إلا أن تحالف الناصر الملك القوى وتستعين به على مأربها وتطلب منه طبيبا من نطس قرطبة التي كانت وقتئذ مطلع الأنوار ليعالج حفيدها من سمه الفظيع حتى إذا عاد إليه كرسى الملك فى ليون يمكنه أن يتبواه بنفسه ولا يصير هزاة للناظرين لهذا أرسلت طوطة سفراء إلى قرطبة.

فلما عرضوا على الخليفة سبب مجيئهم أجابهم بأنه سيرسل طبيبا إلى بنبلونة ليداوى شانجة من علته ويعرض على بيت الملك شروطا فإذا رضى بها أمد الملك المخلوع بجيش يرد إليه كرسى ملكه.

بعد رحيل السفراء دعا عبد الرحمن إليه (هسداى Hasdai) اليهودى وكان ماهرا فى الطب ذا دهاء فى السياسة عارفا لغة النصارى وبعد أن زوده بتعاليمه أرسله إلى عاصمة نفارة فاستمال إليه شانجة ووعده بالشفاء القريب وقال له إن الخليفة يطلب منك أن تتنازل عن عشرة حصون وهو يملك مأربك فوعد شانجة بتسليمها بمجرد عودته إلى ملكه.

لم يكن ذلك فقط مهمة (هسداى) بل كلفه الخليفة أيضا باستمالة الملكة وابنها وحفيدها إلى زيارة قرطبة ليتحالفوا ويتفقوا على خطة السير فيما يرومونه باطنا ولمداداة الحفيد ظاهرا فنجح (هسداى) فى ذلك ووصلت الملوك الثلاثة

طوطة وغرسية وشانجة إلى قرطبة فاحتفل الناصر بلقائهم احتفالاً باهراً وأنزلهم في الزهراء.

وبعد زمن هاجم جيش النصارى قشتالة وهاجم جيش المسلمين مملكة ليون يصحبه شانجة وقد عوفى من ورمه وصار نشيطاً خفيفاً فاستولى الجيش أولاً على سمورة وفي شهر إبريل سنة ٩٥٩ خضع لشانجة جزء كبير من المملكة وقد قاومت عاصمتها زمناً لكن هرب أردن الرابع منها إلى استوريا أسقطها سنة ٩٦٠ - ولما ناب إلى شانجة ملكه أرسل إلى الناصر يشكره على صنيعه.

ويؤخذ من رومي أن موت أردن فتح باب التملك لأخيه شانجة الأول بعد أن كان مؤصداً في وجهه فسار على رغبات أشراف ليون في السنة الأولى من حكمه لكنه استبدّ عليهم بعدها فنقموا منه ذلك وخلعوه وكان روح هذه الفتنة (فردند) كونت قشتالة مع أنه كان عضداً له أولاً وملكوا عليهم ابن أذفنش الرابع (الراهب والأعمى) وكان يسمى أردن وزوجه الكونت ابنته برآقة مطلقة وأرملة أردن الثالث فاضطر شانجة إلى الفرار من ليون ولأذ بخاله الأكبر غرسية في بنبلونة فتقبله قبولاً حسناً لكنه لم يساعده بجيش يرد ليون إليه.

ومع هذا كان مأوى شانجة الجديد خيراً من القديم فإنه منذ سنين كان عرضه لاستفحال السمن بجسمه ولا يبعد أن يكون ذلك هو الحامل على اقضائه عن كرسى الملك فإن سمنه الثقيل كان يمنع جسمه من ممارسة الأعمال حتى صار لا يقدر على ركوب الخيل ولا أن يحفظ نفسه فوق ظهورها وذلك ما كان يشين الملك في ذلك الزمان.

لعل شانجة الشائنة ولشهرة أطباء العرب في تلك الحقبة أشارت عليه أسرته في نفارة أن يعرض نفسه عليهم في قرطبة - ومع هذا كان سفر شانجة إلى دار الخلافة يرمى إلى غرض سياسى وهو استمالة الخليفة إلى مساعدته بقوة عسكرية ترد إليه ملكه المسلوب فإن غرسية ملك نفارة أرسل إلى قرطبة وفداً المعروف من

أمره أنه يصحب شانجة لغرض شفائه من علته ولكنه كان مكلفاً بمفاوضة الخليفة في التحالف وفي استرجاع مملكة ليون وقد اشتركت طوطة أم الملك في هذه السباحة فرحب عبد الرحمن بشانجة وأنزله في قصره وخصّص لعلاجه أطباءه فداووه بشراب مركب من عصارات الأعشاب حتى أضاعوا من جسمه كثافة الشحم وردوا إليه لطافته وخفته - ويؤخذ منه في موضع آخر أن زيارة شانجة قرطبة كانت سنة ٩٥٦ وأنه حصل فيها على صحته ونشاطه الأول وأنه أقام فيها زمناً طويلاً بين العرب حتى تعلّم لغتهم وعاداتهم ونال محبة الخليفة وخيراته ثم أظهر رغبته في ردّ مملكته المغتصبة وطرده أردن الدخيل من ليون وكتب إلى خاله غربية بذلك وفاوض ديوان قرطبة في هذا الشأن فبعاً له جيشاً قلده الخليفة قيادته.

لم يذكر التاريخ شروط المعاهدة التي أبرمت بين الملك المخلوع والخليفة لكن يظهر من عدة شواهد أنها لم تكن ثقيلة ولا مزرية بشرف الأول وأنها كانت تتطوى على الاتحاد الودّي بينه وبين الثاني.

توجّه الجيش نحو ليون في وقت كان الليونيون فيه يُمقتون أردن الرابع لاجحافه بحقوقهم ولفساد أخلاقه وكان يحسّ من رعيته البغضاء له فلما بلغته اشاعة سير جيش العرب نحو ليون لخلعه وإقامة شانجة في كرسيه لم يسعه أن ينتظر دنوه منها بل فرّ ليلاً إلى الاستوريين.

لم يرَ من جيش العرب أثناء مسيره اعتداء ولا قسوة بل كان يعامل بالحسنى المدائن التي تفتح أبوابها لشانجة بدون مقاومة ويقهر المدن التي تأبى قبوله إلى الدخول في الطاعة.

وكانت البلاد المفتوحة ترحب به وتهلل وتعدّه مخلصاً لهم وما زال يتنقل الجيش من مدينة إلى مدينة ومن تهليل إلى تهليل حتى بلغ ليون حيث كان ينتظر شانجة جمهور عظيم ليحتفلوا به - عند ذلك اضطر أردن إلى الرحيل بأسرته من استوريا إلى برغش حيث كان يحكم صهره فردند فلم يجد فيها مأوى كما كان

يأمل إما لغيبة فردندد كما يقول ذلك بعض المؤرخين^(١) وإما لتغير أواصر المصاهرة بينهما لأسباب مجهولة في التاريخ فألجئ أردن وحده إلى الانزواء في بلاد المسلمين^(٢).

ويؤخذ من المقرئ^(٣) في تاريخ الناصر في حوادث سنة ٣٤٥ وما بعدها أن حافد طوطة ملكة البشكنس الذي انتقضت عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردندد هو (غرسية بن شانجة) لا شانجة بن أردن مع أنه قال في تاريخ الحكم ابن الناصر في حوادث سنة ٣٥٤ «ثم كانت وفادة أردن بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما اعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمه وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر أردون بصهره فردندد قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيرا به...».

نرجع إلى حوادث أفريقية فنقول.

كان المغرب في النصف الأول من القرن الرابع الهجري بين قوتين تتجاذبانه الأمويين في الأندلس والفاطميين في أفريقية وقد أتى حين من الدهر قويت فيه القوة الأولى فامتد سلطان عبد الرحمن الناصر على المغرب الأقصى والأوسط وكانت تواليه القبائل التي أسلمت منذ الفتح الإسلامي مثل قبائل زناتة وأما قبائل اليهود والوثنيين والشيعة مثل قبائل صنهاجة وكتامة فإنها كانت توالي عبيد الله

(١) يقول ذلك البعض إن فردندد كان غائبا حين جاءها أردن الرابع يتلمس مأوى وأن ملك نفارة كان يحارب فردندد وحبه وأولاده في (سيرونيا Cirue na) سنة ٩٦٠ ثم أرسل جميع الأسرى إلى ببلونة يؤيد ذلك ما يؤخذ من دوزي من أن غرسية وعبد الرحمن اتفقا على أنه حين يهاجم جيش العرب ليون يهاجم جيش النصارى قشتيلة.

(٢) يذكر المقرئ في تاريخ الحكم ابن الناصر أن أردن بن أذفونش وفد عليه مستجيرا في سنة ٣٥٤.

(٣) ص ١٧٢ ج ١.

وبنيه - وكان بعض قبائل البربر ينزع تارة إلى خليفة قرطبة وأخرى إلى خليفة القيروان على حسب مقتضيات الأحوال - وكذا كان شأن بقايا الإدارة بعد أن تقلص ظل ملكهم من فاس وتلمسان^(١).

كان للناصر ولاية قائمون بدعوته في المغرب منهم بنو سعيد بن صالح امراء نكور^(٢) من ساحل المغرب وقد سبق كلام عنهم في حوادث سنة ٣٠٥ ومنهم موسى بن أبي العافية كان أمير مكناسة وعلى يده مصالحة بن حبوس قائد الشيعة زال ملك الإدارة من فاس سنة ٣٠٧ أو سنة ٣٠٩ ثم صار موسى عاملاً للشيعة على فاس والمغرب ولأسباب خلع طاعتهم ومال إلى الخليفة الناصر ووالاه ونشر دعوته في المغرب^(٣) فجاء ميسور الصقلبي قائد الشيعة وحارب موسى وأجلاه عن عمله إلى الصحراء مستعيناً عليه ببني إدريس أعدائه وآل إليهم ما كان في يده سنة ٣٢٣ - من أجل ذلك انحرفوا إلى الفاطميين مع أن هؤلاء لما أزالوا ملكهم من فاس انحرفوا عنهم إلى الأمويين - ومع هذا أقصاهم ولاية الناصر عما ملكوه فأنابوا إليه.

وفي سنة ٣٣٢ نقض بنو محمد الإدارة طاعة الناصر وأسروا وإليه في سبتة فأغزاهم قائده قاسم بن محمد فجنحوا إلى السلم وأطلقوا الوالى سنة ٣٣٣ وبعثوا برهائهم إلى قرطبة مؤكدين الطاعة فقبل الخليفة انابتهم وأكرم وفادتهم.

ومن ولاية الناصر في المغرب بنو خزر عظماء زناتة يقال إن جدّهم خزر بن صولات هاجر وأسلم على يد عثمان بن عفان - أغاروا على مدينة تيهرت وأسروا ميسورا عاملها من قبل الشيعة وأقاموا فيها الدعوة لخليفة الأندلس وكتبوا إليه بذلك سنة ٣٣٣.

(١) انظر الذنابة الأولى الآتية.

(٢) يؤخذ من ابن خلدون أن نكور في الريف على ساحل المغرب الأوسط لكن يستفاد من ابن عذاري فما سبق أنها على ساحل المغرب الأقصى.

(٣) انظر حوادث سنة ٣١٩ السابقة.

ومن دعاة الناصر أيضاً أبو يزيد مخلد اليَفرنى الزناتى الخارجى ثار على الشيعة فى أفريقية وأوقع بهم وتغلب على القيروان ورقادة وأقام فيهما الدعوة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله - وجاءت رسل منه ومن أهل القيروان إلى قرطبة ينبئون الخليفة بهذا الفوز المبين سنة ٣٣٤.

كان أهل المغرب ينزعون إلى طاعة الناصر فرارا من مذهب الشيعة المنحرف عن الإسلام الحقيقى فلما تظاهر أبو يزيد أول الأمر بأنه ينصر شريعة الإسلام الطهرة من بدع الشيعة ويدحض ترهاتهم التفوا حوله ونصروه وكاد يجهز على دولة الفاطميين فى أفريقية لكنه لما استباح المحرمات انفضّ أغلب جنوده من حوله وخذله.

ففى سنة ٣٣٤ جاء رسول من القيروان إلى قرطبة ينبئ أن المنصور الشيعى لاقى أبا يزيد فى مدينة سوسة وهزمه إلى القيروان.

يؤخذ من ابن عذارى^(١) أن الناصر أغزى قائديه أحمد بن يعلى^(٢) وحميد بن يصل^(٣) المكناسى إلى بنى محمد الادارسة الحسينيين فى سنة ٣٣٨ فقادا جيشا إلى الجزيرة الخضراء فجاء رسول منهم إلى الخليفة يذكر طاعتهم له وانقيادهم لأمره فى هدم مدينة تيطاون التى أنكر عليهم بناءها فقبل انابتهم.

ثم وصل محمد بن أبى العيش الحسنى فأكرمه الناصر ثم جاء نبأ بوفاة أبى العيس فعزى الخليفة الابن عن أبيه وعقد له على عمله ووصله وخلع عليه وعلى الوافدين معه وصرفهم فبادر محمد إلى عمله فى المغرب.

كان عند وفاة أبيه قصد ابن عمه قنون إلى بلده فاستولى على ماله وأهله لكن لما بلغ البربر إقبال محمد بن أبى العيش من قبل الناصر رجعوا إلى عيسى بن قنون

(١) ص ٢٣١ و ٢٣٢ ج ٢.

(٢) أرى لفظ (يعلى) مضبوطا فى البيان المغرب بكسر الياء وفتح اللام وهذا الوجود ، فى لغة ولاجل أن يكون من عداد كلماتها بلفظ به بضم الياء.

(٣) لفظ (يصل) نارة يكتبونه أيضاً (بصال) وأخرى (مصال) ويظهر أنه لفظ بربرى.

وقد خرج عن تسيكيساس فسلبوه ما كان أخذه لابن عمه وقتلوا أكثر أصحابه فلم يخلص إلا في سبعة فوارس.

ويؤخذ منه في مواضع آخر^(١) أن بني محمد الادارسة شرعوا في إعادة بناء مدينة تيطاون سنة ٣٤٧ بعد أن هدموها فشكا أهل سبتة من ذلك إلى الناصر لأن في بنائها ضررا يلحق بهم فأغزاهم الناصر قائده أحمد بن يعلى وكتب إلى حميد ابن يصل صاحب تيجيساس^(٢) أن يعين القائد فلما اجتمع العسكران على بني محمد كفوا عن البناء ووعدوا أن لا يعودوا إليه وبعثوا بأولادهم إلى قرطبة رهائن على وعلمهم.

وفي سنة ٣٣٩ جاء إلى قرطبة الخير بن محمد بن خزر الزناتي كبير أمراء المغرب يذكر للخليفة ما أتاح الله له من دخول تاهرت وظفره بميسور الصقلي وابن بكار اليفرنى من قادة الشيعة فقرأ كتابه بجامع قرطبة وجامع الزهراء. وفيها جاء كتاب إلى قرطبة يذكر أن بني محمد الادارسة زحفوا إلى حميد بن يصال قائد الناصر ونزلوا عليه والتفوا به ولكن دارت عليهم الدائرة وانصرفوا مفلولين.

وفي سنة ٣٤١ جاءت الأنباء إلى قرطبة بأن زيرى الصنهاجى عامل الشيعة على تاهرت أسر سعيد بن خزر زعيم زناتة.

وفيها وصل إلى قرطبة فتوح بن الخير كبير أمراء زناتة ومعه وجوه أهل تاهرت ووهران وعرضوا على الناصر رؤوسا مجتزة من كبار الشيعة وبنودا وطبولا لهم فرفعت هذه الرؤوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة وأقيمت لفتوح ولمن جاء معه الكرامات الواسعة.

(١) ص ٢٣٠ ج ١.

(٢) تارة يكتبونها بالكاف وأخرى بالجيم ولم أرها في معجم ياقوت - وفيه تيفاش مدينة بأفريقية شامخة البناء ذات عيون ومزارع كثيرة وهي في سفح جبل.

يؤخذ من رومى^(١) أنه فى سنة ٩٥٥ (٣٤٣ و ٣٤٤) كتب والى فاس إلى الخليفة الناصر يخبره بنجاح جيوشه فى المغرب ويستأذنه فى بناء قبة الجامع الكبير فى عدوة القرويين فأذن له وبعث إليه بمال وافر من خمس الغنائم المكسوبة فى غزوة جليقة فوسّع الوالى الجامع وبنى القبة ووضع فى قمته سيف إدريس مؤسس مدينة فاس.

وفى هذه السنة احتلت جيوش الناصر مدينة تلمسان وأعلنوا فيها حمايته للأدارة.

وفى سنة ٣٤٤ أنشأ عبد الرحمن سفينة كبرى فى أشبيلية لنقل البضائع من أسبانيا إلى مصر والشام فلقبت أثناء سيرها مركبا يقلّ رسولا من صقلية إلى المعز الفاطمى فى أفريقية ومعه رسائل إليه^(٢) فاعترضت السفينة المركب وأخذت ما فيه غصباً ووالت سيرها وباعت بضائعها فى الاسكندرية واشترت منها غيرها ورجعت إلى الأندلس.

بلغ ذلك المعز فجهز أسطولا وأمر الحسن بن على عامله على صقلية أن يقوده إلى ساحل المرية فلما اقتربوا منه أبصروا السفينة الكبرى وهى عائدة فاقتفوا أثرها حتى قنصوها واجهضوا أحمالها وكان فيها أمتعة لعبد الرحمن وجوار مغنيات ثم حملوا على مراكب الميناء فسلبوا ما فيها وأحرقوها ثم صعدوا إلى البر فقتلوا ونهبوا وعادوا فرحين بغنيمتهم وادراك ثأرهم.

كان صدى هذا الاعتداء أن أمر الناصر بلعن الفاطميين على جميع منابر الأندلس وأن كلّف قائده غالبا أن يهاجم بأسطوله سواحل أفريقية لكن لم تأت

(١) ص ٢٠٣ ج ٤.

(٢) يقول ابن الأثير وأبو الفداء أن الرسول كان من صقلية إلى المعز ويقول كندى ورومى أنه كان من المعز إلى والى صقلية.

حملته بالنجاح الذى كان ينتظره الخليفة فإن الأندلسيين مع أنهم فازوا بعض الفوز فى مبدأ أمرهم دفعهم الافارقة واضطروهم إلى الإقلاع^(١).

قال ابن خلدون فى هذا الموضع بعث المعز إلى الحسن بن على عامل صقلية سنة ٣٤٤ أن يخرج باسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس فعاث فيه وغنم وسبى ورجع فأخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل أفريقية مع غالب مولاه فمنعتهم العساكر وأقلعوا ثم عادوا سنة ٣٤٥ فى سبعين مركبا فاحرقوا مرسى الخزر وعاثوا فى جهات سوسة ثم فى نواحي طبرقة ورجعوا. انتهى.

كلام صريح فى أن الناصر غزا الفاطميين فى أفريقية غزوتين واقتصر ابن الأثير وأبو الفداء على الغزوة الأولى فى سنة ٣٤٤.

ويؤخذ من كندى ورومى أن هجوم عامل صقلية على ساحل المرية أثار سخط خليفة قرطبة وكان حاجبه وقتل أحمد بن سعيد^(٢) الذى امتاز بفوزه فى غزوة جليقة الأخيرة فحقق للخليفة إمكان انتقامه من المعتدين وجمع السفن من شواطئ اسبانيا وقادها إلى وهران^(٣) مقلّة عددا عظيما من رجال الحرب الاشداء وجمع من فرسان الاندلس المحتلين بلاد المغرب خمسة وعشرين ألف فارس ثم هجم بالرجال والفرسان على أفريقية فقابله الحسن بن على بجيوشه ودارت رحى الحرب بين الفريقين حتى غلب وهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة وكان يتألف منها معظم جيش الافارقة واتبعوا آثارهم مشتتين شملهم ومحرقين بلاد المواليين للفاطميين حتى وصلوا إلى ضواحي تونس وكانت غنية بتجارها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود الاغنياء فحاصروها برا وبحرا وشددوا الحصار عليها

(١) دوزى ص ٧٧ ج ٣.

(٢) الذى فى نفح الطيب (أحمد بن عبد الملك بن شهيد).

(٣) قال ياقوت وهران مدينة على البحر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليلة.

فلما رأى أهلها أن الخطر محقق بهم ولا مغيث لهم عرضوا أن يسلموا المدينة وقدّموا مقدار جسيما من المال إلى ابن سعيد فطلب منهم مقدارا أجسم مما قدّموا فاضطروا إلى أدائه وأخذ منهم أيضا أنسجة مختلفة الاجناس وطُرُفا من الحُلَى وذهباً وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير للرجال والنساء وأسلحة وخيلا وعددا عظيما من الأرقاء.

وغنم أيضا سفن الميناء وأثقالها وضمتها إلى سفنه وسير أسطوله إلى اشبيلية مشحونا بهذه الغنائم الواسعة.

قدّم الحاجب منها إلى الخليفة الخُمس وقيمة سفن الكبرى وأعمالها التي قنصها الحسن وأعطى القوَّاد والرؤساء والجنود الذين دخلوا في غمار هذه الغزاة أنصبتهم كلاً على قدر منزلته حتى صاروا جميعا راضين وبقي للحاجب قسم كبير من الغنائم.

وقد رَقاه الخليفة إلى مراتب الشرف ورتَّب له في كل سنة مائة ألف قطعة من الذهب.

يحتمل أن ابن سعيد أهدي هديته المشهورة إلى الخليفة بعد عودته من هذه الغزاة.

وفى كندى أن الهدية قدّمت إلى عبد الرحمن بعد رجوع أحمد من غزوة جليقة لكن الاقرب إلى الحقيقة أنها أخذت أو قسم كبير منها على الأقل مما اختص به الحاجب من غنائم تونس ومهما يكن من الامر فكتَّاب العرب يعدّون أصناف الهدية هكذا أربعمائة رطل من الذهب الخالص من التبر^(١) - وقيمة أربعمائة وعشرين ألف دينار من سبائك الفضة^(٢) وأربعمائة رطل من عود النذ^(٣) -

(١) الذي في ابن خلدون والمقرى خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر.

(٢) الذي في ابن خلدون ومصارفة أربعون ألف دينار ومن سبائك الفضة مائتا بكرة.

(٣) في ابن خلدون اثنا عشر رطلا من العود الهندي الذي يختم عليه كالشمع ... انظر المقرى - =

وخمسمائة أوقية من العنبر الأشهب - وثلاثمائة أوقية من الكافور - وثلاثون ثوباً من الحرير الأبيض الموشى بالذهب ومائة وعشرة فراء من الفنك الخراسانية^(١) وثمان وأربعون ملحفة من الحرير والذهب مصنوعة في بغداد باتقان نادر المثال لزينة الخيل أيام الاحتفالات^(٢) وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول^(٣) - وثلاثون بساطاً فارسية^(٤) طول كل بساط منها عشرون ذراعاً - ومائة طنفسة للصلاة^(٥) وخمسة عشر نخاً من الخز وهو نوع من البسط المصنوعة من الجهتين على السواء^(٦) وثمانمائة شكة وتجفاف^(٧) من الحديد المصقول لخيال الحرب - وألف ترس ومائة ألف سهم - وخمسة عشر فرساً من الخيل العرب الجميلة التي تصلح لركاب الخليفة وخمسة أخرى ملجمة مسرجة بسروج من الخز العراقي وثمانون فرساً مهيأة ومروضة لركوب الحاشية في الحرب^(٨) - وعشرون بغلاً

= وزاد ابن خلدون ومائة أوقية من المسك الذكي وقال ابن الفرضي إن المسك مائتان واثنتا عشرة أوقية.

(١) عبارة ابن خلدون ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع وعشرة أفربة من جلود الفنك الخراسانية - انظر في المقرئ ما قاله ابن الفرضي - في بلقاموس الفتك بالتحريك دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها صالح لجميع الامزجة المعتدلة - وزاد ابن خلدون وستة من السراقات العراقية.

(٢) ومما زاده ابن خلدون هنا وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد والظاهر أن رومي أضاف جلود السمور إلى جلود الفنك - في القاموس كتثور دابة يتخذ من جلدها فراء مشتمة.

(٣) زاد ابن خلدون وألف رطل من الحرير المتقى للاستفزال...

(٤) عبارة غيره وثلاثون بساطاً من الصوف مختلفة الصناعات...

(٥) عبارة غيره ومائة قطعة مظليات من وجوه الفرش المختلفة الصناعات من جنس البسط.

(٦) كذا يقول رومي - وفي القاموس النخ بالفتح بساط طويل - وهم من قال (نوخا).

(٧) الشكة بالكسر السلاح - والتجفاف بالكسر أيضاً آلة للحرب يلبسه الفرس أو الإنسان ليقيه في الحرب - وعبارة ابن خلدون ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تجافيف الزينة أيام البروز والمواكب.

(٨) عبارة ابن الفرضي ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العرب المتخيرة لركابة خمسة عشر فرساً وخمسة من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز عراقي وثمانون فرساً مما يصلح للوصفاء والحشم وقال ابن خلدون مائة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب في المتصرف والغزوات.

بسروجها واجلالها السابعة^(١) وأربعون غلاما وعشرون جارية مكتسيات بكسًا فاخرة^(٢). انتهى. ما عربناه من رومى.

يظهر أن غزوة تونس فصلها رومى ناقلا عن كندى هى الغزوة الثانية التى أجملها ابن خلدون فى كلامه السابق - وما ذكره رومى من احتمال أن تكون هدية ابن سعيد بعد عودته فمن هذه الغزاة يمنع منه أن بعض المؤرخين نص على أن الهدية كانت فى سنة ٣٢٧.

من هذه الهدية يدرك الإنسان ما وصلت إليه بلهنية العيش وضحامة دولة الامويين فى الأندلس فى ذلك الزمان.

قد أزعج استيلاء الحاجب أحمد بن سعيد على مدينة تونس المجاورة لمدينة القيروان خليفة المهديّة المعزّ الشيعى فهبّ لاختد الثأر وشهر الحرب على بلاد المغرب التى كانت تحت حماية خليفة قرطبة الناصر السنّى منذ سنين.

فأرسل المعزّ قائده جوهر الرومى يقود عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة إلى هذه البلاد وأمره باخضاعها وإذلال أهلها والقسوة على رؤسائها فقام جوهر من القيروان إلى المغرب سنة ٣٤٧ مضمرا فى نفسه تنفيذ ما أمره به مولاه.

حيثذ دعا يعلى بن محمد اليفرنى والنائب عن الناصر فى المغرب رجال قبائل يقرن وزناتة إلى حمل السلاح وقتال جوهر - تقابل الجيشان بجوار تاهرت ودارت رحى الحرب وحمى وطيسها وكان الكتاميون يرمون إلى غرض واحد وهو قتل يعلى رئيس جيش المغرب.

فان جوهر فرّق فيهم أموالا لهذا الغرض خاصة قبل الدخول فى المعركة.

(١) عبارة ابن خلدون وعشرون من بغال الركاب مرسجة ملجمة بمراكب خلافة مجالس سروجها خز جعفرى عراقى.

(٢) عبارة غيره ومن متخير الرقيق أربعون وصيفا بكسوتهم وجميع آلانهم وعشرون جارية بكسوتهن وزيتهن.

قابل يعلى هجمتهم بثبات لكنهم أدركوه وحوله عدد قليل من أتباعه فأسقطوه عن جواده وأثقلوه بطعنات رماحهم وترجل أحدهم بسرعة وقطع رأسه وحمله إلى قائدهم ففرح بهديتهم وكافأهم عليها بمال جسيم وبعث بالرأس إلى المعز فأمر باطافته في القيروان.

ولّت قبيلة يقرن بعد قتل رئيسها وقد اجتهد ابنه هارون في تسكينها فلم يجد نفعاً.

عقبئذ سار جوهر إلى سجلماسة وشدّ الحصار عليها حتى فتحها ونهب أموالها وأسر صاحبها محمد بن الفتح وشدّ وثاقه وكان يلقب نفسه بالخليفة أمير المؤمنين الشاكر لله ويضرب نقوداً باسمه ويظهر عدلاً في أحكامه ومحافظة على السنّة ويعمل بمذهب مالك الذي بقى متبعاً في أفريقية وكذا في أسبانيا مدة حكم العرب فيها.

ثم اتّجه جوهر إلى فاس وحاصرها من جميع الجهات ثلاثة عشر يوماً ودخلها في يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ (١٣ نوفمبر سنة ٩٦٠) وضرب أعناق بعض أهلها وأسر واليها من قبل الأمويين وهو أحمد بن أبي بكر الزناتى ونهب المدينة وخرّب كثيراً من منازلها.

ثم أخذ يطارد جنود بنى أمية من جميع بلاد المغرب حتى استولى عليها ومع هذا لم يتّهك حرّمات المدن التابعة للأمير الحسن بن قنّون الإدريسي فإن هذا بادر بالاعتراف بسيادة المعز الفاطمي والدخول في حمايته.

بعد أن أخضع جوهر بلاد المغرب وسفك دماء حمايتها أنهاراً وقسا على أهلها وأذلّهم ومحا اسم الخليفة الأموى من خطب الجوامع وأثبت فيها اسم الخليفة الفاطمي عاد إلى أفريقية ومعه من الأسرى محمد بن الفتح الذي كان أمير سجلماسة وأحمد بن أبي بكر الذي كان والى فاس وخمسة عشر من أعظم

مشايخها مصفدين في أقفاص محمولة على جمال فامر أن يطاف بهم في شوارع القيروان وأسواقها ثم حملوا إلى المهديّة وسجنوا أيّاماً ثم أهلكوا^(١).

كذا يؤخذ من رومي وقد نقل عن مؤرخ سمّاه عبد الحليم.

ويؤخذ من ابن الاثير وابن خلدون أن المعز الفاطمي صاحب أفريقية أغزى وزيره جوهر الصقلي إلى المغرب في صفر سنة ٣٤٧ في جيش كثيف وخرج معه جعفر بن علي صاحب المسيلة^(٢) وزيّري بن مناد الصنهاجي صاحب أشير^(٣).

فساروا إلى تاهرت فلقاهم يعلى بن محمد الزناتى صاحب المغرب الأوسط جائياً من مدينته إفكان^(٤) فآكرمه جوهر ثم قبض عليه لمخالفة وناشته سيوف كتامة فثارت أصحابه فقاتلهم جوهر وهزمهم إلى إفكان ودخلها بالسيف ونهبها ونهب قصور يعلى وأسر ابنه وكان صبيا وأحرق المدينة في جمادى الآخرة.

ثم سار إلى فاس ونازلها فامتنعت عليه فرحل إلى سجلماسة وأخذها وقبض على صاحبها محمد بن الفتح من بنى واسول من مكناسة المتلقب بأمر المؤمنين الشاكر لله والضارب السكة باسمه وولّى ابن المعتز من بنى عمه مكانه ودوّخ بلاد المغرب إلى البحر ثم عاد إلى فاس وحاصرها حتى افتتحها عنوة على يد زيّري بن مناد تسنم أسوارها ليلاً وفتح أبوابها وأوقد المشاعل ودق الطبول فدخلها جوهر وقبض على واليها محمد بن بكر الجذامي في رمضان سنة ٣٤٨.

وطرد عمّال بنى أمية من سائر المغرب وضمّ تاهرت إلى زيّري وانقلب إلى القيروان ظافراً ومعه أحمد بن بكر ومحمد بن الفتح أسيرين في قفصين فحملهما إلى المعز في المهديّة في يوم مشهود.

ويؤخذ من ابن عذارى أن جوهرًا قائد المعز دخل في سنة ٣٤٧ بلاد المغرب

(١) انظر رومي ج ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) كقبيلة مدينة بالمغرب اختطها أبو القاسم محمد بن الهدى في سنة ٣١٥ وتسمى المحمدية.

(٣) كامير مدينة في طرف أفريقية الغربى.

(٤) مدينة بالمغرب ذات أرحية وحمامات وقصور.

واستولى على فاس ثم توجه نحو تيطاون ففر أمامهم الحسن بن قنون الادريسي إلى قرطبة ثم وصل القائد إلى سبتة فلم يقدر عليها فقصد سجلماسة وملكها بعد أن فر عنها صاحبها محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله ثم جرى به أسيرا إلى جوهر ومكث هذا بالمغرب نحو سنة.

ويؤخذ منه في موضع آخر أن الناصر أمر قائده أحمد بن يعلى سنة ٣٤٧ بأن يغزو في الأسطول إلى بلد الشيعي معد بن إسماعيل صاحب أفريقية فبرز لغزاته هذه يوم الخميس لثمان خلون من المحرم... وفي جمادى الآخرة ورد كتاب منه من افسلان من عمل تلمسان يذكر أن جوهرًا قائد معد (المعز) قتل يعلى بن محمد اليفرنى صاحب مدينة إفكان غدراً وأن ابن عمه انتصب مكانه بإقامة قومه له ثم رجع قائد الأسطول إلى قرطبة.

مناقشات:

- ١- يؤخذ من رومى أن يعلى جاء إلى جوهر محاربا ويؤخذ من ابن عذارى أنه جاء مسالما فقتله جوهر غدرا.
- ٢- ويؤخذ من رومى أن ابن يعلى بعد قتل أبيه أراد المقاومة فخذله قومه ويؤخذ من ابن الاثير أن جوهرًا أسره وهو صبي عند أخذ إفكان.
- ٣- لم يذكر رومى إفكان مدينة يعلى وقد ذكرها في كلام ابن الاثير وابن خلدون وابن عذارى ولم يذكر توجهه إلى فاس وامتناعها عليه قبل توجهه إلى سجلماسة كما جاء في ابن الاثير وابن خلدون.
- ٤- يذكر رومى أن جوهرًا دخل فاس يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ ويذكر ابن الاثير وابن خلدون أن دخوله فيها كان في رمضان سنة ٣٤٨ ويؤيد صحة كلامهما ما جاء في التقويمات من أن أول رمضان سنة ٣٤٨ يوافق يوم السبت فيكون يوم ٢٠ منه بالبداية يوافق يوم خميس - وأما رمضان سنة ٣٤٩ فالوله في التقويمات يوم الخميس فيكون يوم ٢٠ منه يوافق يوم الثلاثاء - وقد ذكروا

أن جوهرًا ابتداءً غزوته في صفر سنة ٣٤٧ ومكث في المغرب نحو سنة وعلى كلامه يكون قد مكث نحو ستين.

٥- ويذكر رومي أن اسم والي فاس (أحمد بن أبي بكر) ويقول غيره أحمد بن بكر ولم يذكر أن فتح هذه المدينة كان على يد زيري بن مناد كما نصّ غيره على ذلك.

٦- ويؤخذ من رومي أن جوهرًا لم يطارد الحسن بن فنون الأديسي ويؤخذ من ابن عذارى أنه فرّ منه إلى قرطبة.

٧- ويذكر رومي أن جوهرًا أخذ معه من الأسرى خمسة عشر سوى والي فاس ووالي سجلماسة واقتصر المؤرخون على الوالين.

٨- يقولون غزا جوهر في جيش كثيف ويقدر رومي عدد الجيش بنحو خمسة وعشرين ألفًا.

٩- ينصون على أن جعفرًا صاحب مسيلة وزيري صاحب أشير خرجا مع جوهر وقد أغفل هذا رومي.

١٠- زاد ابن عذارى أن جوهرًا توجه إلى تيطاون ثم وصل سبته فامتنعت عليه. وفي ذي القعدة سنة ٣٤٨ أرسل الناصر جماعة من وجوه الموالى والعرفاء ورجال الجند مع بدر الفتى صاحب السيف إلى مدينة سبته من أجل جولان جوهر قائد معدّ الشيعي صاحب القيروان ثم عادوا في آخر ذي الحجة بعد أن انفرجت الأزمة.

ويؤخذ من رومي أن حوادث أفريقية شغلت بال عبد الرحمن الثالث وضاعفت أحزانه فإنه كان لا زال يبكي عمه المظفر وولده عبد الله وحاجبه ابن سعيد الذي مات من أمد غير بعيد - ولرتق فتوقه في أفريقية وإدراك تأره من أعدائه فيها وجه إلى المغرب اسطولاً قويا يقلّ كثيرا من الجيوش فما لبثوا أن أعادوا شرف الخليفة إلى ذورته فإنهم لم يجدوا في المغرب مقاومة تذكر إلا أمام فاس

ومدن أخرى فملكوها بعد معارك عنيفة بينهم وبين جنود من كتامة وصنهاجة وأخضعوا كل البلاد الممتدة من فاس إلى البحر المحيط وعاد خطباء المنابر في جميع المساجد يخطبون باسم الإمام عبد الرحمن الثالث أمير المؤمنين وقد عمّ السرور شعوب السوس وقبائل زناتة واضطر الأمير الحسن بن قنون الإدريسي إلى أن يعود إلى طاعة الناصر وقد أطاع وليّ عهده الحكم أيضاً.

هشورات:

١- كان من عجائب الدنيا مدينة الزهراء التي اختطها عبد الرحمن الناصر في أول محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) في شمال قرطبة على نحو خمسة أميال منها وجعل طولها من الشرق إلى الغرب ألفين وسبعمائة ذراع وعرضها ألفاً وخمسمائة.

يحكى في سبب بنائها أن الناصر مانت له سرية وترك ما لا كثيراً فأمر أن يفك به أسرى المسلمين فلم يوجد أسير في بلاد الأفرنج فقامت له جاريته الزهراء وكان يحبها حباً جما اشتبهت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى ففعل وقد اتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها وجعلها مسكناً للزهراء وحاشيته وأرباب دولته. وقال ابن خلدون اختط الناصر مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسيا لملكه وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مباني أسلافه واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلمة بالشباك واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن. اهـ.

يروى المؤرخون أنه كان يعمل في عمارة الزهراء عشرة آلاف رجل وألف وأربعمائة بغل وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الاثنان والثلاثة أجرة في اليوم وكان البغال ألف بالكراء لكل بغل في الشهر ثلاثة مثاقيل. وكان يصرف في العمارة كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف

صخرة سوى الأجر والصخر غير المعدل وكان يجلب إليها الرخام الأبيض من المرية والمجزع من رية والوردى والأخضر من أفريقية من أسفاقُس وقَرطاجنة والسواري من رومة وكان يصل جالبي الرخام على كل رُخامة صغيرة بثلاثة دنائير وعلى كل سارية بثمانية.

وأهدى إليه ملك القسطنطينية مائة وأربعين سارية وكانت تشتمل مباني الزهراء على أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وعلى ما ينيف على خمسة عشر ألف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموه.

وكان يسكنها من الاناث ٦٣١٤ ومن الذكور ١٣٧٥٠ منهم ٣٧٥٠ من الفتيان الصقالبة وكانوا حراسا للخليفة وخداما في قصره وقيل إن عددهم كان ٦٠٨٧ وكان لهؤلاء من اللحم في اليوم ١٣ ألف رطل تقسم من عشرة أرتال للشخص إلى ما دون سوى الدجاج والحجل وأصناف الطير وضروب الحيتان.

وكان بها بحيرة ذات حيتان يرمى إليها كل يوم مقدار عظيم من الخبز والحمص الأسود المنقوع لتربيتها وحماما أحدهما للعمامة والأخرى للخاصة وجامع وقصر للخلافة: فالجامع كان يعمل فيه من حذاق العملة ألف عامل وثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخسمائة من الاجراء وسائر الصنائع.

فاستتم بنيانه واتقانه في ثمانية وأربعين يوما في شعبان سنة ٣٢٩ وكان ذا خمسة أبهاء ومحراب ومنبر بديع ومقصورة عجيبة وصومعة (مشدنة) وصحن مكشوف وجميعه مفروش بالرخام الخمرى وفي وسطه فؤارة يجرى منها الماء وطول الجامع من الجنوب إلى الشمال سبع وتسعون ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون وارتفاع الصومعة أربعون وعرضها عشر في مثلها^(١).

وأما قصر الخلافة فكان فخما عليه حلة من الجمال ممرّدا مشرفا على الرياض فيه مجلس مرمدة قُبته وحيطانه بقرامد الذهب والفضة يعرف بمجلس الذهب

وضع فى وسطه اللؤلؤة اليتيمة التى أهدها لبون ملك القسطنطينية إلى الناصر خليفة قرطبة وفيه حوض عجيب منقوش بتمائيل الإنسان قالوا إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله وأنه لما جلب من القسطنطينية نصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه تماثيل من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ترى فى هذه التماثيل صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة والشاهين والطاوس والدجاجة والديك والحداة والنسر تمجّ الماء من أفواهاها إلى الحوض.

يؤخذ من نفح الطيب أنه كان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى.

وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار وأنه كان فى وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان الناصر إذا أراد أن يفرغ أحدا من أهل مجلسه أو ما إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحاضرين أن المحل قد طار بهم.

وجاء فيه فى موضع آخر لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة... إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله... ولو لم يكن فيه إلا السطيح الممرّد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبّة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعه الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة

محكمة الصنعة وحياض وتمائيل عجبية الأشخاص لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها» لكفاه فوقانا على ما سواه من القصور.

واستمر العمل فى مدينة الزهراء نحو أربعين سنة من سنة ٣٢٥ إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم.

وقدّر بعضهم ما كان ينفق فى عمارة الزهراء كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة الخمسة والعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر فإذا صحّ هذا التقدير كان مجموع ما أنفق فى هذه الأعوام سبعة ملايين ونصف مليون دينار أى نحو ثلاثة ملايين وثلاثة أرباع مليون جنيه.

لكن هذا لا يستقيم مع قول ابن بشكوال «كان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند وثلث مدّخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الأندلس خمسة آلاف ألف ألف (مرتين) دينار وأربعمئة ألف ألف (مرتين) وثمانين ألف دينار» ولا يخفى ما فى هذا القول من الغلو فإنه يسعد أن تكون جباية الأندلس خمسة مليارات وأربعمئة مليون وثمانين ألف دينار ويظهر أن كلمة (ألف) فى المكرر مقحمة فتكون الجباية خمسة آلاف ألف (خمسة ملايين) وأربعمئة ألف وثمانين ألف دينار.

بعد كتابة هذا رأيت فى المقرئ فى موضع آخر ما يؤيده قال ما نصه «وقال غير واحد أنه كان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدّخر وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمئة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمئة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان»^(١).

كان القاضى منذر بن سعيد^(٢) ينكر على الناصر اسرافه فى البناء فى المسهب

(١) المقرئ ج ١ ص ١٧٩.

(٢) سبب تعلقه بالناصر خطبته المشهورة أثناء الاحتفال برسل ملك الروم كما سيأتى قريباً.

فى أخبار المغرب أن منذر بن سعيد دخل يوما على الناصر بانى الزهراء وهو
مكب على الاشتغال بالبناء فوعظه فأنشده الملك:

همم الملوك إذا أرادوا نشرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن السناء إذا تعاضم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشأن
ودخل منذر على الناصر مرة وهو فى قبة جعل قمردها من ذهب وفضة
واحتفل احتفالا ظن أنه لم يصل إليه أحد من الملوك فقام خطيبا والمجلس قد
غص بآرباب الدولة فتلا قوله تعالى ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن
يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ واتبع الآية بما يليق
بذلك فوجم الملك ولم يسهه إلا احتمال منذر لعظم قدره فى علمه ودينه وحضر
معه يوما فى الزهراء فأنشد الرئيس أبو عثمان قصيدة للناصر منها:

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن
مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا
فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر ساعة ثم أنشد:
يا بانى الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبيل

فقال الناصر إذا هبّ عليها نسيم التذكّار والحنين وسقتها مدامع الخشوع
لا تذبل. اهـ.

وقد ذبلت الزهراء في سنة ٣٩٨ وسيأتي بيان ذلك.
حكى أن الوزير ابن جهور قال وقد وقف على قصور الأمويين المتقوضة:
قلت يوما لدار قسوم تفانوا
أين سكانك العـزـزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا
ثم سـاروا ولست أعلم أيننا

٢- في سنة ٣٣٢ ليلة الاثنين لتسع خلون من ذي القعدة حدث في قرطبة
زلزلة هائلة دامت ساعة ففرع الناس ولجئوا إلى المساجد ودعوا الله في كشفها
فصرعها عنهم.

وفي صباح ليلة الزلزلة هبت عاصفة ردفها أخرى فاقتلعت كثيرا من الشجر
والنخل - ونزل إثر ذلك مطر وابل يحمل بردًا غليظا فقتل كثيرا من الطير والوحش
والماشية وأتلف ما أصاب من الزرع^(١).

٣- عنى الناصر بتربية ابنه الحكم وتهذيبه واختار لتعليمه كبار الاساتذة
وشهزاءهم حتى استدعى إليه من بغداد إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي على
القالى وكان ذا حظوة عند العباسيين وشهرة في العراقيين العربى والفارسي وكان
يصاحب الحكم في قصر الزهراء.

ويتردد إليه في ذلك القصر أيضا نخبة العلماء والأدباء فشب مولعا بالعلوم
والآداب ذا حلم ومكارم أخلاق محبوبا عند الرعية - لذلك ولكونه أكبر أخوته كان
أهلا لولاية عهد أبيه لكن حسده على هذه الولاية أخوه عبد الله وكان أيضا ذا علم
وحذاقة في الفقه والشعر يعرف علم الهيئة والفلسفة وقد كتب تاريخا للعباسيين -

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٣٢.

ومع هذا سولت له بطانته أن يتخذ الوسائل الحائلة دون تولية أخيه فأتَمروا به في القصر المرواني في ضاحية قرطبة ليقتلوه في يوم عيد الأضحى فبلغ أمرهم الخليفة فبادر بارسال كوكبة من فرسانه الصقالبة تحت قيادة أحد وزرائه فدخلوا القصر ليلاً باسم الخليفة وباغتوا الأمير عبد الله ومعه صاحبه الفقيه أحمد بن عبد البر وشريف آخر يسمى أحمد بن العطار ويعرف بصاحب الورد وساقوهم إلى الزهراء وسجنوهم فرادى.

ثم اشخصوا الأمير الشاب أمام أبيه فسأله عن جريمته فكانت إجابته الاضطراب والبكاء ثم سأله وزيران من مجلس الحكومة في غير حضرة أبيه فاعترف بما فعله هو وابن عبد البر اعترف بأنه فقد رشده بسماعه وسأوس هذا الفقيه وأن هذا ألقى في أمنيته خطته السوداء انتقاماً من حكومة الناصر لأنها لم تعهد إليه بوظيفة قاضي القضاة وأنه لا شريك له في المؤامرة سواء ويراً صاحب الورد من أن يكون له يد في الأمر.

فلم ينفع عبد الله بكاؤه ولا صدقه ولا شفاعته أخيه بل حكم عليه بالاعدام في اليوم الذي كان موعد تنفيذ ما تأَمروا فيه وحكم على ابن عبد البر بضرب العنق فنزعت روحه في السجن وكانت هذه الحادثة في ذى الحجة سنة ٣٣٧ - وقد مات في هذه السنة المظفر مأسوفاً عليه.

كذا يقتبس من رومي ومأخذه تاريخ كندى وهاك تعريب ما فيه بتصرف:
عهد عبد الرحمن بولاية العهد لابنه الحكم فحلف له الوزراء والولاة والقضاة والكتاب يمين الطاعة وكان الأمير عبد الله أخوه مولعاً بالعلوم ويساميه فيها وفي الحركات البدنية وركوب الخيل واستعمال الأسلحة وكانت محبة الناس الملتفين حوله إياه تعادل محبتهم أخاه فقد جذب قلوبهم إليه ببشاشته وكرمه وكان هذان الأميران يتفقان في حسن الشيم ويتصفان بالحذق وسعة المدارك.

ولكن عبد الله نفخه ما كان يسمعه من كلمات أتملق فاختطاً محبة الصواب

ولجأ إليه الناس المتملقون راجين من وراء ذلك نيل أغراضهم فقامت بنفسه افكار كان من جرأتها أن تغيرت حياته السعيدة ذات الشرف والمجد إلى حياة ذات بؤس وشقاء فنزع إلى انتزاع المملكة التي عهد بها والده إلى أخيه فأجبرته المخاوف التي تحف بهذا الأمر إلى العمل في الخفاء - يذكر أبو عمر بن عفيف هذه الحادثة في كتاب تاريخه الذي أتمه ابن حيان بالصورة الآتية:

كان أعز صديق حميم للأمير عبد الله رجل ذو قدرة خارقة للعادة يسميه بعض الكتاب الفقيه أحمد بن محمد ويعرف بابن عبد البر وكان يلزم الأمير ملازمة شديدة حتى يقال إنه لم يفارقه قط فكان يصاحبه في غزواته وروحاته ويندر أن يرى عبد الله بغيره.

كان هذا الرجل يكتم في صدره مطامع واغراضا فكان يصانع من فوقه ويعتو على من دونه ويخفي تحت ثياب تنبي عن الحشمة والوقار نفسا خبيثة ذات مكر ودهاء وعزم أكيد على القيام بمطالبها الخفية أمكن هذا الرجل أن يخدع الأمير عبد الله فذكر له أن الأشراف في قرطبة والأقاليم يظنونونه حزينا لأن أباه آثر أخاه الحكم عليه بتوليته إياه ولاية العهد وأظهر له أنه ممتاز عليه بكثير من الصفات الحسنة مما جعل الناس اجمعين يحبونه ولما وجد الأمير معيرا أذنا لكلامه زاد أنه إذا أراد أن يخطو بضع خطوات في سبيل انتخاب الجمهور إياه فإنه لا يجد أدنى صعوبة في هذا الأمر وأن هذا هو العلاج النافع لما أصابه من ظلم أبيه.

وقد ذهب أحمد بن محمد شوطا بعيدا إذ قال أخيرا لعبد الله إن الملك والده ربما يضطر إلى تسليم عرش المملكة إليه بدون ريث وأكد له أن جميع ما يعمل في ما يؤدي إلى مثل تلك النتيجة هو عين الحق.

ضلّ عبد الله السبيل وقتن بالمنظر الذي أراه إياه ابن عبد البر وتحير حينما سمع منه كلمات الملق ووعدّه بأنه هو الذي يقوم بجميع ما في الأمر ضامنا له

حياته وذكر أن ذلك عنده من السهولة بمكان وأنه جهز المعدات التي لا يشك في أنها تؤدي إلى النجاح.

أثرت تلك الكلمات في الأمير المخدوع فكانت سبب نحس طالعه فإنها هي التي قادته لاطويته السليمة إلى أن أذن لهذا الرجل أن يكون له حزبا ويأخذ هو في جذب قلوب وزراء وقواد أبيه إلى جانبه.

كلأ عبد الله أصحاب ابن عبد البر بعين الرعاية ونصبهم في بعض المناصب وأسبل عليهم رضاه التام وفي الوقت نفسه كان يتعرف بأناس من جميع الطبقات كما أشار عليه مرشده الخادع.

لم يعجب أحد حين رأى أن الأمير عبد الله يذهب إلى منازل العلماء الذين طنّ صيتهم في آذانه وأن هؤلاء العلماء يترددون على قصر مروان الذي كان يسكنه الأمير لأنه كان اشتهر بولوعه بالعلوم الأدبية ولكن ابن عبد البر لم يقصر دخول القصر على من يشق بهم بل جعله عامّا لكل زائر ولم يخصص الناس الذين يزورهم عبد الله.

فكانت نتيجة ذلك أن ذهب أحدهم إلى عبد الرحمن وأقضى إليه كل شيء وأكد له أن هذه الأفاعيل لا تؤدي فقط إلى صعود عبد الله فوق كرسى المملكة بل إلى انقضاء ملكه العاجل والقضاء على حياة الأمير الحكم أيضا فإن أقل ما في عزم المتآمرين قتله حتى يكون ضمانا لحياتهم وحدّد اليوم المزعم فيه انجاز الجريمة وهو يوم عيد الأضحى الذي كان قرب ميعاده.

لم يزل عبد الرحمن غير مصدّق هذه الرواية إلا أنه لم يهمل شأنها لعظمه فدعا عمه الأمير المظفر وأطلعه سرّاً على ما بلغه واتفقا على أن يرسل أحد الوزراء في جنح الليل إلى قصر الأمير عبد الله ويقبض عليه ويقوده إلى مدينة الزهراء حيث كانت تجتمع المحكمة فأعد الوزير معدات ذلك وذهب إلى قرطبة ودخل باسم الملك قصر مروان الذي كان يسعد قليلا عن المدينة فأدهش ذلك

الأمير الذي كان في تلك الآونة في صحبة الفقيه ابن عبد البر والفارس أحمد بن عبد الله بن العطار المسمى بصاحب الورد فقبض الوزير على هذين الشخصين لاشتباهه في أمرهما وساقهما إلى الزهراء وحبسهما منفردين لكي يمنعهما من المحادثة.

ولما مثل عبد الله بين يدي أبيه قال له أبوه يظهر لي أنك استأت من عدم تبوئك عرش مملكتي فلم يحمر الأمير جوابا ولم يمكنه غير البكاء فأمر والده بأن تغلق عليه حجرة.

أمر الخليفة وزيرين أن يذهبا ويستطلعا سر المؤامرة من عبد الله ففعلا ذلك ولم يتردد الأمير في الإقرار بما حصل إلى الساعة التي قبض عليه فيها. الآن صار من الجلى أن تحريضات ابن عبد البر هي التي ألجأت عبد الله إلى المؤامرة ضد أخيه وأنه هو الذي مهد السبل للجريمة فإن عبد الله لم يعرف أحدا سواه من الذين لهم ضلع فيها وإن صاحب الورد كان بريئا لأن عبد الله شهد بأنه لم يدخل في تدبير هذه المكيدة.

وقصارى القول أنه قد ظهر للعيان أن الأمير عبد الله لم يحدث إلا عن وسوس ابن عبد البر وعن المكيدة التي دبرها وأنه لم يعرف سواه من المتآمرين وأن هذا الفقيه أراد بذلك أن يحصل على وظيفة قاضى قضاة اسبانيا... فلم يحصل على مبتغاه.

وقد حكم عليه بالاعدام في اليوم الذي كان موعد تنفيذ جريمته ليكون ذلك شاهدا عدلا على اجرامه.

لما علم ابن عبد البر بهذه الحقيقة قال (بيدى لا بيد عمرو) وقتل نفسه في السجن في ليلة اليوم الموعود وكان ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٣٣٨.

تتفق الروايات في أن الحكم طلب العفو عن أخيه ولكن عبد الرحمن الناصر أجابه بأن شفاعتك وطلبك العفو لأخيك لجليلان ويعودان بالنفع عليك وإنى إذا

كنت في مرتبة أحد الأشراف لكان الأمر كما أحيت وكما يملئ على ضميري ولكن لكوني ملكا فلا بد أن أنظر إلى المستقبل وأكون لأمتي مثالا حسنا وإن كنت سأبكي ولدى وأحزن عليه ما حيت مضطر إلى أن أفعل ما توحى إليه العدالة ويجب على أن اتخذ الخليفة العظيم عمر بن الخطاب قدوة وأسير على منواله في العدل وعلى ذلك لا تستطيع دموعك المنسكبة أو يأسى المنقطع أو الحزن الذي سيخيّم على أهل بيتنا أن تنقذ أخاك من قصاص ذنب لا ريب في أنه اقترفه.

يقال إن الأمير عبد الله كتب إلى والده بشأن صاحب الورد قاتل له لا تدع إنساناً آخر يؤخذ بجريرتي.

وفي الليلة نفسها قتل الأمير في سجنه وفي اليوم التالي دفن في مدفن الرصافة واحتفل بجنازته ومشى في مشهده الحكم وأخوته وغيرهم من أسيرة مروان وكثير من أهل المدينة.

لم يمض زمن مديد على تلك الحادثة المحزنة حتى أصيبت أسرة الخليفة برزء جديد وهو موت الأمير المظفر عم الملك عبد الرحمن فجزع عليه جزعاً شديداً لأنه كان يحبه كأيّيه وهكذا سنة الدهر فإن مصائبه يتلو بعضها بعضاً.

وقال ابن خلدون في هذا الموضوع كان الناصر رشح ابنه الحكم وجعله وليّ عهده وآثره على جميع ولده ودفع إليه كثيراً من التصرف في دولته وكان أخوه عبد الله يساميه في الرتبة ففصّ بذلك وأغراه الحسد بالنكثة فنكث وداخل من في قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه وكان منهم يأسر الفتى وغيره ونمى الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلى فيه وقبض على ابنه عبد الله وعلى يأسر الفتى وعلى جميع من داخلهم وقتلهم أجمعين.

٤ - قوة الناصر البرية التي أحمدها بها نيران الفتن التي كانت مشتعلة في

الاندلس والتي قهر بها نصارى الشمال.

وقوته البحرية التي أمكنته من الاستيلاء على سبته مفتاح المغرب وعلى تونس القرية من القيروان إحدى عواصم مملكة الفاطميين في أفريقيا.

وضخامة ملكه في العمران وعظمة شأنه في الحضارة والعرفان كل ذلك أكسبه شهرة ملأت الآفاق ودفعت ملوك الأمم الأخرى إلى الازدلاف إليه.

ففي سنة ٣٣٨ (٩٤٩) بعث إليه قسطنطين بن ليون ملك الروم رسلا يحملون إليه هدية وكتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التي كانت بين أسلافهما على خلفاء بغداد وكان الكتاب مكتوباً بحروف من الذهب في رقّ ذي لون سماوي وفيه طرس سماوي أيضاً مكتوب بحروف من الفضة يصف الهدية وأصنافها وكلاهما بالخط الأغريقى وعلى الكتاب طابع ذهب يزن أربعة مثاقيل على أحد وجهيه صورة المسيح عليه السلام وعلى الآخر صورة قسطنطين وابنه رومانوس والكتاب موضوع في علبة من فضة منقوش على غطائها إطار من ذهب فيه صورة قسطنطين مرسومة على زجاج ملوّن بأبداع رسم - والعلبة في جعبة ملبسة بالديباج. وكان مفتاح الكتاب ما ترجمته في السطر الأول «من قسطنطين ورومانوس المؤمنين بالمسيح الملكين العظميين ملكى الروم».

وفي السطر الثانى «إلى العظيم صاحب المجد الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب فى اسبانيا أطال الله بقاءه».

لما أخبر الناصر بوصول الرسل إلى الحدود وجّه للقائهم القائد يحيى بن محمد تحفّه كوكبة من الفرسان فتلقاهم بالتجلّة ورافقهم فى الطريق ولما قربوا من قرطبة تلقّتهم بالحفاوة فرّق من الجنود كاملة العدّد والعدّد يقودها كبار القوآد ثم لقيهم الخصيّان ياسر وتمام كبيراً الموالى أولى السلطان فى القصر الخلفى وكان هؤلاء وقتل من عظماء الدولة.

فكان ذلك من المبالغة فى الاحتفال بالوافدين ثم أنزلوا فى قصر فى ضاحية

قرطبة وأقيم على حجابتهم بعض وجوه الموالى ومنع الناس طراً من مخالطتهم وفي ١١ ربيع الأول (٧ سبتمبر سنة ٩٤٩).

استوى الخليفة على عرش الخلافة في قصر قرطبة السلطاني وقعد عن يمينه ويساره أبنائه وأعمامه والوزراء والولاة والعلماء على حسب مراتبهم ووقف في الخدمة أبناء الوزراء والموالى بأزياء بديعة وفي الحراسة جنود مدججة بالسلاح مرتبة الصفوف.

وقد بسط صحن القصر بنفائس البسط وكرائم الدرائك^(١) وظللت أبوابه وحنياه بظلل الديباج ورفع الستور.

فلما جرى بالرسول إلى هذا المجلس الزاهر بهرهم ما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودنوا من العرش وأدوا رسالة ملكهم، حيثئذ أمر الخليفة أن يخطب العلماء والشعراء بما يناسب المقام فراعهم هول المحفل وأبهة الخلافة فارتج عليهم وكان منهم إسماعيل أبو على القالى^(٢) البغدادي وكان في بطانة الحكم ولي العهد قام يخطب بإشارة منه فحمد الله وصلى على نبيه ثم بهت فقام الفقيه منذر بن سعيد من ذاته ووصل افتتاح القالى بكلام بليغ خلب الالباب واسترق الاسماع ولما انفرط عقد الجمع أخذ الناس يطرون منذرا ويعجبون من ثبات جنانه وسحر بيانه وأعجب به الناصر وولاه الصلاة والخطابة في جامع الزهراء ثم ولاه قضاء قرطبة.

وبعد أيام انصرف هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم وزيره هشام بن هذيل بهدية من الصافنات الجياد ومن الأسلحة القيمة المصنوعة في قرطبة وطليلة ليوطد دعائم المودة بين الملكين ورجع بعد ستين وعاد معه رسل قسطنطين.

ثم بعد ذلك وفد على الناصر رسل من ملوك أمم أوروبا: الصقالبة^(٣)

(١) جمع درنك بكسر الدال والتون وهو الطنفسة.

(٢) نسبة إلى قاليقلا.

(٣) انظر الذنابة الثالثة.

والألمان والافرنج القاطنين وراء البرت والافرنج المتأخمين لهم من جهة الشرق ووصل مع رسولهم رسول صاحب برشلونة وطركونة ووصل بعده رسول صاحب رومة فاحتفل الناصر لقدمهم وأجاب رغباتهم ورجعوا معجبين بحضارة الإسلام في الأندلس.

هذا مجمل كلام المؤرخين الذي لا مزية فيه لكنهم اختلفوا في أسماء ملوك تلك الأمم.

فقد جاء في المقرئ أن ملك الصقالبة يومئذ (دوقوه) وفي ابن خلدون أنه (هوتو) وفيهما أن ملك الافرنجة وراء البرت (أوقه) وملك الافرنجة بقاصية المشرق (كلدة) وقال ابن عذارى «في سنة ٣٤٢ قدمت رسل (هونوا) ملك الصقالبة على الناصر» وقال دوزي إن مؤرخي قرطبة يسمون ملك الصقالبة (أوتون Otton^(١)) وقال رومي إن العرب يسمونه (دوقوا) آخذين ذلك من لقبه (دوق Duc) ويسمون ملك الفرنك وراء جبال البرانس (أوقه Ouketh) وهو (هوغوس Hugues) ملك إيطاليا وبروفنسا وأنه جاءت بعثة من امرأة ملك الفرنك الآخر المسمى (كلرة Kalara)^(٢) وإنه جاء إلى قرطبة رسل من كونت برشلونة الذي كان يسمى (سُونيَاire Suniaire) يصحبون سفراء الملكة أرملة (شارل الشاذج Charles -le - simple) ووالدة (لويس الرابع) اهـ^(٣).

وأقول إن أمبراطور ألمانيا الذي كان في عصر الخليفة عبد الرحمن هو (أوتون الأولي Othon) فإنه ارتقى على عرشها سنة ٩٣٦م (٣٢٤هـ) ومات سنة ٩٧٣م (٣٦٢هـ) وأخضع الصقالبة فيظهر أنه هو الذي بعث رسولا أو رسلا إلى الناصر.

(١) انظر هامش ص ٦٠ ج ٣ - في Otton زيادة نون وحذف هاء وفي (هوتو) العكس ويظهر ان الاسم الحقيقي (هوتن) فابحث.

(٢) بالراء بعد اللام وفي ابن خلدون والمقرئ (كلدة) بالبدال ويظهر ان أحدهما محرف عن الآخر.

(٣) ج ٤ ص ١٩٢.

وأن دوق فرنسا فى ذلك العصر كان (هوغوس Hugues) فإنه مات سنة ٩٥٦ (٣٤٥) فيظهر أنه هو الذى يحرفون اسمه إلى (أوقه).

وأنه يستتج من مقارنة عبارة رومى الأخيرة بما فى التواريخ العربية من أن رسول ملك برشلونة وطركونة وصل إلى قرطبة مع رسول (كلدة) ملك الافرنجة بالمشرق أن اسم (كلدة) أو (كلرة) محرف عن (كارلة) أو (كارلوس) أو (شارل Charles) وإن لم يخلُ الكلامان من اختلاف.

٥- كان الناصر يقوم بأعباء مملكته بنفسه ولا يكل شئونها إلى غيره فكانت تستغرق أوقاته - لكنه فى سنة ٣٤٤ وزّع بين وزرائه أعمال ديوانه فاخص الوزير جمهور بن أبى عبدة بالنظر فى كتب أهل الخدمة والوزير أحمد بن فطيس بالنظر فى كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف والوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالى بالنظر فى تنفيذ كل ما يخرج من العقود والتوقيعات والوزير محمد بن جدير بالنظر فى مطالب الناس وتنجز التوقيعات لهم فالتزم القوم ما ألزموا به وكان الخليفة يشرف على جميع أعمالهم.

٦- ساقطنا الحوادث التاريخية السالفة إلى سنة ٣٥٠ وفى ثالث رمضانها أفل نجم عبد الرحمن الثالث وهو ابن اثنتين وسبعين سنة بعد أن حكم منها ما ينيف عن خمسين سنة.

كان واسطة عقد ملوك بنى أمية فى الاندلس يمتاز ببلاغته وشجاعته وإقدامه وعدله وكرمه ورأفته بالرعية.

أطفا نيران الثورات التى كادت تقوض دعائم ملك بنى أمية فى الاندلس تارة بلسانه وأخرى بسيفه وقاد الجيوش بنفسه إلى بلاد الأعداء حتى خضعت له ممالك الشمال وامتد سلطانه فى بلاد المغرب من أفريقية وسارت البلاد فى عهده شوطا بعيدا فى سبيل الحضارة والعمران وتقدمت الزراعة والصناعة والتجارة وارتقت العلوم والفنون والآداب ولا سيما الشعر.

مما ينبئ عن رقى زمن الناصر ما يحكى أنه أراد الفصد فقعد بالبهو فى المجلس الكبير بأعلى قصره بالزهراء واستدعى الطبيب فأخذ الموضع وجسّ يد الخليفة فينما هما على هذه الحالة إذ أطل زرزور فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد:

أيها الفاصد رفقا
بأمير المؤمنين
إنما تفصد عرقا
فيه محيا العالمينا

وكرر ذلك المرة بعد الأخرى فاستظرفه الناصر وسأل عمن علم الزرزور ذلك فقبل له إنها السيدة مرجانة أو ولده الحكم فوهب لها ما ينيف عن ثلاثين ألف دينار^(١).

ويؤخذ من دوزى أنه فى مارس سنة ٩٦١ مرض عبد الرحمن الثالث وخيف على حياته ومع هذا نجح الأطباء فى علاجه.

وفى أول يوليو نقه من مرضه ولكن النقاهة ما كانت إلا ظاهرية فقد انتكث وعاد إليه مرضه وفى ١٦ أكتوبر من سنة ٩٦١ أسلم الروح إلى بارئها وهو ابن سبعين سنة حكم منها نحو تسع وأربعين سنة.

كان له المقام الأول بين ملوك بنى أمية فإنه قد جاء بالعجائب: وجد المملكة فوضى ممزقة بالأحزاب مقسمة بين جملة أمراء من أجناس مختلفة معرضة لاغارات نصارى الشمال المستمرة ومشرفة على أن يتلعها الليونيون من جهة والأفارقة من جهة أخرى ورغما عن العقبات التى لا تحصي خلّص الأندلس من التهلكة فى الداخل والخارج وبعثها أعظم وأقوى مما كانت عليه وأكسبها النظام والسعادة فى الداخل والاعتبار والاحترام فى الخارج.

(١) نفع الطبيب ج ١ ص ١٧٠.

وجد خزائنها خالية فى حالة يرثى لها فأفعمها بالأموال حتى بلغ دخل المملكة السنوى إلى ستة ملايين ومائتين وأربعين وخمسة آلاف دينار وكان ثلث الدخل يكفى للمصروفات العادية والثلث الثانى يدخر والثلث الأخير يخصص للبناء.

أكد سائح يعنى بالأمور المالية أن عبد الرحمن والحمدانى الذى كان يحكم وقتئذ فى بلاد الجزيرة (بين دجلة والفرات) كانا من أغنياء الملوك فى ذلك الزمان ولا ريب أن بين ضخامة الجباية العامة وارتقاء البلاد ارتباطا.

كانت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب زاهرة فى عصره فكان الغريب يروقه جمال المزارع وطرق أروائها الهندسية العجيبة التى كانت تخصب الأراضى المجذبة ويعجب من كمال النظام المستولى على الاقضية بواسطة الشرطة المتيقظين ويستغرب من انخفاض أثمان الأطعمة ومن نظافة الملابس ومن الرفاهية العامة التى كانت تسمح للسابلة بركوب البغال بدل السير على الاقدام.

كانت قرطبة والمرية ومدن الأندلس الأخرى غنية بصناعاتها العديدة المختلفة.

واتسعت فى عهده دائرة التجارة وكانت رسوم الجمارك عن الصادر والوارد تكون الجزء الأعظم من دخل المملكة.

كانت قرطبة فى عصره تضارع بغداد فى العظمة والحضارة وقد بلغ عدد سكانها إلى نصف مليون وعدد مساجدها إلى ثلاثة آلاف وعدد قصورها ودورها إلى مائة وثلاثة عشر ألفا وعدد حماماتها إلى ثلاثمائة وعدد ضواحيها إلى ثمان وعشرين.

ذنابات:

هدانا سير تاريخ الناصر فيما مر إلى الكلام على حروبه فى أفريقية وقد كان فيها لعهد سنلثان يرجع نسبهما إلى على بن أبى طالب وهما الادارسة

والفاطميون وكان ينبغي لنا أن نستطرد حين عرضت هذه الحروب بذكر لمعة نبين فيها منشأ هاتين السلالتين وكيف تهيأ لهما بعد الانتقال من المشرق تأسيس دولتين في المغرب ولكن رأينا الاستطراد هناك يقطع تسلسل حلقات التاريخ فأفردنا له ذنابتين:

الأولى فى الإدارة: كان لعبد الله حفيد الحسن بن على بن أبى طالب ستة أبناء دون التاريخ لهم أعمالاً هامة فى الدين والسياسة: تفرقوا فى الجهات وبايعهم الناس لاعتقادهم أن الإمامة فى نسل على ونازعوا بنى العباس فى الخلافة وحاربهم هؤلاء وفتكوا بهم واطلوا دماءهم.

من أولئك الأبناء إدريس وهو أصغرهم كان يقاتل مع الحسين حفيد عمه الحسن الثالث أخى عبد الله وحفيد الحسن السبط بنى العباس أيام الهادى فى وقعة وج^(١) على ثلاث أميال من مكة سنة ١٦٩ للهجرة.

فلما دارت الدائرة على الحسين وقتل وولى أصحابه أفلت من الهزيمة إدريس ولحق بمصر وعاملها يومئذ مولى لبنى العباس اسمه واضح وكان يتشيع لآل على فحمله على البريد إلى برقة ومعه مولاة راشد ومنها توجه إلى القيروان حاضرة أفريقية وفيها إبراهيم بن الأغلب عامل بنى العباس.

أراد الله أن يكون لإدريس دولة بالمغرب كما أتاح لعبد الرحمن الداخل دولة بالأندلس فأعمى أبصار الرقباء العباسيين عنه وكان يتزياً بزي الأرقاء تمويهاً للأنظار.

ثم انتقل إلى تلمسان قصبة المغرب الأوسط واستراح فيها أياماً ثم عبر نهر ملوية متجهاً إلى طنجة مدينة السوس الأدنى وكان أخصب أقاليم المغرب الأقصى فلم يبق بها طويلاً لأنه لم يجد فيها الوسائل التى تؤدى إلى ما تطمح إليه أنظاره

(١) بواو مفتوحة وجيم مشددة وقيل فجج بالفاء وقيل فجج بالخاء.

فتركها ونزل وكيلي^(١) وكان بها يومئذ إسحاق بن عبد الحميد امير أوربة^(٢) وكان من المعتزلة فقابله بالحفاوة وأكرم مشواه ودعا قبائل المغرب الأقصى إلى طاعته فطاعوه وبايعوه على أن يكون أميرهم في رمضان سنة ١٧٢ (٧٨٨).

خاطب ابن الأغلب هارون الرشيد في شأن إدريس فندس إليه من سمّه فهلك سنة ١٧٥ وترك حظية جلي تسمى كنزة فقام بأمر البربر مولاه راشد ولما وضعت جنيها سمّوه إدريس باسم أبيه وكفله راشد إلى أن قتل سنة ١٨٦ وقام من بعده بالكفالة أبو خالد العبدى إلى أن بايعوا إدريس سنة ١٨٧ وهو ابن اثنتى عشرة سنة واستوزر مُصَنَّب بن عيسى الأزدي وقُتل إسحاق كبير قبيلة أوربة سنة ١٩٢ لما أحس منه بموالاة إبراهيم بن الأغلب.

ولما ضاقت ولى بسكانها اختط مدينة فاس ذات عدوتين عدوة الاندلسيين سنة ١٩٢ وعدوة القرويين سنة ١٩٣ فانتقلوا إليها وغزا المصامدة سنة ١٩٧ وفتح بلادهم وضايق إبراهيم بن الأغلب والى القيروان فدافع هذا عن حماه واستمال بهلولا المظفرى وقومه عن طاعة إدريس إلى طاعة الرشيد.

فاستراب إدريس بالبربر فاتخذ زهاء خمسمائة من عرب أفريقية والاندلس نزعوا إليه بطانته فاستقام بهم سلطانه وعجز الاغالبه عن مدافعة الادارسة وهلك إدريس سنة ٢١٣ وخلفه ابنه محمد وأشرك أخوته في سلطانه بإشارة جدته كنزة فقسم المغرب بينهم فكان من نصيب القاسم طنجة والبصرة^(٣) وسبتة - وعمر صناجة وغمارة وداود هوراة ومكناسة - وعبد الله اغمات^(٤) وجبال المصامدة

(١) فتح أوله وكسر ثانيه ورابعه مدينة بالمغرب قرب طنجة - ياقوت.

(٢) أوربة بفتح فسكون ففتح قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس.

(٣) البصرة هنا غير بصرة العراق وهى بلد فى أقصى المغرب قرب السويس خربت وكان بينها وبين فاس أربعة أيام.

(٤) اغمات ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش وهى مدينتان ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الاقصى بأربع مراحل وهى سجلماسة ثماني مراحل وبينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ.

وبلاد لمطة^(١) والسوس الاقصى - ويحيى أصيلة^(٢) وعيسى سلا^(٣) وأزمورة^(٤) وحمزة وليلى وأعمالها.

خرج عيسى بأزمورة على أخيه محمد طالبا الأمر لنفسه فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع فأوقع عمر بعيسى ثم بالقاسم وغلب على ما فى أيديهما فصار ريف البحر الرومى من بلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة وريف البحر المحيط من سلا إلى أزمورة من عمل عمر واتسعت ولايته إلى أن هلك سنة ٢٢٠ بصنهاجة فنقل إلى فاس ودفن بها وهو جد بنتى حمود المستولين على قرطبة عند انقراض ملك الأمويين.

وولى الأمير محمد عمل أخيه لولده على بن عمر وهلك محمد سنة ٢٢١ بعد أن استخلف ابنه عليا وهو ابن تسع سنين فكفلته بطانة أبيه واطاعته سائر البربر وكانت أيامه خير أيام ومات سنة ٢٣٤ وخلفه أخوه يحيى فامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستجدت فاس فى العمران وبُنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وفى عهده اختطت سيدة مثرية تسمى فاطمة المسجد الجامع وكان أبداع بدائع المغرب.

ومات يحيى فخلفه ابنه يحيى فاساء السيرة فثارت به العامة وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الاندلسيين فمات بها.

وبموته انقطع عقب محمد بن إدريس كذا يؤخذ من ابن خلدون.

ويؤخذ من ابن عذارى أن الذى خلف محمدا ابنه يحيى فلم يحسن سياسة

(١) لمطة بالفتح ثم السكون أرض وقبيلة من البرب بأقصى المغرب.

(٢) أصيلة أول مدينة العدو مما يلى الغرب والبحر بغيريها وجنوبيها وهى بغيرى طنجة بينهما مرحلة.

(٣) سلا بالفتح مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها غرنيطوف.

(٤) أزمورة بثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم بلد بالمغرب فى جبال البربر.

الملك لأنهماكه في الشراب ولهوه بالنساء وأنه دخل يوماً الحمام على امرأته فتغير عليه أهل فاس فهرب إلى عدوة الأندلس ومات بها.

وخلفه على بن عمر صاحب الريف فجاء إلى فاس وبإيعاده واستولى على أعمال المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجي وملك منه عدوة الأندلس وألجأه إلى أوربة وخلفه في عدوة القرويين يحيى بن القاسم بن إدريس وأخرج الخارجي من العدوة الأخرى وطالت إمارة يحيى بفاس إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ وخلفه يحيى بن إدريس بن عمر صاحب الريف فتفرد بملك الغرب وفاق أسلافه سلطاناً وعلماً ولكن في عهده أخذ الفاطميون يمدون بساط ملكهم في أفريقية ومدوا أنظارهم إلى ملك المغرب فأغزى إليه عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين قائده مصالة بن حبوس لمكناسي صاحب تاهرت سنة ٣٠٥ (٩١٧) في رجالات مكناسة وكنامة فأوقع بيحيى صاحب فاس وهزمه إليها وحاصرها ثم صالحه على الخراج والطاعة لمولاه وعلى عمل فاس خاصة وولى ابن عمه موسى بن أبي العافية كبير مكناسة يومئذ أعمال المغرب ما عدا فاس ورجع فكان بين موسى ويحيى شحناء فلما عاود مصالة غزو المغرب سنة ٣٠٧ وقيل سنة ٣٠٩ أغراه موسى بيحيى فغدر به واستصفى أمواله وضم أعمال فاس إلى موسى ومحا دعوة الإدارة من المغرب واجهضهم عن أعماله فتحيزوا إلى بلاد الريف وغمارة واستجدوا بها ولاية.

بذلك سقط نجم الإدارة من المغرب وظهر كوكب الفاطميين في أفريقية - ومع هذا في سنة ٣١٣ عاد الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس إلى فاس وطرده منها ربحان عامل موسى وملكها عامين وحارب موسى لكنه انهزم إلى فاس فلما دخلها ابن أبي العافية فر الحسن ومات أثناء فراره وكان يعرف بالحجرام لأنه تكرر منه عند القتال إصابة موضع المحجم وقد قال في ذلك:

وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لضربي في مكان المحاجم

استولى موسى على ملك فاس واجلى بنى محمد بن القاسم بن ادريس إلى الريف فنزلوا البصرة وولوا عليهم إبراهيم أخا الحسن الحجام فاخط حصن حجر النسر ٣١٧ وخلفه أخوه القاسم ونزع إلى الفاطميين وقام بدعوتهم كما نزع موسى ابن أبي العافية إلى خليفة قرطبة وقام بدعوته في المغرب والسبب في ذلك أن الشيعة أرسلوا قائدهم حميد بن يصل إلى المغرب فانتزع فاس من عامل موسى سنة ٣١٧ وولى عليها حامد بن حمدان لكن بعد عودة حميد إلى أفريقية قام أهل فاس وقتلوا حامدا وابنه وبعثوا برأسيهما إلى موسى فبعث بهما إلى قرطبة - وكان بنو عمر بن ادريس يومئذ بغمارة فانتزع الناصر منهم سبعة سنة ٣١٩.

ومن أبناء عبد الله حفيد الحسن السبط السالف الذكر سليمان دخل المغرب بعد هلاك أخيه ادريس وملك تلمسان واطاعته زناته وخلفه ابنه محمد واقتسم بنوه ثغور المغرب الأوسط فكانت جراوة لابنه ادريس ثم لابنه عيسى وكنيته أبو العيش - ووليها الحسن بن أبي العيش سنة ٢٩١ وانتقل عنها إلى تلمسان سنة ٣٢٥.

الثانية في الفاطميين: الفاطميون فريق من الشيعة يقولون إنهم من نسل فاطمة الزهراء زوج الإمام على وإن رسول الله ﷺ أوصى له من بعده بالإمامة على المسلمين وأنها صارت من على إلى الحسن ثم الحسين ثم ابنه على زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ وهؤلاء الشيعة يسمون بالإمامية واختلفوا بعد هذا الإمام السادس فقد كان له ولدان أحدهما إسماعيل ولى عهده لكنه مات قبل أبيه سنة ١٤٥ وثانيهما موسى الكاظم خلف أباه.

فأغلب الشيعة الإمامية يرون أن الإمامة صارت من جعفر إلى ابنه موسى ثم ابنه على الرضا ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه على الهادي ثم ابنه الحسن العسكري ومات هذا سنة ٢٦٠ للهجرة وترك جنينا وضعته أمه وسمته محمداً زعموا أنه دخل مع أمه سردابا في جامع سامرا فلم يعد وأنه حى واتخذوه إمامهم ولقبوه

المهدي وهم الآن يتظرونه فهو عندهم المهدي المنتظر والإمام الثاني عشر -
ولذلك يسمون الاثنى عشرية.

ويروى أنهم بعد صلاتهم المغرب يقدمون مركباً بجهازه وحليته إلى
السرداب وينادونه «أيها الإمام اخرج الينا فإن الناس منتظرون والخلق حائرون
والظلم عام والحق مفقود فاخرج الينا تقرب الرحمة من الله في آثارك» ومذهبهم
منتشر في المدينة والشام والعراق.

وقد تصدى خلفاء بني العباس لأئمة الاثنى عشرية بالاهلاك فقد أشخص هارون
الرشيد موسى الكاظم من المدينة إلى بغداد وحبسه حتى مات مسموما سنة ١٨٣ .
وبعد أن عهد المأمون لعلي الرضا بالأمر من بعده وكانا بخراسان سمه (على
ما قيل) في الطريق إلى العراق بطوس سنة ٢٠٣ .

وقال بعضهم إن المقتدر سم عليا الهادي سنة ٢٥٤ .

وحبس الحسن العسكري بسامرا حتى هلك سنة ٢٦٠ ودفن في جامعها
المعروف بالمشهد وفيه السرداب الذي تزعم الشيعة أن مهديهم يخرج منه .
والقليل منهم يرون أن الإمامة حلت في إسماعيل فإن الله عهد بها إليه على
لسان أبيه جعفر والاله لا ينقض عهده وأنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد
المكتوم ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد الحبيب ثم ابنه عبيد الله المهدي
صاحب الدولة الفاطمية في أفريقية.

وهؤلاء هم الإسماعيلية وكان أئمتهم مستورين ولهم دعاة ظاهرون فقد أنفذ
امامهم جعفر إلى أفريقية الحلواني وأبا سفيان وقال لهما «بالمغرب أرض بور
فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر» فنزلا أرض كتامة فقشت دعوتهم فيها .
وأنفذ إمامهم محمد الحبيب وكان ينزل سلمية من أرض حمص بالشام رسم
ابن الحسن بن حوشب الكوفي إلى اليمن لأقامة دعوتهم فيه ومبشراً بقرب ظهور
المهدي فسار إلى عدن ودعا وبشر وقاتل وغلب حتى ملك صنعاء من بني يعفر .

واجتمع به وهو في عدن أبو عبد الله الحسين الصنعاني وحضر مجالسه وأخذ عنه فانقذه ابن حوشب إلى المغرب حين بلغه الحلواني وصاحبه.

وقيل إن أبا عبد الله كان محتسباً بالبصرة ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية فاتصل بمحمد الحبيب فأرسله إلى ابن حوشب وهذا أرسله إلى كتامة بعد أن زوده بعلمه فسار إلى مكة فلقى بموسم الحج رجالات كتامة ورؤساءهم وفيهم من لقي الحلواني وأبا سفيان وأخذ عنهما فاستمالهم إليه بعلمه ودهائه فآلفوا صحبته ودعوه إلى بلادهم فرافقهم ومروا بمصر وسلكوا طريق الصحراء عادلين عن طريق القيروان مركز حكومة بني الأغلب.

ودخلوا كتامة سنة ٢٨٠ (وقيل ٢٨٨) فنزل أبو عبد الله الشيعي في فجج الأخبار من بلد إنكجان أو إيكجان ودعا الناس إلى مذهب الشيعة وأعلن إمامة أهل البيت فاتبعه أكثر كتامة وأخذ أمره يستفحل شيئاً فشيئاً حتى انتزع البلاد من أيدي بني الأغلب وفر أميرهم الأخير (زيادة الله) من مدينة (رقادة) وملكها الشيعي سنة ٢٩٦.

في هذه الاثناء مات الإمام محمد الحبيب وخلفه ابنه عبيد الله المهدي فدعاه الشيعي من المشرق وألقى إليه مقاليد ملك أفريقية فنزل رقادة سنة ٢٩٧ وسكنها إلى أن أكمل بناء (المهدية) على البحر ٣٠٦.

وبناء على ما سبق يكون عبيد الله المهدي ابن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقيل عبيد الله المهدي ابن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق - وعلى كلا القولين ينتهي نسب المهدي هذا إلى علي بن أبي طالب.

وقد أثبت صحة هذا النسب بعض المؤرخين وذهب آخرون إلى أنه موضوع

وأنه لم يكن اسم المهدي (عبيد الله) بل اسمه (سعيد) وأنه ابن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان وأن هؤلاء زنادقة نشثوا في بلاد فارس وابتدعوا مذهبا شطوا فيه عن الإسلام وأولوا نصوصه كما شئت أهواؤهم ووضعوا الأحاديث الكاذبة وشككوا الناس في دينهم وادعوا أن تكاليف الشرع قيود للعامة ساقطة عن الخاصة وأحلوا الاخوات والأمهات.

وكانوا يظهرن التشيع لآل البيت ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة إليهم وكان لهم دعاة في البلاد يظهرن الزهد والعبادة ليغروا الناس بذلك وهم على خلافه. وان جدهم الأعلى ديصان واضع كتاب الميزان في نصرة الزندقة وقد تعلم عبد الله القداح الطب وعلمه أبوه المذهب وأطلعه على أسرار هذه النحلة وسمى قداحا لأنه كان يعالج العيون ويقدها.

وسار القداح من كرج وأصبهان إلى الأهواز والبصرة والكوفة وطالقان وخراسان وسلمية من أرض حمص يدعو الناس لآل البيت ثم توفي وخلفه ابنه أحمد وادعى أنه من سلالة علي بن أبي طالب وصحبه ابن حوشب الكوفي فأرسله إلى اليمن، ثم خلفه ابنه محمد وكان يكاتب الدعاة في البلاد.

وخلفه ابنه الحسين وسار إلى سلمية وكان ذا أموال ووكلاء وغللمان فتزوج امرأة يهودى مات عنها ولها منه اسمه (سعيد) فأحبه الحسين وتبناه وأدبه وعلمه وعرفه أسرار الدعوة وعلاماتها وعهد إليه بالإمامة فخلفه بعد وفاته وتسمى (عبيد الله المهدي) وجعل له نسبا وهو (عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي ابن موسى جعفر الصادق...) وهذا النسب يدل على أنه جعل نفسه مهدي الاثنى عشرية المنتظر.

وقد انتشرت دعوته وبذل الأموال وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجالا من كتامة ليخبروه بما أتبع له من النصر وأنهم يتظرون وشاع الخبر وبلغ المكثفي

العباسي فطلبه فهرب هو وولده إلى أفريقية وأسس فيها الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦هـ^(١).

ويؤخذ من دوزي أن أصل الفاطميين من الفرس وأن جدهم عبد الله بن ميمون الفارسي كان طبيباً للعيون حاذقاً في الفلسفة واللاهوت وبلغ من أمره أن هم بالتنبؤ لولا أن رأى آيات الخذلان فأنحدر إلى منزلة (المهدي المنتظر) فأحيا مذهب الإسماعيلية^(٢) وكاد يتقلص ظله عقب أن حل باشياع على ما حل بهم من الخيبة والفشل في مقاصدهم وقتل كثير منهم بالحديد والسم وانزواء بقاياهم في خراسان وقندهار.

وكان له دعاة في سائر الجهات يشرون بقرب ظهور المهدي المنتظر تمهيداً له أو لمن يخلفه في سيادة هذا المذهب من أبنائه.

ومن هؤلاء الدعاة (أبو عبد الله الصنعاني) دخل أرض كتامة من أفريقية سنة ٢٨٠هـ وكان نشيطاً جريئاً فصيحاً ذا دهاء ومكر عارفاً ما يلائم عقول البربر فأخذ يدعو الكتاميين إلى محبة أهل البيت ويعددهم بخير الدنيا والآخرة إذا هبوا بسلاحهم لنصرتهم ويشرهم بأنه سيظهر قريباً من نسل فاطمة بنت النبي ﷺ إمام معصوم يقيم قسطاس العدل بين الناس وأنه المهدي الوارد في الحديث المأثور وما زال يخلب قلوبهم بسحر بيانه وقوة عارضته وبرهانه حتى صدقوه ومالوا إليه وقاموا تحت لوائه وكانوا أولى قوة وكثرة فانتزعوا المدائن من يد آخر أمير من بني الأغلب بعد أن حكموها حقبة تنيف عن قرن من الدهر والجثوة إلى الفرار من (رقادة) حاضرة القيروان.

وفي سنة ٢٩٦ دعا هذا الشيعي سيد مذهب الإسماعيلية في ذلك الوقت

(١) ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء.

(٢) لعله يقصد الاثنى عشرية فإن مذهبهم هو الذي كاد يتلاشى لقتل أئمة وفقد إمامهم الثاني عشر واحياء هذا المذهب هو المناسب لمقصد ابن ميمون.

(سعيد) من ذرية عبد الله بن ميمون طبيب العيون وأجلسه على سرير ملك أفريقية فادعى سعيد أنه من نسل جعفر الصادق وسمى نفسه (عبيد الله المهدي).

الثالثة في السلاف أو الصقالبة: السلاف عند الافرنج هم الصقالبة عند العرب أما الافرنج فيعرفون السلاف بأنهم نوع من الجنس الهندي لا يرى يمتاز بأخلاقه ولغاته ويقسمونهم إلى ثلاثة شعوب كبيرة: السلاف الغربيون في روسيا والبروسيا والنمسا والسلاف الشرقيون وهم روس الشرق والسلاف الجنوبيون ومنهم البلغار والصرب وفي أوربا منهم ما بين ٨٠ و ١٠٠ مليون.

وأما العرب فيعرفونهم بأنهم جيل من الصقلب بن يافث حمر الألوان صهب الشعور تتاخم بلادهم بلاد الخزر وبعض بلاد الروم بين بلغر أو بلغار وقسطنطينية ويسكن كثير منهم بلاد الخزر وجزيرة صقلية وفيها موضع يقال له صقلب أو حارة الصقالبة ولواحدهم صقلبي.

كان الجرمان يقاتلون الشعوب السلافية ويطلقون على أسراهم اسم (السلاف) ويبيعونهم إلى عرب اسبانيا فكان هؤلاء يطلقون عليهم اسم (الصقالبة) ثم توسعوا في استعمال الاسم فأطلقوه على مواليتهم المجلوين من أية أمة أخرى. وكان منهم من يخطفهم لصوص البحر (القرصان) ومنهم من يشترون من موانئ إيطاليا.

وكان اليهود يتجرون فيهم ويتصيدون الأطفال ذكورا وإناثا ويحملونهم على السفن إلى اسبانيا لبييعوهم إلى أهلها - وفوق ذلك كانوا يجلبون أيضاً خصيانا من فرنسا لخدمة سيئات اسبانيا.

ولما كان يجاء بهؤلاء الصقالبة صفارا كان من السهل أن يتدينوا بدين ساداتهم ويتكلمو بلسانهم ويتخلقوا بأخلاقهم - وقد اعتنى بتربية كثير منهم فكان منهم قواد وعلماء وشعراء - وكان خليفة اسبانيا يتخذ صقالبته من الجلالقة والفرنك (الفرنسيين والالمان) وغيرهم من البيض والسود وقد كثر عددهم في

عهد عبد الرحمن الثالث في خدمة قصره وفي شرطة قرطبة حتى بلغ ١٣٧٥٠
وكان منهم (نجدة) القائد العام الذي كان سبب فشل جيش قرطبة في غزوة
(الحندة) على رأى دوزى كما سبق.